لطائف الإشارات في أسرار المآذن والمنارات

د/مصطفى حسن البدوي



لطائف الإشارات
في
أسرار المآذن والمنارات

لطائف الإشارات

في

أسرار المآذن والمنارات

د . مصطفى حسن البدوي

الطبعة الأولى
١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م
رقم الإيداع: ٢٠٠٨/٩٤٧٣
الترقيم الدولي I.S.B.N.
٢-١٤-٦٢١٤-٩٧٧

بطاقة فهرسة
فهرسة أثناء النشر
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

بدوي، مصطفى حسن
لطائف الإشارات
مصطفى حسن بدوي- القاهرة
الوابل الصيب للإنتاج والتوزيع والنشر، ٢٠٠٨
١٥٢ص؛٢٤سم.
تدمك ٢-١٤-٦٢١٤-٩٧٧
١- المآذن
٢- المساجد
٣- الآثار الإسلامية
أ- العنوان
٦٩٠,٦٢



الوابل الصيب للإنتاج والتوزيع والنشر
تراثنا ...... أمانة في أعناقنا

٧٠٤٧ شارع ١٧- المقطم - القاهرة - مصر
تليفون: ٢٥٠٨٧٣٨٣- ٢٠٢+ - ٢٥٠٧٦١٤٥- ٢٠٢+
E-Mail: Info@Alwabell.com
www.alwabell.com
www.alimamalallama.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَة

الحمد لله بديع السموات والأرض، العزيز الحكيم؛

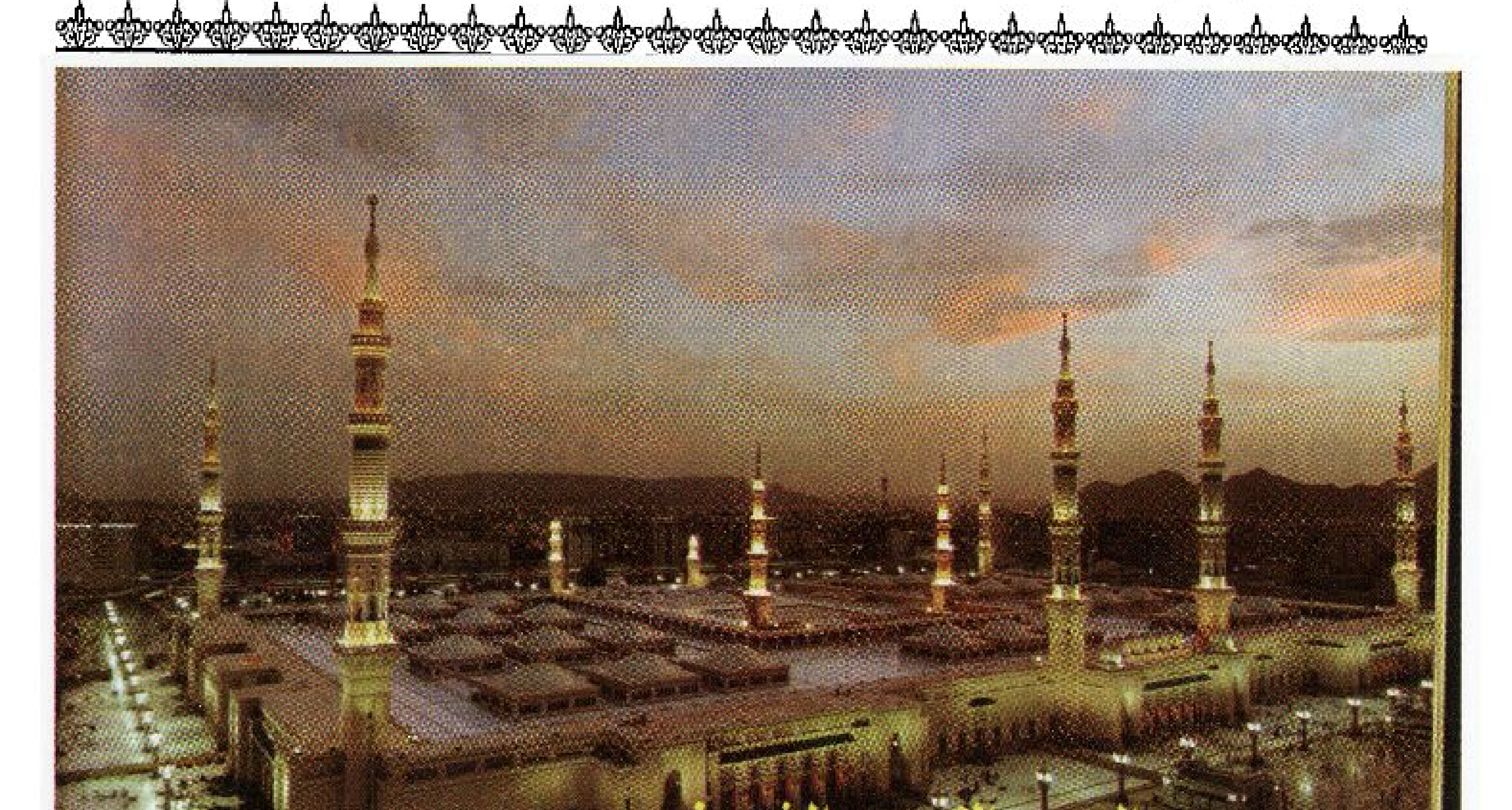
والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين، الذي انبثقت من صدره الشريف علوم وفنون الدنيا والدين، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وأصحابه أولي الحكمة واليقين، ومن تبعهم وأظهر علومهم إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإن مَن ينظر مِن المسلمين إلى مآذن المساجد المنتشرة في كل مكان لابد وأن يدرك بداهة ولأول وهلة أنها إعلان لتوحيد الخالق جل وعلا.

ولَمَّا كان لدوائر هذا الدين مركزاً تدور عليه وهو التوحيد الخالص، وكان هذا الدين يغرس في قلوب المؤمنين أن أهم ما في الوجود إنما هو اليقين والإقرار بأن الله سبحانه وتعالى فَرْد أحد، لا ثاني له، شهادة تُخْرِج الإنسان من النار إلى الجنة، ومن الجاهلية والبعد إلى الإيمان والقرب، فإنه لا يكاد المسلم ينظر إلى المئذنة التي تنطلق في الهواء مرتفعة إلى السماء، ظاهرة بمفردها، حتى يتبادر إلى ذهنه هذا المعنى الأوليّ المحوري الذي هو مركز وجدانه. ولاشك أن الذين أقاموا المآذن الأولى كانوا يدركون تمام الإدراك أنها إشارة على التوحيد، وهي إشارة واضحة يفهمها أهل التوحيد كافة، لا تخفى على صغير ولا كبير، ولا على متعلم ولا أمّي.





الحرم النبوي الشريف

ويشير إلى أهمية الأذان ومكانته من الدين ما ذكره النبي ﷺ من مناقب المؤذنين ومقامهم عند الله سبحانه وتعالى، فقد قال ﷺ: «الْمُؤَذِّنُونَ أَطْوَلُ النَّاسِ أَعْنَاقاً يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(١)، وقال ﷺ: «الْمُؤَذِّنُونَ أُمَنَاءُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى فِطْرِهِمْ وَسُحُورِهِمْ»(٢).

وقال ﷺ: «الْمُؤَذِّنُونَ أُمَنَاءُ، وَالأَئِمَّةُ ضُمَنَاءُ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْمُؤَذِّنِينَ وَسَدِّدِ الأَئِمَّةَ» ثَلاثَ مَرَّاتٍ(٣).

وفي رواية: «الإِمَامُ ضَامِنٌ، وَالْمُؤَذِّنُ مُؤْتَمَنٌ، فَأَرْشَدَ اللهُ الإِمَامَ وَعَفَا عَنِ الْمُؤَذِّنِ»(٤).

وقال ﷺ: «يَجِيءُ بِلالٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَاحِلَةٍ رَحْلُهَا مِنْ ذَهَبٍ، وَزِمَامُهَا مِنْ دُرٍّ

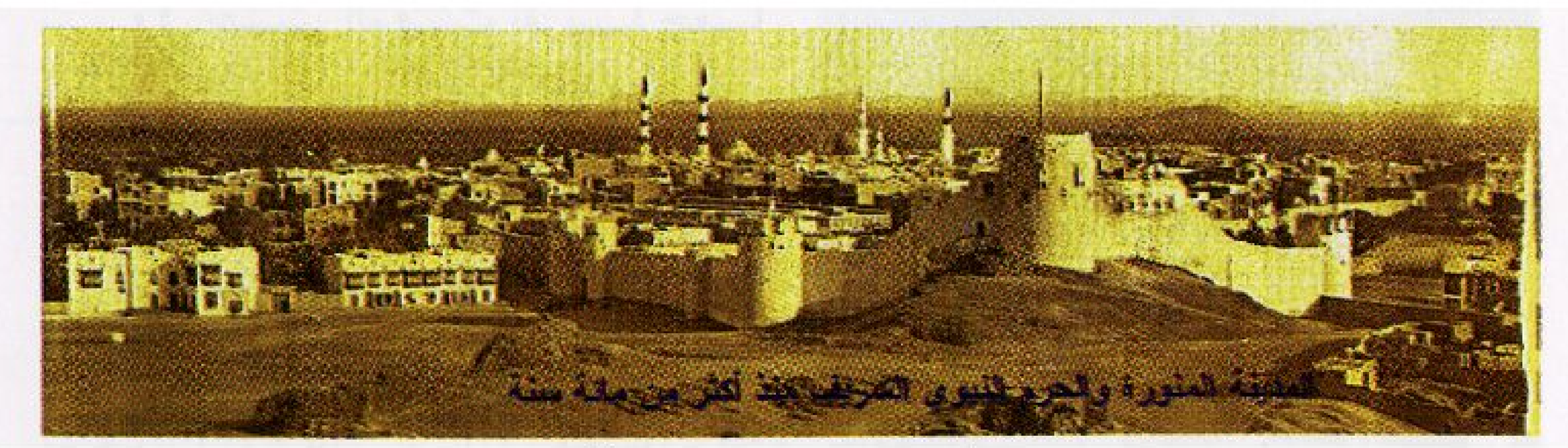
(١) صحيح مسلم: (٥٨٠).
(٢) المعجم الكبير للطبراني: (٦٦٠٣).
(٣) صحيح ابن خزيمة: (١٤٤٧).
(٤) السنن الكبرى للبيهقي، الجزء الأول: ص٤٢٦.

وَيَاقُوتٍ، مَعَهُ لِوَاءٌ، يَتْبَعُهُ الْمُؤَذِّنُونَ فَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ حَتَّى إِنَّهُ لَيُدْخِلُ مَنْ أَذَّنَ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا، يُرِيدُ بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ ﷻ»[(١)].

إن المسجد النبوي الشريف لم يكن به مآذن في العصر الأول، وكان سيدنا بلال وغيره من المؤذنين الأوائل ﷺ يصعدون إلى أسطح البيوت المجاورة لرفع الأذان.

روى عُرْوَة بْن الزُّبَيْر عَن امْرَأَةٍ مِنْ بَنِي النَّجَّار قَالَتْ: كَانَ بَيْتِي مِنْ أَطْوَل بَيْتٍ حَوْلَ الْمَسْجِدِ وَكَانَ بِلَالٌ يُؤَذِّنُ عَلَيْهِ الْفَجْرَ، فَيَأْتِي بِسَحَرٍ فَيَجْلِسُ عَلَى الْبَيْتِ يَنْظُرُ إِلَى الْفَجْرِ، فَإِذَا رَآهُ تَمَطَّى، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَحْمَدُكَ وَأَسْتَعِينُكَ عَلَى قُرَيْشٍ أَنْ يُقِيمُوا دِينَكَ، قَالَتْ: ثُمَّ يُؤَذِّنُ[(٢)].

وذكر أهل السير أن بلالاً كان يؤذن على إسطوان في قبلة المسجد يرقى إليها بأقتاب، وكانت في منزل آل عمر. قال ابن عمر ﷺ: كان بلال يؤذن على منارة في دار حفصة بنت عمر التي في المسجد، وكان يرقى على أقتاب فيها، وكانت خارجة من مسجد رسول الله ﷺ لم تكن فيه[(٣)].



مآذن الحرم المدني قديماً

ونجد ذِكْر المآذن في التاريخ عند ذِكْر تجديد مسجد البصرة في خلافة معاوية بن

(١) المعجم الكبير للطبراني: (٤٥- ١٢١- ٥٢٦).
(٢) سنن أبي داود، كتاب الصلاة، باب الأذان فوق المنارة: (٤٣٥).
(٣) ابن الضياء: تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام.

أبي سفيان سنة ٤٥هـ وأنه جُعل للمسجد حينئذ منارة من الحجارة [١].

وفي سنة ٥٣هـ أمر معاوية عامله على مصر مَسْلَمَة بن مُخَلَّد الأنْصَارِيّ، وكان له صحبة ورواية عن رسول الله ﷺ، ببناء أربع مآذن في أركان مسجد عمرو بن العاص بالفسطاط. ثم لَمَّا كثرت مساجد الخطبة أمر مَسْلَمَة بن مُخَلَّد ببناء المنار في جميع المساجد بمصر.

وفي زمن الوليد جعل عمر بن عبدالعزيز أثناء ولايته على المدينة لمسجد رسول الله ﷺ حين بناه أربع منارات في كل زاوية منه منارة، وقد انتهى من بنائها سنة ٩١ أو٩٣هـ. وكان عمر بن عبدالعزيز أيضاً أول من أحدث المحراب في جهة القبلة من المسجد النبوي الشريف[٢].

وفي نفس الوقت تقريبا جعل الوليد بن عبد الملك (٨٦- ٩٦) للمسجد الأموي بدمشق مئذنتان، ولم يقم ببنائهما، بل كانتا أبراج المبنى القديم.

مئذنة المسجد الأموي القديمة

والظاهر أن المآذن الأولى كانت عبارة عن أبراج مربعة، ويدل على ذلك أن الشيخ السمهودي يذكر أن ارتفاع مآذن المسجد النبوي في المدينة كان بين ٥٣ و٦٠ ذراعاً، وعرضها ثمان أذرع في ثمان[٣]،

(١) البلاذري، فتوح البلدان: ص٤٨٥.
(٢) السمهودي، وفاء الوفاء: ص٥٢٣، ٥٢٦.
(٣) السمهودي، وفاء الوفاء: ص٥٢٣.

فذلك دليل على أنها كانت مربعة. وقد بقي اليوم من هذه المآذن القديمة اثنتان، المئذنة الجنوبية من المسجد الأموي، ومئذنة مسجد القيروان التي بنيت سنة ١٠٥هـ.

ثم جرت عادة المسلمين بعد ذلك واتفقوا في أكثر بقاع الأرض على تزويد المساجد بالمآذن، والقباب، والمحاريب، فلا تكاد ترى مسجداً إلا وله هذه الصفات الثلاث. والأذان الذي يرتفع من كل مئذنة خمس مرات كل يوم إنما هو إفصاح وبيان للإشارة التي تدرك بمجرد مشاهدة هيئة المئذنة، فالمؤذن يعلن أن الله أكبر من كل شيء وأي شيء، أي منزه عن أن يشبهه شيء، منزه عن أن يُحاط به علماً، منزه عن أن يوصف بغير ما وصف به نفسه، فإنه يقول تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾[1]، ويقول: ﴿سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾، ثم بعد أن نزه نفسه عن أن يصفه خلقه يقول المولى ﷻ: ﴿وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ مشيراً إلى أن الطريق الوحيد لمعرفته هو الاستماع والانقياد لما أرسل به رسله، وإلى أن هذه نعمة عظمى تستحق من الخلق دوام الحمد ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾[2]. ولذلك يثنّي المؤذن شهادة التوحيد بشهادة الرسالة فيعلن أن محمداً رسول الله، ثم يدعو الناس لتأييد القول بالفعل بأن يقول: حي على الصلاة، أي أقبلوا إلى عبادة ربكم الذي أفردتموه بالتوحيد، معلناً بقوله: حي على الفلاح، أن هذه الطاعة والعبادة هي سبيل الفلاح والنجاة، كما أنها سبيل التيقن والتحقق بأن الله أكبر، وأنه لا إله إلا الله.

إنّ كلا من المئذنة والأذان إعلان عن وجود المسجد، وبالتالي إعلان بأن هذا مكان مأهول بالمسلمين الذين يقيمون شعائر الله، وأن هنا بيت لله فيه من يسبح له بالغدو والآصال، رجال يوحّدونه ويقدّسونه، لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكره وشكره وحُسْن عبادته. وكم من مرة في حياة كل مسلم يكون في بلد أو منطقة غير

---

(١) سورة الأنعام، آية ٩١.

(٢) سورة الصافات، آيات: ١٨٠-١٨٢.

مألوفة، فينظر حوله يميناً وشمالاً عسى أن يرى مئذنة أو يسمع أذاناً، فإن رأى المئذنة استدل على مكان المسجد، وإن سمع الأذان قاده إليه.

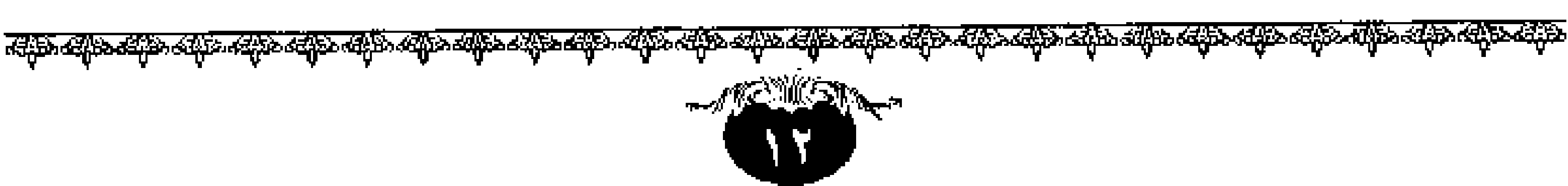
وفي كتب المتقدمين من علماء المسلمين نجد المآذن يطلق عليها دائماً المنارات، وإذا كان الحديث عن المساجد تكون المئذنة والمنارة بمعنى واحد، أما المنارة في اللغة فهي أعم، وهي العلامة على الشيء.

وفي الخبر: عن أبي هريرة ﵁ أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ للإِسْلامِ صُوًى وَمَنَاراً كَمَنَارِ الطَّرِيقِ، مِنْ ذَلِكَ أَنْ يُعْبَدَ اللهَ لاَ يُشْرَكُ بِهِ شَيْئاً، وَتُقَامَ الصَّلاَة، وَتُؤْتَى الزَّكَاة، وَيُحَجَّ الْبَيْتَ، وَيُصَامَ رَمَضَان، وَالأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْي عَنِ الْمُنْكَرِ، وَتَسْلِيمُكَ عَلَى أَهْلِ بَيْتِكَ إِذَا دَخَلْتَ عَلَيْهِمْ، وَتَسْلِيمُكَ عَلَى بَنِي آدَمَ إِذَا لَقِيتَهُمْ، فَإِنْ رَدُّوا عَلَيْكَ رَدَّتْ عَلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةُ، وَإِنْ لَمْ يَرُدُّوا عَلَيْكَ رَدَّتْ عَلَيْكَ الْمَلاَئِكَةُ وَلَعَنَتْهُمْ أَوْ سَكَتَتْ عَنْهُمْ، وَمَنِ انْتَقَصَ مِنْهُنَّ شَيْئاً فَهُو سَهْمٌ مِنَ الإِسْلاَمِ تَرَكَهُ، وَمَنْ نَبَذَهُنَّ فَقَدْ وَلَّى الإِسْلاَمَ ظَهْرَهُ»[1].

في رواية أبي الدرداء ﵁ أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ للإِسْلاَمِ صُوًى وَعَلاَمَاتٍ كَمَنَارِ الطَّرِيقِ، فَرَأْسُهَا وَجِمَاعُهَا شَهَادَةُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَإِقَامُ الصَّلاَةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَتَمَامُ الْوضُوءِ، وَالْحُكْمُ بِكِتَابِ الله، وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ ﷺ، وَطَاعَةُ ولاةِ الأَمْرِ، وَتَسْلِيمُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَتَسْلِيمُكُمْ إِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتَكُمْ، وَتَسْلِيمُكُمْ عَلَى بَنِي آدَمَ إِذَا لَقِيتُمُوهُمْ»[2] أي إن للإسلام طريق يسير فيه المسلمون، ويستدلون عليه بعلاماته، وهي التي ذكرها ﷺ، فمن كان هذا منهجه ودَيْدَنه كان على الطريق المحمدي، وهو الطريق إلى الجنة، وهو الصراط المستقيم.

والمنارة أيضاً هي العلامة تجعل بين الحدين للجار والجار؛ وفي الخبر: «لَعَنَ اللهُ مَنْ

(١) مسند الشاميين للطبراني: (٤١٩).
(٢) مسند الشاميين للطبراني: (١٩٢٧).



غَيَّرَ مَنَارَ الأَرْضِ»[1]. ومنار الحرم أعلامه التي ضربها إبراهيم الخليل عليه السلام على أقطار الحرم ونواحيه، وبها تُعْرف حدود الحرم من حدود الحِل.

الأزهر الشريف ومآذنه قديما

(١) صحيح مسلم: (٣٦٥٧).



وإذا عُلِّق السراج في المئذنة صارت منارة تنير ما حولها وتهدي الناس في الظلمات الحسية، وإذا رفع من فوقها الأذان صارت تهديهم إلى الأنوار المعنوية، نور الإسلام، ونور الصلاة، ونور ذكر الله تعالى.

ولقد سألت بعض الأصدقاء والزملاء، حين كتابة هذه الرسالة، ماذا تعني المآذن لكل منهم، وماذا استخلصوا من قراءة هذه الرسالة، فجاءتني إجابات متشابهة، تدور حول أمور معدودة، كانت أطولها وأكثرها بياناً إجابة زميلي الطبيب الفقيه الدكتور خالد كمال، فأحببت إيرادها كاملة.

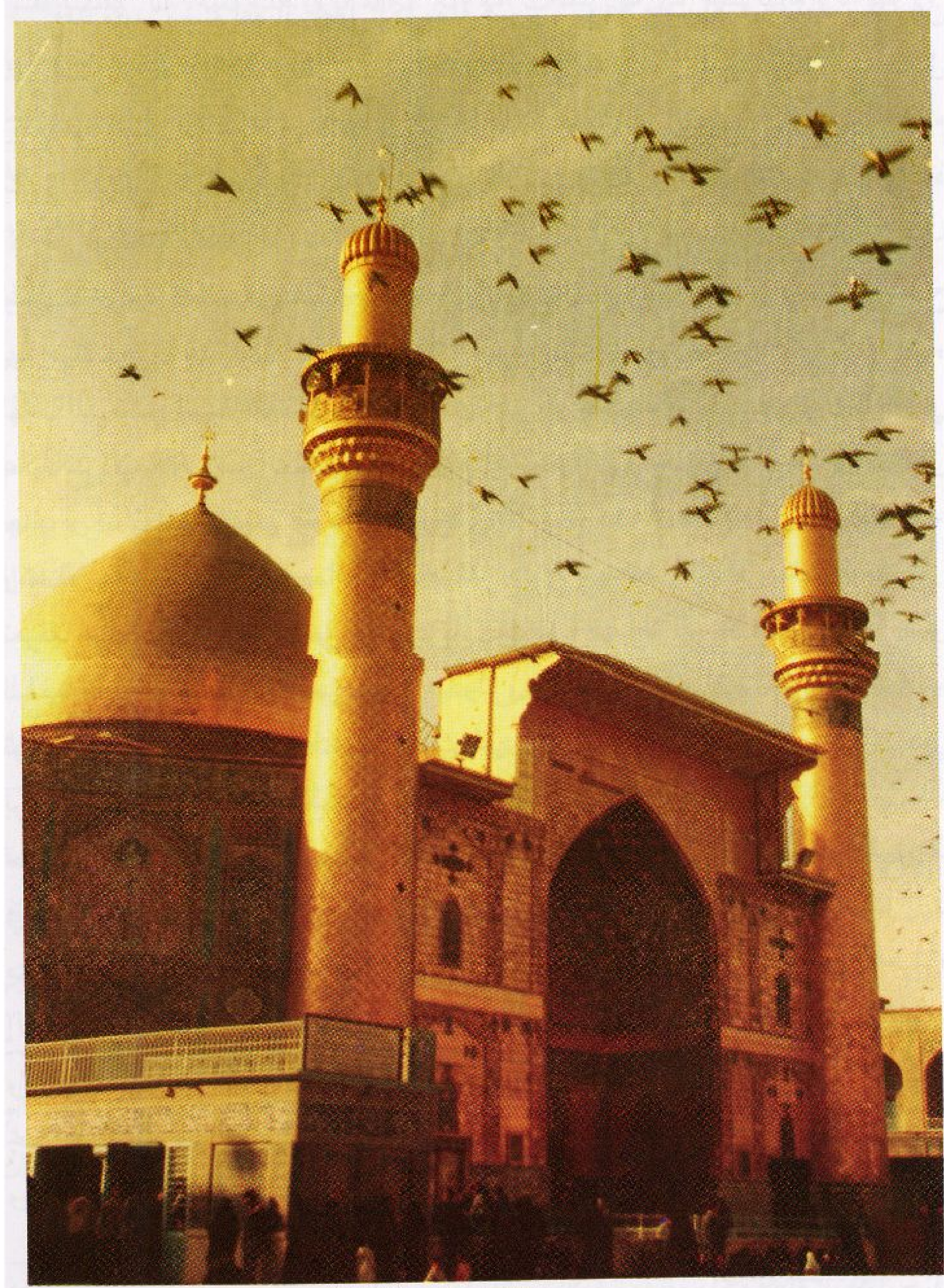
كتب جزاه الله خيراً:

الحمد لله الذي جعل عمارة بيوته من أعظم شواهد الإيمان، وأذن أن ترفع وتعظّم تعظيماً للرحمن. وقد أخبر رسول الله ﷺ أن من بنى لله مسجداً بنى الله له بيتاً في منازل الجنان[1].

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الكريم المنان، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله السابق إلى كل خير ومعروف وبرٍّ وإحسان، ﷺ صلاة وتسليماً يليقان بمقامه العالي عند ربه.

أما بعد، فإن الأوقات تمر وتسحرنا المدن لا بأبهتها وإنما بالتاريخ الذي يختبئ فيها ويتجسد في كل زاوية من زواياها، وفي أسرار الحياة التي اندمجت بحيطانها. وحين يجول النظر في أبنياتها العتيقة، في مساجدها ومآذنها التي عاشت قروناً وقروناً، بل وعايشت أمماً وممالك.. حين يجول النظر فيها يدور بالخاطر أن هذه الأبنيات تحمل في أركانها شيئاً، وأن بانيها إنما أراد أن يقول شيئاً، شيئاً يَدُلّك على عصره وأوانه، أو شيئاً يُخْبرك عن عقيدته وتراثه ومخزونه الديني والروحي. وإنه لجميل أن نجد من يربط لنا بين تلك الروائع العمرانية وبين ما يقوم في أعماقنا من تاريخ وتراث عقدي وأخلاقي..

(١) سنن الترمذي: (٢٩٣-٢٩٢)؛ سنن ابن ماجه: (٧٢٨).



مسجد الإمام علي بالكوفة

فقد مضت سنة الله أن يجعل لكل ملة صُوىً[1] وعلامات تُعْرف وتُوسم بها عن باقي الملل. ولقد ميز الله ملة الإسلام بعلامات شتى، من سار عليها والتزمها حقق وبلغ هذا الدين لا غيره. فهذا الدين كما ميزه الله عن باقي الأديان بأوامر وأحكام مثل: الأمر بالأذان، عدم وجود وسائط بين المسلم وربه في الصلاة وغيرها، اتخاذ الأرض مسجداً وطهوراً، استحلال الغنائم، وغيرها، وهي علامات بارزة تفتقر إليها الملل الأخرى، كذلك فإن الله أحاطه بقناديل مضيئة أبد الآبدين، من رآها أو سمع بها أدرك دخول هذا الدين إلى هذا البلد ودينونة الناس به.. ومن هذه القناديل المآذن التي تشق السماء وتقف شامخة في أي قطر أو بلد، مسلم كان أو غيره... فهي علامات الإسلام ومناراته... بل هي سرج الهداية، ودلالات التوحيد، وذكر الله لكل حائر أو ضال... فإنك لو دارت بك رحى الأسفار، وطفت الأرض شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، وبلغت أقصاها إلى أقصاها من بلاد يتكلم أهلوها بلغات شتى تارة تعرفها وتارة يخفى عليك حتى نوعها.. بل إنك لو أجهدك السير في أي بقعة على البسيطة ولم تجد مبتغاك ولا من يريح صدرك ويكشف غمك أو يشفي لهفتك، ثم توسدت الأرض بخدك، ثم فتحت عينيك لترى مئذنة عن بُعْد أو قُرب، فقل لي بربك كم نصاب التوحيد الذي يصيب قلبك ساعتئذ، وكم مقدار التعلق بالله حينذاك، رغم أنك لم تر إلا بناءً من الطوب أو الطين..؟ قل لي بربك كيف ألقى الله في قلبك هذا الكم من التوكل واليقين حين وقعت عيناك على تلك المئذنة؟ نعم إنها منارة من منارات الإسلام، بل ما يعرف الإسلام في غير بلاده -بل وفي بلاده أحياناً- إلا بها.. وانظر معي إلى ذلك البناء الذي تارة يُبنى بأفخر الحجارة وأجمل ألوان البناء، وتارة تراه في أفقر القرى بالطين والطوب اللبن، ويطلى بأرثى الألوان، إلا أنه لا يزال يحمل في طياته هيبته واستعلائه؛ بل إن المدينة قد تسيل دماءً وظلماً وبغياً وقهراً، وينظر المظلوم والمقهور وصاحب الحيلة الضعيفة وذي القوى الخائرة إلى تلك المئذنة

(١) صوى جمع صُوَّة، وجمع الجمع أصواء، وهي ما غلظ من الأرض وارتفع ولكنه لم يبلغ أن يكون جبلاً، وهي أيضاً أعلام من الحجارة منصوبة في المفاوز للدلالة على الطريق.



في علوها وكأنها تنظر من عل لتقول: الله أكبر.. الله فوق هذا كله! بل كأنها تقول لكل هؤلاء: اصبروا، فللقاتل يوم، وللظالم يوم، وأنا شاهدة عليهم. فكم من قتيل سقط تحت المآذن وهي شاهدة، وكم من دم سُفِك أو مال سُلِب عند قدميها وتحت جدران مسجدها، فدارت الدوائر، فيقتل القاتل، ويرد المال إلى أهله، وهي شاهدة تبتسم وتقول: أنا منارة الحق، فللحق أقمت، وعلى كتفي ورأسي ينادى نداء الحق...

إذا كانت الصلاة هي الرابطة التي تربط العبد بربه... تربط ذلك العبد المسكين العاجز بالقوة التي لا تفنى ولا تقهر، وإذا كانت العبادات جميعاً هي الرابط الروحي بين العباد وربهم.. فلوهلة بسيطة مد طرفك إلى المآذن المرتفعة للمساجد، ستعلم أنها الرابط -في عالم الشهادة- بين الأرض والسماء، كأنها تنظر إلى الناس على الأرض لتدعوهم أن يرتفعوا عنها.. عن ثقل المادة إلى خفة الروح، ومن طين الأرض ودَرَنها إلى رقة السماء ولطفها.. نعم من الأرض حيث ضيق الصدور وكدر الهواء والماء إلى انشراح القلوب بالقرب من علام الغيوب، وإلى سعة الصدر مع صفاء الريح الطيبة والقطر النقي، فترقى النفوس وتترقى حتى تصبغ بعبودية الأسماء والصفات، ويتقلب قلب العبد من عبودية إلى أخرى بين أسماء الجلال والجمال، فإذا ابتلي بظلم أو نقص من الأموال والأنفس والثمرات فإنه رغم شهوده أسماء الجلال مثل الضار النافع.. الخافض الرافع.. المعز المذل، إلا أنه حينئذ تجده يشهد في نفسه وحاله أسماء الجمال، فهو يشهد اسم الحكيم، والخبير، والرءوف، والرحيم؛ فلو قدر عليه رزقه علم أنه لحكمة وليس للتقتير عليه ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾[1]، وإذا ابتلي بالأمراض والأدواء عَلِمَ أن حكمة ربه اقتضت سقمه، ولو كان غير ذلك لفسد حاله، فيشهد هكذا الرحمة من خلال العذاب ﴿بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَـٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾[2]، ولقد بان لي المعنى جلياً حين قرأت

(١) سورة الشورى، آية: ٢٧.

(٢) سورة الحديد، آية: ١٣.



هذا الأثر عن أنس بن مالك ﷺ عن رسول الله ﷺ، عن جبريل، عن الله تعالى، وفيه: «وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ لَمَنْ لاَ يُصْلِحُهُ إِلاَّ الْغِنَى، وَلَوْ أَفْقَرْتُهُ لأَفْسَدَهُ ذَلِكَ، وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ مَنْ لاَ يُصْلِحُهُ إِلاَّ الْفَقْرَ، وَلَوْ أَغْنَيْتُهُ لأَفْسَدَهُ ذَلِكَ، وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ مَنْ لاَ يُصْلِحُهُ إِلاَّ الصِّحَّةُ، وَلَوْ أَسْقَمْتُهُ لأَفْسَدَهُ ذَلِكَ، وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ مَنْ لاَ يُصْلِحُهُ إِلاَّ السَّقَمُ، وَلَوْ صَحَّحْتُهُ لأَفْسَدَهُ ذَلِكَ. إِنِّي أُدَبِّرُ عِبَادِي بِعِلْمِي بِقُلُوبِهِم، إِنِّي عَلِيمٌ خَبِيرٌ»[1]. ﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ﴾[2].. فهذا العبد يسلم لأسماء الجلال ويؤمن بقدرها، لكنه يرى أسماء الجمال تصبغها وتعلوها ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾[3]..

نعم أشعر حين أنظر إلى المآذن تناطح السماء بريحها وعواصفها وسحابها كأني أري الدين كله -بأحكامه وأوامره وعقائده وثوابته التي لا تهتز ولا تتزلزل- كأني أراه ملخصاً فيها، وهي تدعو أصحاب المبادئ والأخلاق، وأصحاب الدعوات الْمُصْلِحَة، أن يثبتوا ولا يهنوا أو يحزنوا، فكم من رياح عاتية، وكم من زلازل وسيول وأمطار وعواصف حاولت أن تنال من تلك المآذن، فما عادت إلا بما يأخذه الريح من البلاط حين يمر به... بل انظر إلى المئذنة العتيقة, القديمة، رغم رثاثتها وفقرها إلى الزهاوة والبهاء الظاهري، إلا أنها لا زالت تحمل في طياتها هيبة لا ينكرها منكر، كأنها تشير إلى هيبة هذا الدين ورفعته..

فبرغم مما يأمر به هذا الدين من الحث على الجزئيات من السنن، وتحسين الظاهر، والأمر به، وهو الجمال الشكلي للعبد والعبادة، إلا أن الله لا يقبل هذا بغير فحوى هذا الدين ومضمونه، من أصول وأخلاق وآداب: «إِنَّ اللهَ لاَ يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ

(١) نوادر الأصول للحكيم الترمذي، الأصل الثاني والستون والمائة.
(٢) سورة الروم، آية: ٥٠.
(٣) سورة الحج، آية: ٤٦.



وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»[1]، ألا ترى أن امرأة بغي دخلت الجنة لأنها سقت كلباً كاد أن يهلكه العطش[2]، وأخرى دخلت النار لأنها حبست هرة، ولم يذكر النص أنها دخلت النار لأنها بغي[3]. فانظر رحمك الله كيف نظر الشارع الحكيم إلى قلبيهما، فأقام أحكامه على رقة القلب أو قساوته، رغم ما قد تأتيه الجارحة من محظور..

بل انظر رحمك الله بم ردّ رسول الله ﷺ على أصحابه حين سألوه عن امرأة تقوم الليل وتصوم النهار لكنها تؤذي جيرانها بلسانها، فقال: «لاَ خَيْرَ فِيهَا ، هِيَ فِي النَّارِ»[4]، هذه رسالة هذا الدين لكل من دخل المسجد وسأل عن أحكام الإسلام وأوامره، بل هذا ما تقوله مئذنة المسجد لكل عابر أو مار بها، بل لكل الدنيا حين تناطح السحاب ويرتفع من فوقها الأذان، إن هذا الدين وهذه الملة الحنيفية لا تريد زخرفة ولا مظهرة ولا عطراً يفوح ويخفي قلباً أسوداً لا يعرف رحمة ولا خلقاً ولا أدباً.

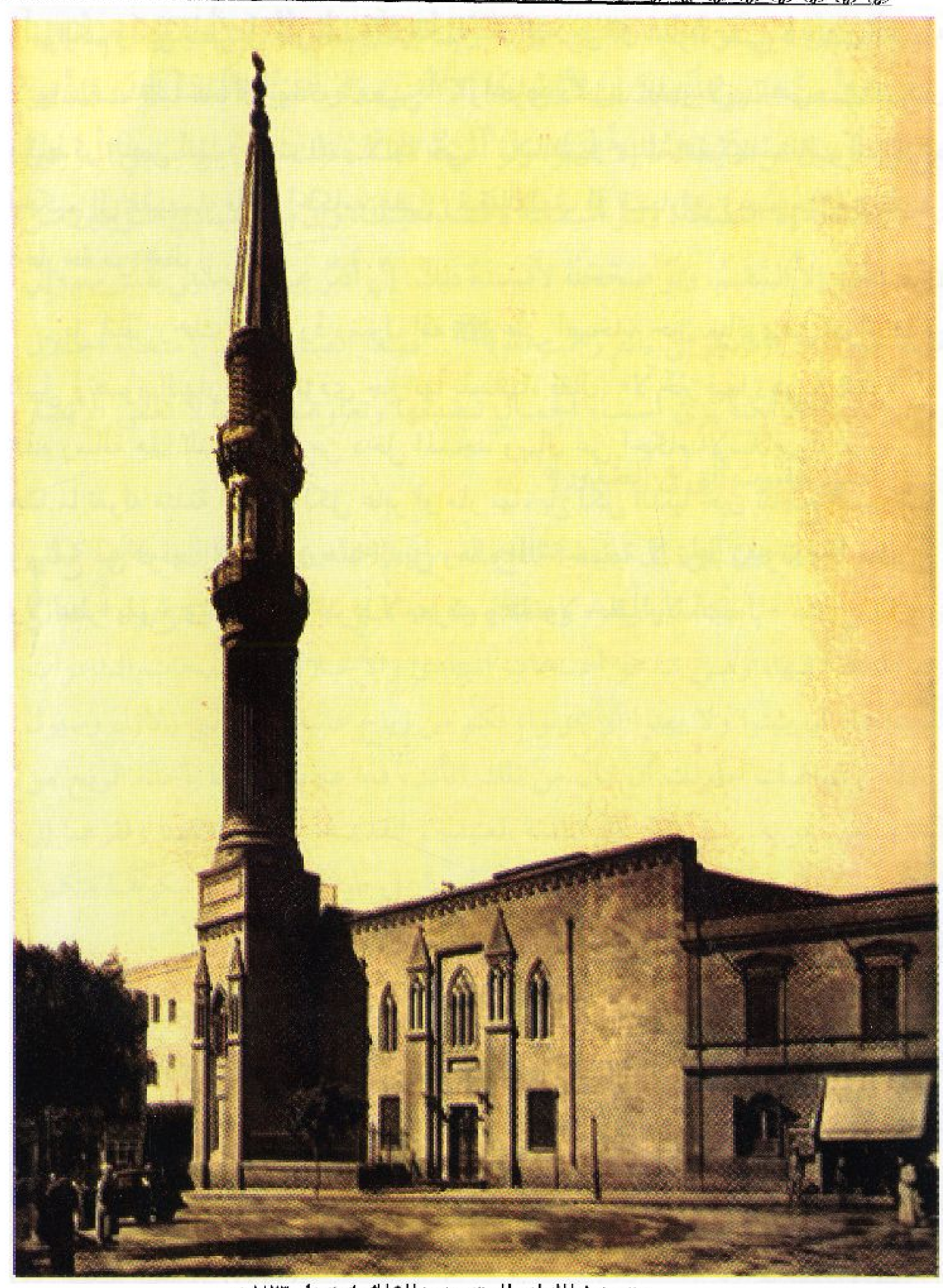
---

(١) صحيح مسلم: (٤٦٥١).

(٢) صحيح مسلم: (٤١٦٣).

(٣) صحيح البخاري: (٢١٩٢).

(٤) الحاكم في المستدرك: (٧٤١٢-٧٤١٣)؛ شعب الإيمان للبيهقي: (٩٢٢٣).



مسجد الإمام الحسين بالقاهره سنة ١٨٧٣ م

إن هذه المآذن هي أحد المعاقل الظاهرة لهذا الدين بما يمليه من أوامر ونواهي وأخلاق وقوانين. ولذلك لم أعجب أو أدهش حين بلغني أن أعضاء في حزب الشعب السويسري -وهو حزب يميني من أكبر الأحزاب في البرلمان السويسري- قد أطلقوا حملة لمنع بناء المآذن في سويسرا.. ويقول منظمو الحملة: إن المآذن ليست ضرورية لأداء الصلاة بالنسبة للمسلمين، إلا أنها رمز للقوانين الإسلامية التي لا تتوافق مع القوانين السويسرية...

وأنقل إليك بالحرف ما قاله أوسكار فرايسينجر عضو البرلمان عن حزب الشعب السويسري عن وجهة النظر المؤيِّدة لمنع المآذن فيقول: «ليس لدينا أي شيء ضد المسلمين، لكننا لا نريد المآذن.. إنها رمز للإسلام السياسي العدواني.. إنها رمز للقوانين الإسلامية.. اللحظة التي توجد بها المآذن في أوروبا تعني أن الإسلام أصبح مسيطراً»... هذا بالرغم مما يُشار إليه أنه لا يوجد في سويسرا كلها إلا مئذنتان صغيرتان فقط.. واحدة في زيورخ، والثانية في جنيف.. فمن أين أتت هاتان المئذنتان الصغيرتان بهذه القوة؟ وكيف ألقت هذا الرعب في قلوبهم؟ إنها قوة التوحيد.. قوة السماء التي لا تُغْلَب حين تلتقي بالأرض.. حين ينادي المؤذن: الله أكبر الله أكبر...

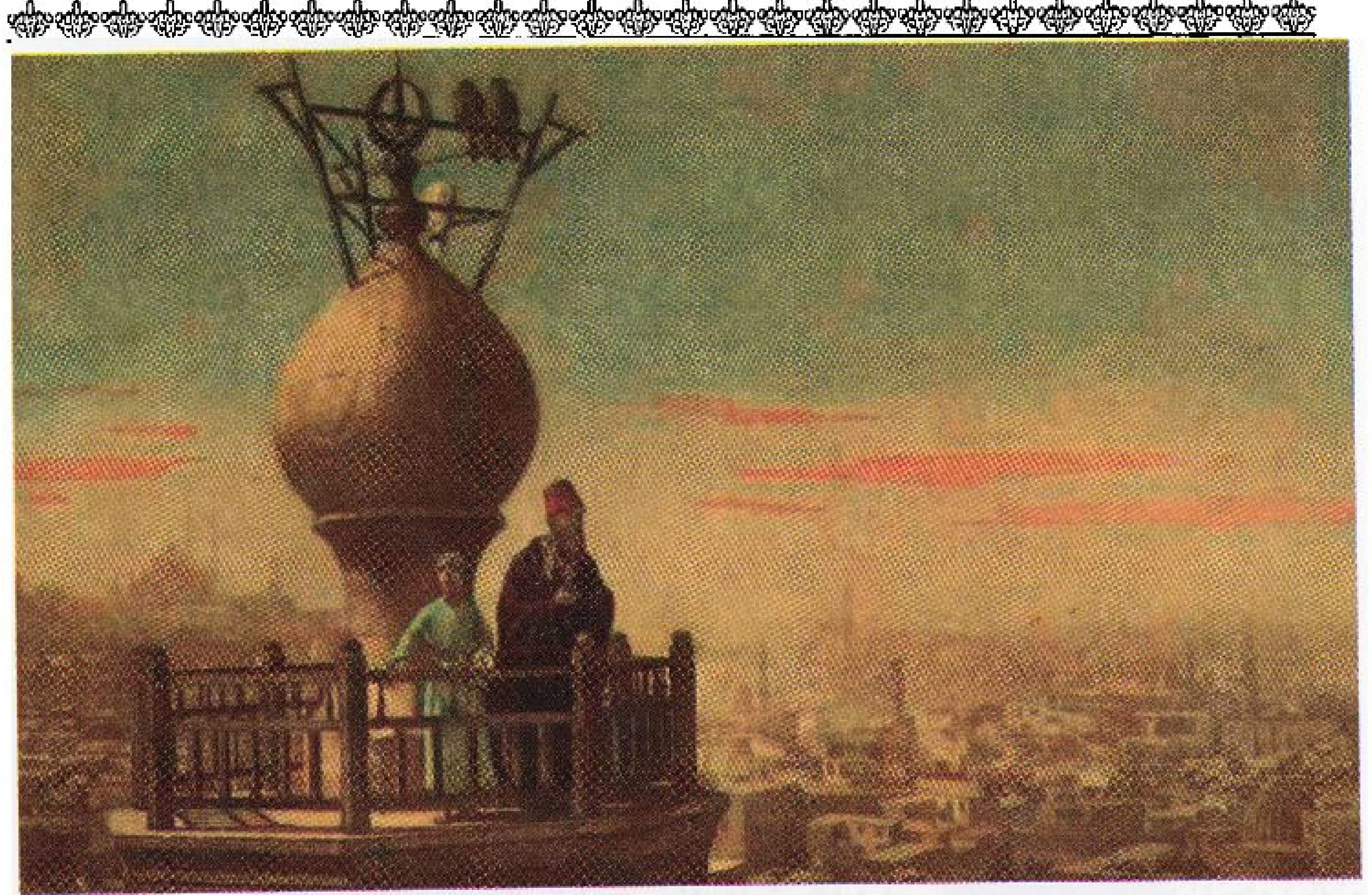
مسجد السيدة نفيسة بالقاهرة



ولما راجعت تاريخ المآذن الإسلامية لاحظت كم كان لها من التأثير على ناظرها بما يوفي تاريخها وظروف عصرها، دون أن يلتفت أحد إلى المخزون الروحي والعقائدي فيها, ففي مآذن الجامع الأموي الكبير بدمشق الذي بني في عصر الخليفة الوليد بن عبد الملك، كانت المآذن الأولى في العمارة الإسلامية مربعة الشكل، وتنتهي بشرفات أربع ينادى فيها للصلاة. ولقد أكّد التاريخ أن المماليك والسلاجقة والعثمانيين تركوا تأثيرات فنية معمارية واضحة حين رَمَّموا المآذن الأموية. أما المآذن في العصر العباسي، فقد أخذت بعضها شكلاً حلزونياً مع حفاظها على القاعدة المربعة، وتنتهي بشرفة للأذان.

ويبدو أن عمارة المآذن في العصر العباسي تأثرت بالعمارة الرافدية القديمة، كما تأثرت المآذن في شرق آسيا بالعمارة الفارسية، فأدخل في بناء المآذن الأقواس المدببة ذات الصفة التزيينية أو الإنشائية، وأدخلت عدة أنواع للزخارف والمنحوتات والخطوط.

ومع بداية العهد العثماني شهد بناء المآذن تطوراً جديداً، وظهرت المآذن بصبغتها العثمانية، وطرازها وشكلها المميزين، وأخذت المآذن العثمانية القاعدة المربعة للمئذنة الأموية، ثم الجذع المضلع أو الدائري، تليها شرفة أو اثنتان أو ثلاث، ويصل ارتفاع المئذنة العثمانية في بعض الأحيان إلى أكثر من خمسين متراً، وتنتهي الشرفة الأخيرة بشكل مدبب يغطى بصفيحة من الرصاص، مما يعطي للمسجد العثماني صفته المميزة. وهكذا فكل عصر صبغ المآذن بظروفه ووجدانه، بل إن شئت فقل بتاريخه.. ولكن تُرَى هل كانت القيمة النفعية والجمالية فقط هما ما أراد بانيها أن تدرك..؟



الأذان في أواخر القرن الثالث عشر الهجري

أشار الكاتب حفظه الله إلى قيم ثلاث، وهي النفعية والجمالية والمعنوية، وهي تقسيمة بديعة عند عرض الإبداع العمراني للمآذن والحالة النفسية التي يشعر بها الناظر إليها، ولقد عرض الكاتب وبيّن القيمة الجمالية بأبلغ الوصف وأبدع صورة تأخذك من الجمال الخارجي الظاهري إلى جمال النفس والمشاعر وكيف أن الظاهر يعكس جمال القيم والمبادئ والعقائد.. بل والدين كله أحيانا.. ولم يكن تعبير الكاتب وتقسيمه بهذه الطريقة بدعة محدثة، بل انظر إلى ما أشار إليه من آيات القرآن في سورة النحل:

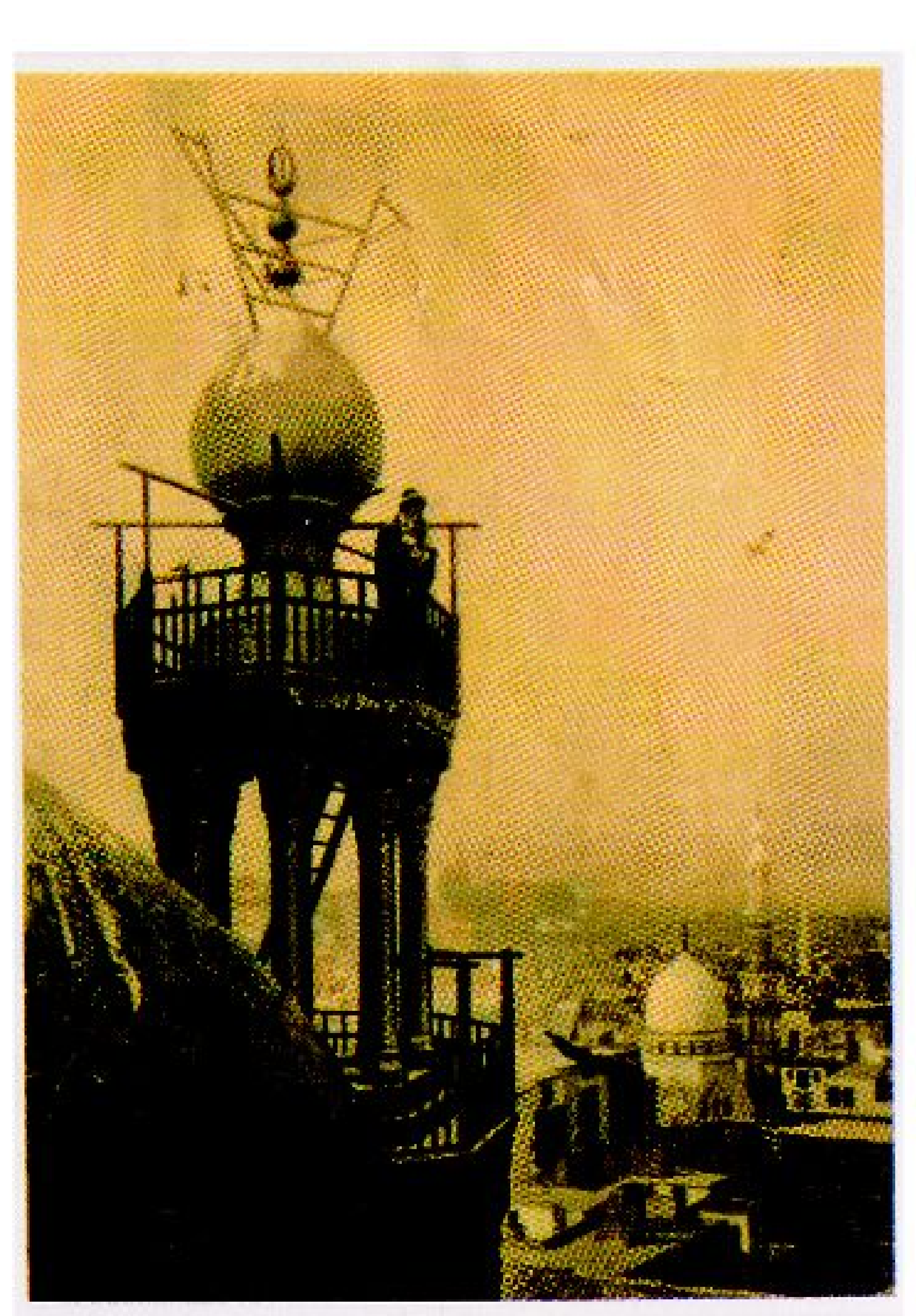
﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[1]..

(١) سورة النحل، الآيات: ٥-٨.

وفي بيئة كالبيئة التي نزل فيها القرآن أول مرة،.. في هذه البيئة تبرز نعمة الأنعام، التي لا حياة بدونها لبني الإنسان. والأنعام المتعارف عليها في الجزيرة كانت هي الإبل والبقر والضأن والمَعز. أما الخيل والبغال والحمير فللركوب والزينة ولا تؤكل، والقرآن إذ يعرض هذه النعمة هنا ينبه إلى ما فيها من القيم الثلاث.. فانظر كيف بيّن أن الأنعام إنما خُلِقَت تلبية لضرورات البشر: ففي الأنعام دفء من الجلود والأصواف والأوبار والأشعار، ومنافع في هذه وفي اللبن واللحم وما إليها. ومنها تأكلون لحماً ولبناً وسمناً، وفي حمل الأثقال إلى البلد البعيد لا يبلغونه إلا بشق الأنفس، وكذلك نبه إلى تلبية أشواق البشر إلى الجمال، فبيّن أن فيها كذلك جمال عند الإراحة في المساء وعند السرح في الصباح. جمال الاستمتاع بمنظرها فارهة رائعة صحيحة سمينة. وأهل الريف يدركون هذا المعنى بأعماق نفوسهم ومشاعرهم أكثر مما يدركه أهل المدينة.

وفي الخيل والبغال والحمير تلبية للضرورة في الركوب، وتلبية لحاسة الجمال في الزينة: ﴿لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾.

وهذه اللفتة لها قيمتها في بيان نظرة القرآن ونظرة الإسلام للحياة. فالجمال عنصر أصيل في هذه النظرة، وليست النعمة هي مجرد تلبية الضرورات من طعام وشراب وركوب؛ بل تلبية الأشواق الزائدة على الضرورات. تلبية حاسة الجمال ووجدان الفرح والشعور الإنساني المرتفع على ميل الحيوان وحاجة الحيوان.



الأذان في القاهرة أواخر القرن الثالث عشر

﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ يعقب بها على حمل الأثقال إلى بلد لم يكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس، توجيهاً إلى ما في خَلْق الأنعام من نعمة، وما في هذه النعمة من رحمة... فانظر كيف ختم النص ببيان القيمة المعنوية من رحمة ورأفة ببني البشر...

وهذه الرسالة لعلها من الرسائل النادرة التي يحاول فيها كاتبها أن يلتقط طرف هذا الخيط، حين عرض لنا تاريخ وأنواع المآذن الإسلامية، وربط لنا بين التصوير الجمالي الفني المعماري لها وبين ما توحي به وما يسقط في ذهن الناظر إليها من مشاعر روحية وشجون عقائدية ترتفع به من الأرض إلى السماء، من البعد إلى القرب، بل من التدني إلى العلو، إلى العلي الأعلى...

إني لأحسب أن كاتبها أراد للقارئ أن يعيش كلمات رسالته، وأن ينتقل معه ترقياً من رتبة إلى أخرى، ومن حالة إلى أخرى أعلى وأفضل، كأنما يصعد في السماء.. (انتهى)

والآن يجب أن نضيف إلى ما سبق أن المهندس المعماري الذي يبني المئذنة لابد وأن يكون مستحضراً في ذهنه عند تصميمها كونها علامة ودليل على وجود المسجد، فيراعي في التصميم أن يدرك الناظر من هيئتها أنها مئذنة وليست برجاً من أبراج المراقبة العسكرية، أو من أبراج الحمام، أو شيئاً آخر مشابه؛ ومع ذلك هناك مآذن تشبه أبراج المراقبة وأبراج الحمام. وقد يكون في ذهنه أنها كإصبع الشهادة إشارة إلى التوحيد الذي هو أساس الدِّين. فإن كانت هذه المعاني حاضرة كان تصميمه لهيئة المئذنة معبراً عنها، ثم يضيف إليها الاعتبارات الجمالية، فيجعلها تابعة لهذه المعاني الأولية وخادمة لها.

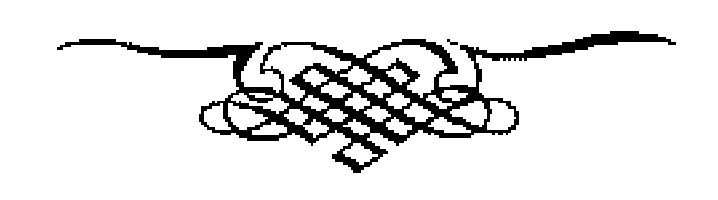
مئذنة أشبيلية

برج مراقبة عسكري باشبيلية يشبه المآذن الأندلسية



وهناك معاني ظاهرة يضيفها الخطاط إلى ما يصنعه البنّاء، فيخط على المباني الآيات القرآنية، والأسماء الحسنى، والأذكار النبوية، وأسماء النبي ﷺ والخلفاء الراشدين وسائر الصحابة وأهل البيت، وأبيات الشعر. وهذه معاني ظاهرة، يدرك أكثرها كل أحد، تُذكِّر المسلمين بالله وكتابه، وأسمائه وصفاته، ونبيه ورسالته، وخلفائه وورثته، وتضفي على البناء عمقاً جمالياً ومعنوياً عظيماً.

إلا أن ثمّ أمر آخر أعمق معنى وأبعد مغزى، إذ هو خلاصة وهدف وزبدة ما مرّ من المعاني، وهو أن المئذنة تنطلق من الأرض نحو السماء، أي من الأدنى نحو الأعلى، من الأرض وما عليها من البناء الضيق الكثيف إلى الهواء اللطيف والسماء الواسعة. فإذا أمعن المسلم النظر في المئذنة فقد يشعر أنها إشارة إلى انطلاق المؤمن بروحه إلى العوالم العلوية مقترباً من ربه سبحانه وتعالى، فهيئة المئذنة وهي منطلقة إلى العُلى تُصوِّر معراجه ﷺ إلى قاب قوسين أو أدنى، وهو المعراج الكامل للإنسان الكامل، ومن ثمّ فهو النموذج الأعلى لكل معراج، ثم بعد ذلك فهي تُصوِّر لكل مؤمن معراجه الخاص على قدره، وذلك من الأرض، أرض صورته الطينية الكثيفة، إلى السماء، سماء معاني الأنوار الروحانية، أي من أسفل سافلين إلى أقرب ما يستطيع الاقتراب إليه من أعلى عليين.



المعراج

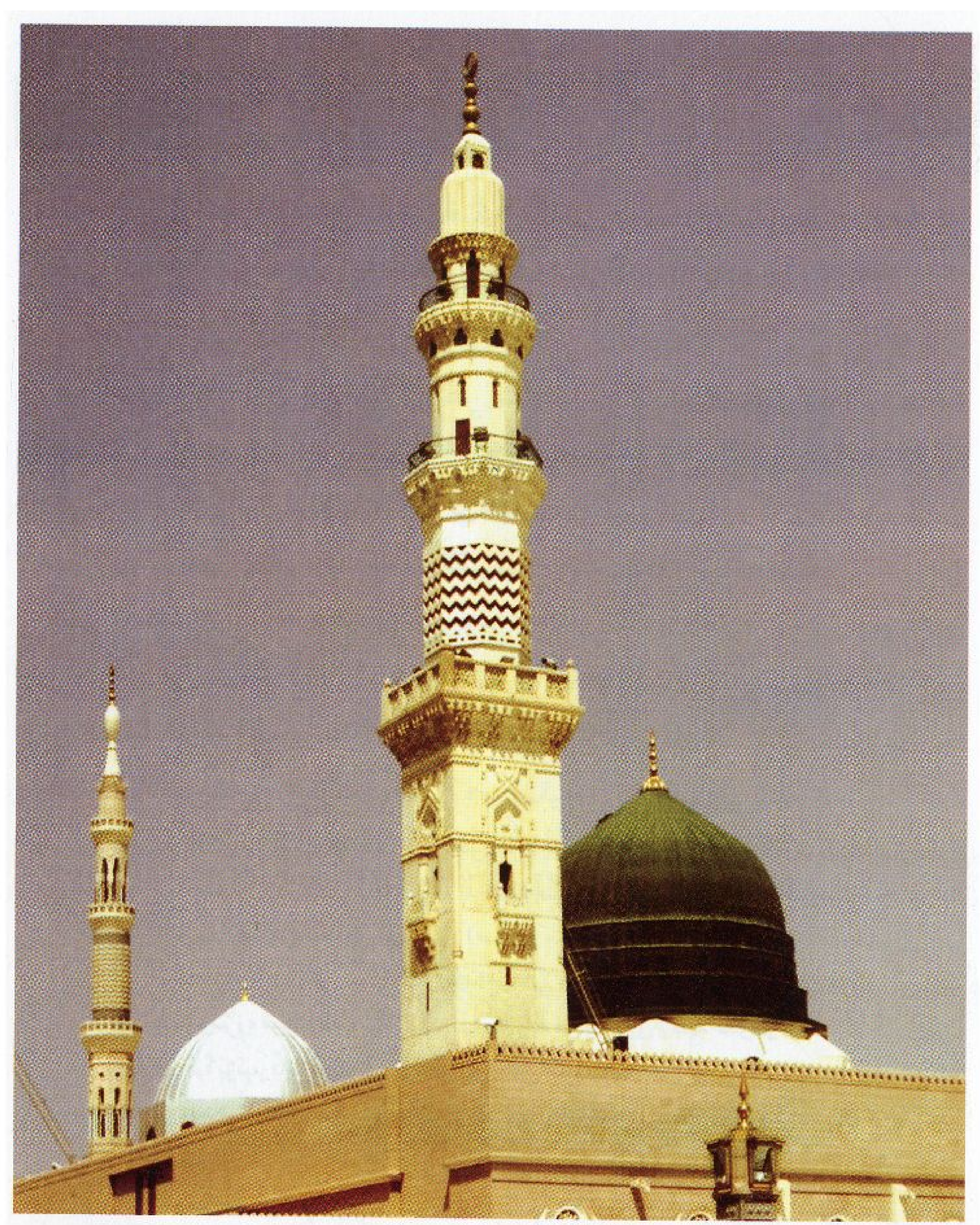
عرج المولى ﷻ بحبيبه المصطفى ﷺ إلى أدنى من قاب قوسين ليناجيه ويختصه بما لم يختص به أحداً من العالمين. وفي هذا الموقف المهيب يتذكر رسول الله ﷺ أمته، فيعطيه الله لهم الصلاة، ويجعلها معراجاً لهم، ووسيلة يدخلون بها إلى حضرته.

إن الغرض من وجود بني آدم إنما هو التقرب إلى الله قرباً يصل به إلى معرفته والدخول إلى حضرته، وفي الدار الآخرة يكرمهم مولاهم العلي العزيز برؤيته ومناجاته[1]، وهذه الرؤية تتفاوت ولها درجات ما بين كل درجة ودرجة عرض السموات والأرض[2]، فينال مقاعد القرب حينئذ ودوام المشاهدة أولئك الذين جاهدوا أنفسهم في الدنيا، وطهروا قلوبهم، وطاروا بأرواحهم شوقاً إلى مولاهم، فعرجوا إليه عروج الملهوفين الحريصين على لقاءه، الفارين من الأكوان إليه، الهاتفين بكل كيانهم: «لبيك اللهم لبيك! لبيك لا شريك لك لبيك!».

---

(١) عَنْ صُهَيْبٍ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ -قَالَ- يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا، أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ ﷻ» (صحيح مسلم:٢٦٦).
عن ابْنِ عُمَرَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً لَمَنْ يَنْظُرُ إِلَى جِنَانِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَنَعِيمِهِ وَخَدَمِهِ وَسُرُرِهِ مَسِيرَةَ أَلْفِ سَنَةٍ، وَأَكْرَمَهُمْ عَلَى اللهِ مَنْ يَنْظُرُ إِلَى وَجْهِهِ غُدْوَةً وَعَشِيَّةً». ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ (سنن الترمذي:٢٤٧٦).
عَنْ جَابِرِ بن عَبْدِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بَيْنَا أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي نَعِيمِهِمْ إِذْ سَطَعَ لَهُمْ نُورٌ فَرَفَعُوا رُءُوسَهُمْ فَإِذَا الرَّبُّ قَدْ أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ مِنْ فَوْقِهِمْ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ. قَالَ وَذَلِكَ قَوْلُ اللهِ: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ قَالَ: فَيَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ فَلَا يَلْتَفِتُونَ إِلَى شَيْءٍ مِنَ النَّعِيمِ مَا دَامُوا يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ حَتَّى يَحْتَجِبَ عَنْهُمْ وَيَبْقَى نُورُهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْهِمْ فِي دِيَارِهِمْ» (سنن ابن ماجه:١٨٠).

(٢) قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ذَرِ النَّاسَ يَعْمَلُونَ فَإِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ» (سنن الترمذي:٢٤٥٣).



المئذنة الرئيسية للحرم النبوي

ولما كان للأمة المحمدية نصيب من كل ما اختص الله به سيدهم ونبيهم ﷺ، كان لكل منهم قبس على قدره من أنوار علومه وأخلاقه وأحواله، بل لكل منهم قبس من أنوار معراجه، وإلى ذلك أشار ﷺ حين قال: «ثُمَّ دَخَلْتُ أَنَا وَجِبْرِيلُ عليه السلام بَيْتَ المَقْدِسَ، فَصَلَّى كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ أُتِيتُ بِالمِعْرَاجِ الَّذِي تُعْرَجُ عَلَيْهِ أَرْوَاحُ بَنِي آدَمَ، فَلَمْ يَرَ الخَلائِقُ أَحْسَنَ مِنَ المِعْرَاجِ. مَا رَأَيْتُمْ المَيِّتَ حِينَ يُشَقُّ بَصَرُهُ طَامِحاً إِلَى السَّمَاءِ؟ فَإِنَّمَا يُشَقُّ بَصَرُهُ طَامِحاً إِلَى السَّمَاءِ عَجَبٌ بِالمِعْرَاجِ»[1].

والشاهد هنا قوله ﷺ: «المِعْرَاجِ الَّذِي تُعْرَجُ عَلَيْهِ أَرْوَاحُ بَنِي آدَمَ» أي أن لكل مسلم معراج، وإن كان لا يشاهده أكثر الناس إلا وقت الاحتضار، ولابد إذاً لكل مسلم أن يسعى في أن يرقى ويرتفع في معراجه، وينجح في ذلك على قدر مجهوده وإخلاصه.

يقول ابن كثير في تفسيره عند الحديث عن المعراج النبوي: «والمعراج كالسلم ذو درج يرقى فيها، فيصعد فيه إلى السماء الدنيا، ثم إلى بقية السماوات السبع»[2].

أما الإمام الرازي فيتحدث عن معارج كافة المسلمين، وله في ذلك كلام نفيس في تفسيره، فيقول رحمه الله: «المعارج على عدد الخلائق، والإنسان من وقت رقيه في سلم المعراج يكون له تجلٍّ إلهيّ بحسب سلم معراجه، فإنه لكل شخص من أهل الله سلم يخصه لا يرقى فيه غيره». وفي تفسيره للفاتحة يشير إلى أن للصلاة معراجاً جسمانياً وآخر روحانياً، فيقول: إن محمداً عليه السلام لما وصل إلى المعراج وأراد أن يرجع قال: «يا رب العزة إن المسافر إذا أراد أن يعود إلى وطنه احتاج إلى محمولات يتحف بها أصحابه وأحبابه، فقيل له: إن تحفة أمتك الصلاة». وذلك لأنها جامعة بين المعراج الجسماني، وبين المعراج الروحاني: أما الجسماني فبالأفعال، وأما الروحاني فبالأذكار[3].

(١) دلائل النبوة للبيهقي: (٦٧٧).
(٢) تفسير ابن كثير: الجزء الخامس، ص٤٣.
(٣) تفسير الرازي: الجزء الأول، ص٢٥٣.

وأما المعراج الجسماني، فالمرتبة الأولى أن تقوم بين يدي الله مثل قيام أصحاب الكهف، وهو قوله تعالى: ﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾(١)؛

بل قم قيام أهل القيامة، وهو قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(٢)؛

ثم اقرأ: سبحانك اللهم، وبعده وجهت وجهي، وبعده الفاتحة، وبعدها ما تيسر لك من القرآن، واجتهد في أن تنظر من الله إلى عبادتك حتى تستحقرها، وإياك أن تنظر من عبادتك إلى الله، فإنك إن فعلت ذلك صرت من الهالكين؛ وهذا سر قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾(٣).

واعلم أن للجنة ثمانية أبواب، ففي هذا المقام انفتح لك باب من أبواب الجنة، وهو باب المعرفة؛

والباب الثاني: هو باب الذكر، وهو قولك: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ؛

والباب الثالث: باب الشكر، وهو قولك: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛

والباب الرابع: باب الرجاء، وهو قولك: الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ؛

والباب الخامس: باب الخوف، وهو قولك: مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ؛

والباب السادس: باب الإخلاص المتولّد من معرفة العبودية ومعرفة الربوبية، وهو قولك: إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ؛

---

(١) سورة الكهف، آية: ١٤.

(٢) سورة المطففين، آية: ٦.

(٣) سورة الفاتحة، آية: ٥.



والباب السابع: باب الدعاء والتضرع، كما قال: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾[1]، وقال: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[2] وهو ههنا قولك: ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ؛

والباب الثامن: باب الاقتداء بالأرواح الطيبة الطاهرة والاهتداء بأنوارهم، وهو قولك: صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ، وبهذا الطريق إذا قرأت هذه السورة، ووقفت على أسرارها، انفتحت لك ثمانية أبواب الجنة، وهو المراد من قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾[3].

فجنات المعارف الربانية انفتحت أبوابها بهذه المقاليد الروحانية، فهذه هي الإشارة إلى ما حصل في الصلاة من المعراج الروحاني. (انتهى من تفسير الرازي)[4].

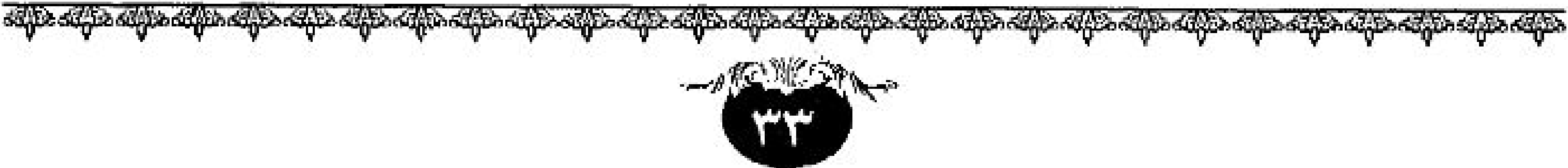
ومن صفات معراج المؤمن أنه كلما جاهد نفسه، وأخلص في عباداته، وأحسن في معاملاته، رقى وارتفع، وكلما ارتفع انجلى الصداء عن عين قلبه، أي عين بصيرته، وارتقى من علم التفصيل إلى علم الإجمال، وعلم القوانين التي هي سنن الله الكونية، وأوتي الحكمة.



الألف

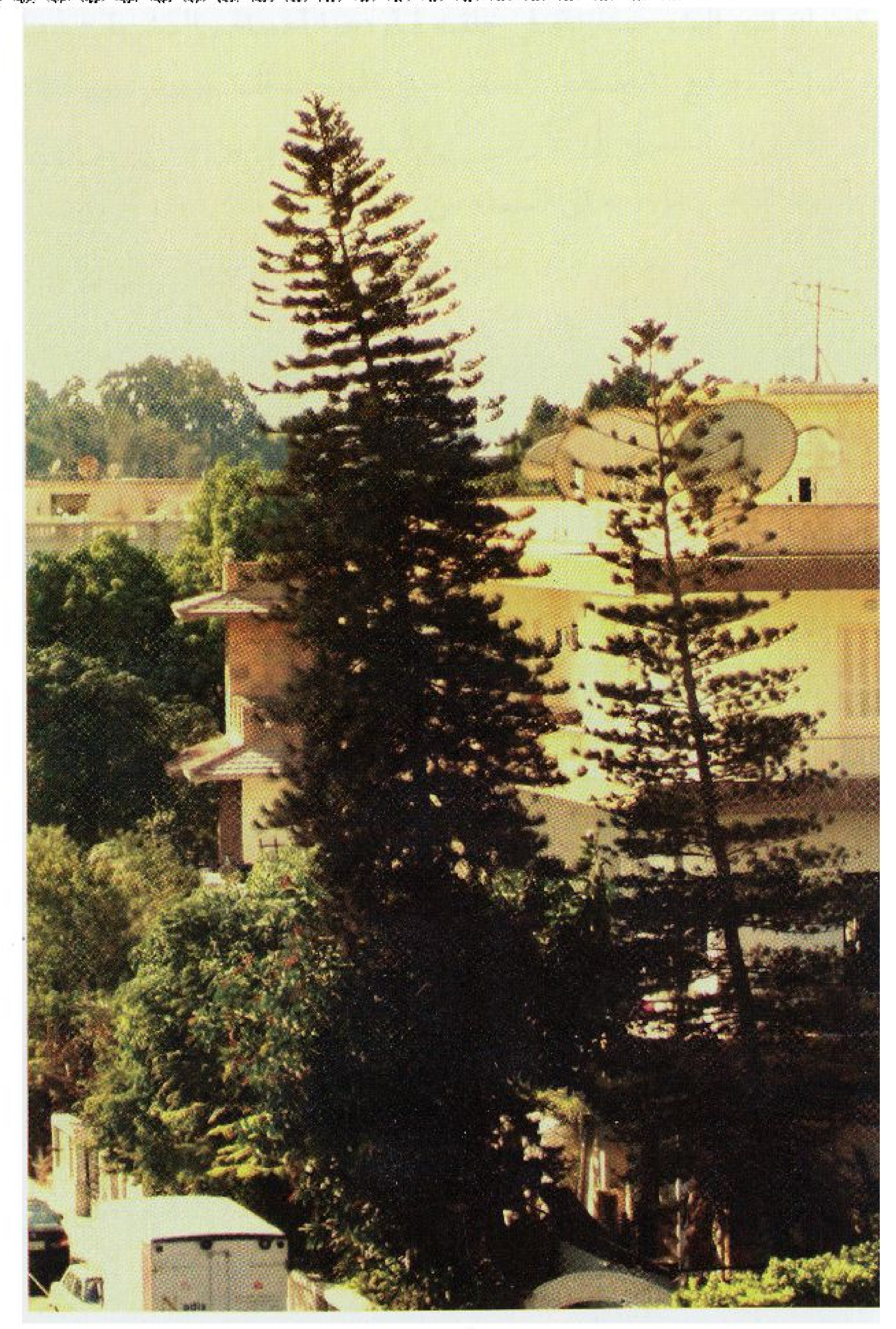
ولقد جعل الله ﷻ أمثلة للمعراج في الآفاق، يستدل بالشاهد منها على الغائب،

(١) سورة النمل، آية: ٦٢.
(٢) سورة غافر، آية: ٦٠.
(٣) سورة ص، آية: ٥٠
(٤) تفسير الرازي، الجزء الأول، ص ٢٥٤.



فمنها الشجرة التي تنطلق من الأرض إلى السماء، وتمثل فروعها درجات ومقامات للراقي حتى يبلغ قمتها. وبالطبع فإن الشجر يختلف في أشكاله وأنواعه وله معاني أخرى كثيرة، منها أن يكون مثالاً للكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة، والكلمة الطيبة التي تصعد إلى السماء فيها من معاني المعراج، ومنها شجر يذكّر بسدرة المنتهى، وهكذا.

ومثال آخر: منظر الشمس إذا بدأت تغرب في البحر، والشمس مصدر النور والدفء والحياة، فهي لذلك آية على نور الله وإحيائه للخلق، فترى انعكاس نور الشمس في الماء يتلألأ على سطح الماء، ينطلق منها حتى يصل إلى حيث يقف الناظر، فإذا تحرك الناظر إلى مكان آخر تحرك العمود معه، فيكون دائماً ممتد من قرص الشمس إليه، فلو كان هناك ألف ناظر لكان هناك ألف عمود، لكل منهم واحد، كأن كل منهم ينظر إلى صراطه المستقيم الخاص به، وهو أقصر مسافة بينه وبين الشمس، ولا يرى أي منهم من موقعه صراط أو معراج الآخر، فلا يرى إلا طريقاً واحداً يصل بينه وبين قرص الشمس، فلو نظر إلى من بجانبه من الخلق لرأى الماء أمامهم أسود اللون ولم ير للشمس عليه انعكاساً.



شجر يشبه المعراج

انعكاس الشمس على سطح مياه البحر



وكان أن اتبع البشر سنة الله في خلقه فأودعوا أعماهم البشرية هذه المعاني الكونية. فمثال المعراج مما يصنعه الإنسان الحبل الممدود، فقد شبّه النبي ﷺ القرآن بأنه حبل ممدود من السماء إلى الأرض[1]، والذي يفهم من ذلك أن من أمسكه وجعله عروته الوثقى عرج به إلى السماء من حيث أتى. ومثال المعراج من الحروف الألف، فالذي ينظر إلى الألف يرى صورة مستقيمة مدببة الطرفين تنطلق إلى السماء، فإذا علم أن علماء الخط اتفقوا أن الألف مكون من سبع نقط، فقرن ذلك في ذهنه بالسموات السبع، الواحدة فوق الأخرى طباقا، أصبحت صورة المعراج واضحة لعينه في صورة الألف. وبالطبع فإن للألف أيضاً معاني أخرى كثيرة.

والمعمار الذي يدرك كون المئذنة مثالاً للمعراج النبوي الشريف، ثم لمعراج كل مؤمن يخطو على خطى النبي المصطفى ﷺ، لابد وأن تصميمه سوف يشتمل على ما يعبر عن هذه المعاني. ولابد أن نستنتج أن إبراز هذه المعاني إنما هو شيء مقصود، حتى تكون تذكرة لكل من ينظر إليها بأن الله ﷻ إنما خلق الجن والإنس ليعبدوه، وأن العبادة إنما هي وسيلة إليه، ومعراج إلى حضرته.

ويمكننا أن نبني على ما سبق فنقول إن لكل مئذنة، كما لكل عمل فني إسلامي، قيمة نفعية، وقيمة جمالية، وقيمة معنوية، فنشرع بعون الله في استكشاف هذه القيم وهذه المعاني.



(١) عَنْ زَيْد بن أَرْقَم رضي الله عنه قَال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي، أَحَدُهُمَا أَعْظَمُ مِنَ الآخَرِ كِتَابُ الله حَبْلٌ مَمْدُودٌ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ، وَعِتْرَتِي أَهْلُ بَيْتِي، وَلَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الحَوْضَ، فَانْظُرُوا كَيْفَ تَخْلُفُونِي فِيهِمَا» (سنن الترمذي: ٣٧٢٠).

القيم الثلاث للمآذن

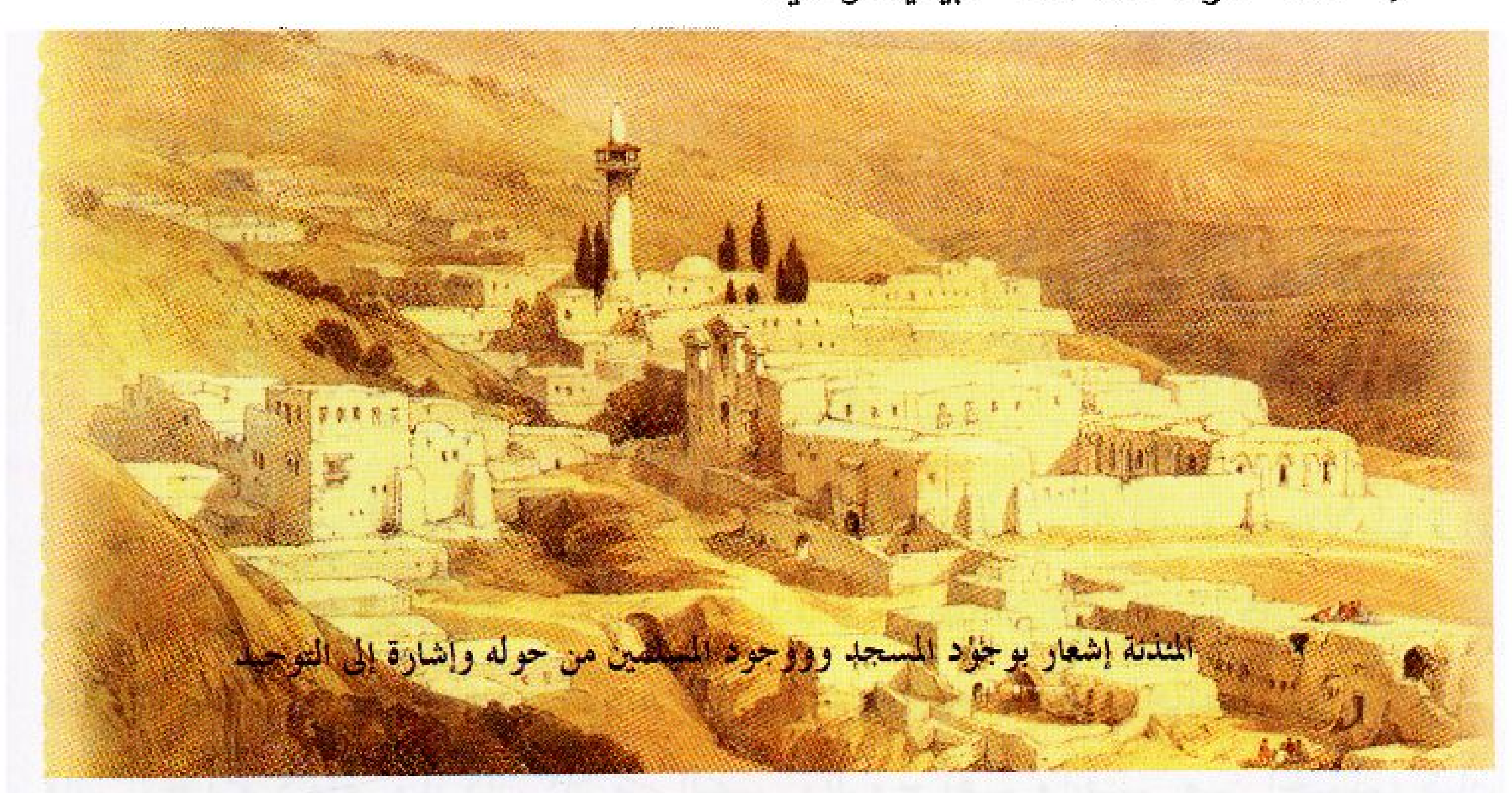
أ - القيمة النفعية:

أما القيمة النفعية فهي أن تكون كل مئذنة مهيأة وبأقل التكاليف الممكنة للقيام بوظيفتها من الدلالة على المسجد ورفع الأذان، فإن هيئتها الإسلامية تدل عليها، والشرفات التي يصعد إليها بالسلم الداخلي وأحياناً الخارجي يسمح للمؤذن بالصعود إلى ارتفاع كاف لإيصال صوت الأذان إلى القرية أو الحي كله. إن القيمة النفعية لا تتعدى الاحتياج المادي المباشر، وتتجاهل القيمة الجمالية على أنها ترف يمكن الاستغناء عنه، والقيمة المعنوية على أنها خيالات تخرج من أذهان أولئك الذين لا يزالون يرزحون تحت أثقال وأكبال الإيمان بالله وبدينه.

ومن البديهي أن كل مبنى له وظائف مادية نفعية يجب أن يؤديها، وإلا لما قام بالغرض الذي من أجله أنشئ، ولكنه من البديهي أيضاً أن الإنسان لما كان ليس بجسم فقط، ولكن أيضاً نفس وروح، فلابد أن يقوم المبنى بإشباع احتياجاتها، وإلا لظل غير قائم بوظيفته كاملة. ولما كان كلا من النفس والروح أهم وأنفس من الجسم، كان إشباع احتياجاتهما أهم من إشباع احتياجات الجسم ومقدَّم عليه.

وقد ظهرت هذه الفلسفة النفعية في القرن التاسع عشر وانتشرت انتشاراً كاسحاً مع انتشار الفلسفات المادية الإلحادية في القرن العشرين، فنشأت عنها ما يمكن تسميته بحضارة العلب، أي المكعبات المجردة عن القيم الجمالية والمعنوية. فإن كنت تريد أن تسكن فيكفيك شقة على هيئة علبة تحتويك وأهلك، بشرط أن تكون بأقل التكاليف، وإن كنت تريد أن تصلي فيكفيك علبة أخرى قبيحة تسميها مسجداً وتصلي فيها، وإن كنت تريد أن تعمل فيكفيك مكتب على هيئة أصغر علبة يمكنها أن تسع مكتبك وأوراقك، أو ورشة على هيئة أصغر علبة يمكنها أن تسع آلاتك، ولا عليك من أن

أحجام هذه العلب غير صحي، والازدحام فيها يصيب الناس بالضيق والقلق، ويدفعهم للسلوك الفظ والعدواني، أو أن الحيطان الجرداء والتكرار الممل يصيبهم بالاكتئاب والعقم الفكري، أو أن النتيجة أن الشباب يفضلون الهروب إلى الشارع والحياة فيه ليتخلصوا من ضيق العلب، أو أن ما يعيشون فيه من قبح حسي لا يلبث أن يتحول إلى قبح أخلاقي وسلوكي، بل إلى عدم القدرة على تذوق أي جمال على الإطلاق، سواء كان جمالاً طبيعياً أو فنياً.



الناصرة بفلسطين قديماً

إن الاقتصار على القيمة النفعية للشيء نابع من فكر الحضارة الإلحادية التي ترفض أن ترى أي قيمة وراء المادة، وقد أصبح الواقع المشاهد يثبت أنه لا ينشأ عن ذلك القبح المادي فقط، وإنما الخلل الاجتماعي والفكري أيضاً، فإنه كما نرى بوضوح الآن ولكن للأسف بعد فوات الأوان فكر عقيم لا يعترف إلا بتلبية حاجات الإنسان المادية هدفاً للحياة.

ونحن نعلم تماماً أن أسلافنا من أهل الفنون، بنّائين كانوا أم معماريين أم خطاطين، لم يكن عملهم الذي ظل خالداً شامخاً على مر الدهور عشوائياً ولا تافهاً

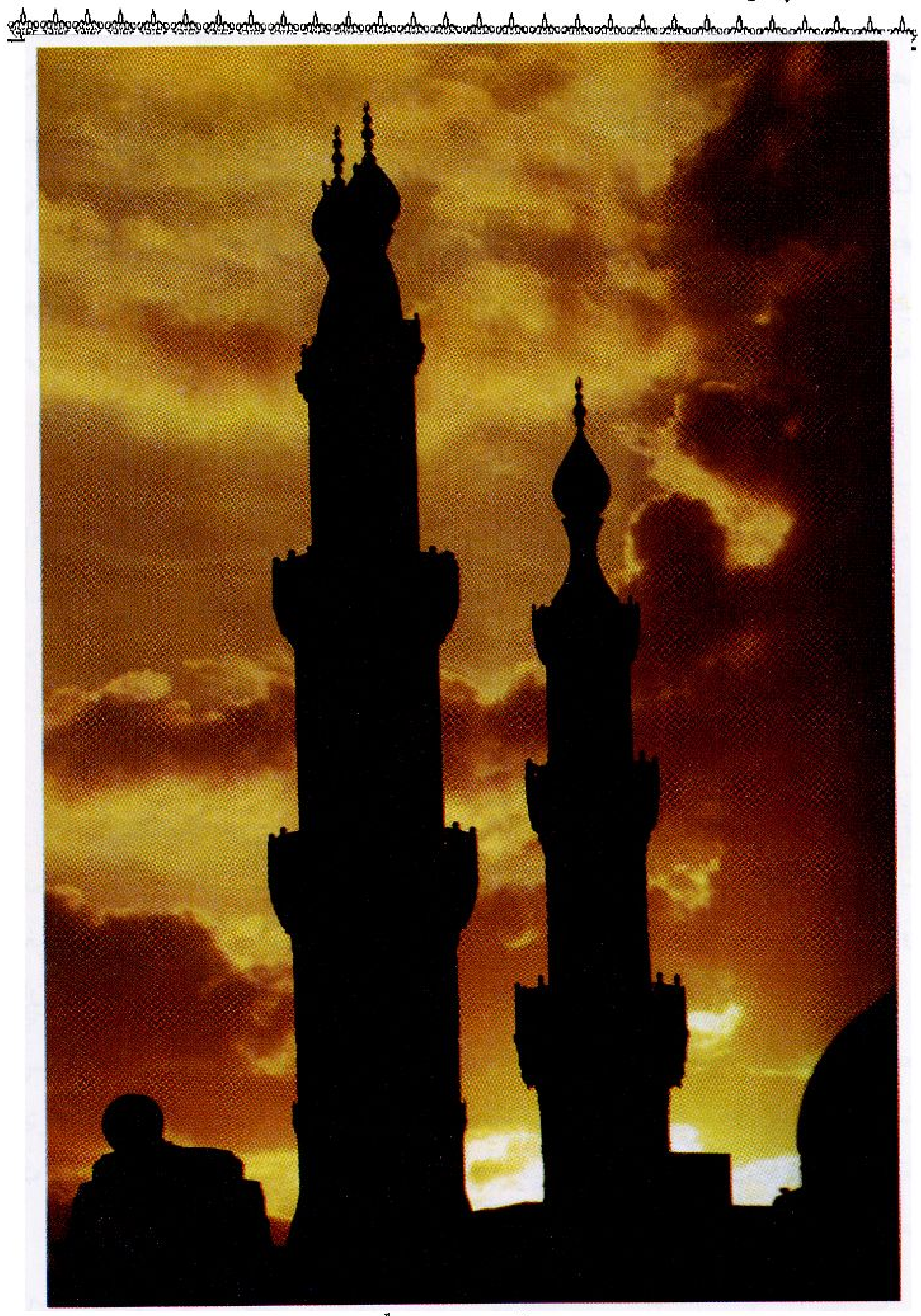
ولا نفعياً، بل كان جميل الصورة والمعنى معاً، وعلى عكس حالنا اليوم في عصر السطحية والجهل المركب وسرعة الحكم على الأشياء بلا دراية كان وجود المعاني في كل صورة شيء بديهي متفق عليه، إلى درجة أنهم لم يروا حاجة إلى تدوينها، بل كان أهل كل فن يورّثون معاني فنهم شفوياً وعملياً لمن خلفهم، فلما ذهبوا وذهبت معهم علومهم، وتردى الناس في مهاوي الفكر النفعي، ظنوا أن لا معنى إلا ما هم قادرون على فهمه بلا مجهود مما هو متعلق بالمصالح المادية المباشرة.

ب - القيمة الجمالية:

إن الأنفس مجبولة على حب الجمال، هكذا خلقها الله، فهي تنجذب بلا سبب ظاهر لكل جمال يُدْرَك بالحواس، بل لكل جمال يدرك بالعقل أو العاطفة. فقد يكون الجمال جمالاً تنظره العين أو تسمعه الأذن، وقد يكون جمالاً معنوياً يُدرك بالعقل بأنواعه ودرجاته، أي بالعقل المفكر، أو العقل ذو الحكمة، أو العقل الملهم، أو العقل العاطفي.

ولقد أنزل الله سبحانه وتعالى القرآن على أجمل صورة يتجلى فيها الجمال الرباني، فكان جمال القرآن في ألفاظه وتعبيراته وبلاغته ومعانيه وأصوات حروفه معجزاً إعجازاً ظاهراً غير خاف، كما اعترف بذلك أعداء الإسلام ، فقال الوليد بن المغيرة -وكان من أكثر كفار قريش عناداً وعداوة للنبي ﷺ-: «والله إنّ لقَوْلِهِ حَلاَوَة، وإن عليه طلاوة، وإن أصله لَمُغْدق، وإن فرعه لمثمر»[1].

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي، الجزء الثاني، ص٣٥٥. الطلاوة: الحسن، والرونق، والبهجة، والقبول.



مآذن الأزهر ليلاً

إن الأصل في الخلق الرحمة، والرحمة من صفات الجمال الشاملة، ولذلك نقول أن الأصل في كل شيء الجمال وأن القبح إنما هو عارض، والأشياء وإن كانت تتفاوت تفاوتاً كبيراً في درجة جمالها إلا أنها كلها أصلها الجمال. كذلك الأصل في الأشياء الْحِلّ وطروء التحريم عليها إنما هو عارض. والإنسان يولد على الفطرة، أي بطبيعته يتذوق ويحب الجمال، ثم بتأثير البيئة يفقد هٰذا التذوق وهذا الحب وينحرف عن فطرته فيجذبه القبح المعنوي والمادي، فالإنسان الذي يكبر في وسط يمجد الإلحاد والفساد يكبر وهو يظن أن هذه القبائح طبيعية ومحمودة، والإنسان الذي يكبر في بيئة البيوت وأثاثها فيها والملابس قبيحة وتتعود عليها عينه يكبر وهو يظن أن هذا هو الشيء الطبيعي ويكون غير قادر على تذوق الجميل، وقد يعاديه.

ولله في القرآن سورة هي سورة النحل يكثر فيها ذكر القيمة الجمالية للأشياء. يقول عز وعلا:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾[1].

بدأ ﷻ بذكر الملائكة في العوالم العلوية ونزولهم بالوحي لإخبار الناس أن الله هو خالق السموات والأرض ولا إله سواه، ثم ذكر أصل الإنسان من نطفة وكيف أنه بعد أن كبر صار خصيماً بدلاً من أن ينقاد لمولاه، ثم بدأ في ذكر النعم التي لا تحصى التي يفيضها ﷻ على عباده، المؤمن منهم والكافر، والملفت للنظر في هذه الصورة أنها تتحدث عن الأبعاد النفعية والجمالية لهذه النعم، وتفرق بينها، وتشير إلى أن الجمال

(١) سورة النحل، الآيات: ١-٤.



قد يكون مصدره شيء منظور يُرى بالعين، أو شيء يدرك بأي من الحواس الأخرى، كصوت جميل يسمع بالأذن، أو شيء يؤكل أو يشرب فيمتع حاسة الذوق، أو شيء يُشم، أو يلمس. يقول المولى جل وعلا:

﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[1].

يذكر سبحانه وتعالى الأنعام، والظاهر أن المقصود الأول بالأنعام هنا الإبل، إذ هي القادرة على حمل الأشياء لمسافات طويلة، وهي بعض قيمتها النفعية، أما بقيتها فذكر تعالى أن من أوبارها ملابس وخيام، وأن لحومها تؤكل. ثم ذكر قيمتها الجمالية، ثم عاد فذكر أن من قيمتها النفعية حمل المتاع. ثم ذكر الخيل والبغال والحمير وأشار إلى أن لها قيمة نفعية إذ أنها تُركَب، وقيمة جمالية إذ أن فيها زينة. وجدير بالملاحظة أن اللفظ القرآني للقيمة النفعية هنا: منافع، وللقيمة الجمالية: جمال، فالألفاظ هنا صريحة. وقد يسمي الشيء النافع متاعاً، وقد يسمي الشيء الجميل زينة أو حِلْية. ويقول سبحانه وتعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ۝ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ

(١) سورة النحل، الآيات: ٥-٨.

لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1].

يشير المولى ﷻ في هذه الآيات إلى نعم كثيرة قيمتها النفعية معروفة، ويشير إلى بعض قيمتها الجمالية حين يذكر النبات المختلف الألوان، والحلية التي تخرج من البحر. إلى أن يقول تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[2]، والنعم التي لا تحصى المذكورة تشتمل كما هو بيّن على كلاً من النعم النفعية والنعم الجمالية. ويقول تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾[3].

يشير المولى ﷻ إلى أن كل ما على الأرض له ظل يدور يميناً وشمالاً مع الشمس، والمخلوق وظله في ذلك ساجد لله، أي طائع له في ذلك كامل الطاعة، إذ ليس لمخلوق أن يعصي ويجعل ظله يمتد في غير الاتجاه الذي يريده الله منه. ثم يذكر المولى جل وعلا مخلوقات الأرض سوى الإنسان وملائكة السماء، مشيراً إلى أنهم ساجدون انقياداً لله متّبعين لفطرتهم غير مخالفين لها، فكيف يخالف الإنسان فطرته ويكفر؟ ونحن نضيف: كيف يتنكر الإنسان لفطرته ويُفَضِّل القبح على الجمال الذي فطره الله على تذوقه؟ ويقول ﷻ: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾[4]. واللبن غذاء كامل منافعه كثيرة، وأنعم الله على البشر

(١) سورة النحل، الآيات: ١٠-١٤.
(٢) سورة النحل، آية: ١٨.
(٣) سورة النحل، آية: ٤٨، ٤٩.
(٤) سورة النحل، آية: ٦٦.

بأن أضاف إلى منافعه أن جعل ليس فقط طعمه ولكن لونه وصفاءه كذلك لذة للشاربين. ويقول تعالى:

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۞ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(1).

والعسل غذاء فيه شفاء، فهذه وظائفه النفعية، ولكن ألوانه الصافية وطعمه فيها الجمال، ولا فائدة لها نفعية، إذ قد يكون الدواء لونه عكر وطعمه مر.

ويقول تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ﴾(2). ونرى هنا أيضاً ذكر للزينة إذ أن ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾(3).

ويقول تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ۞ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ﴾(4).

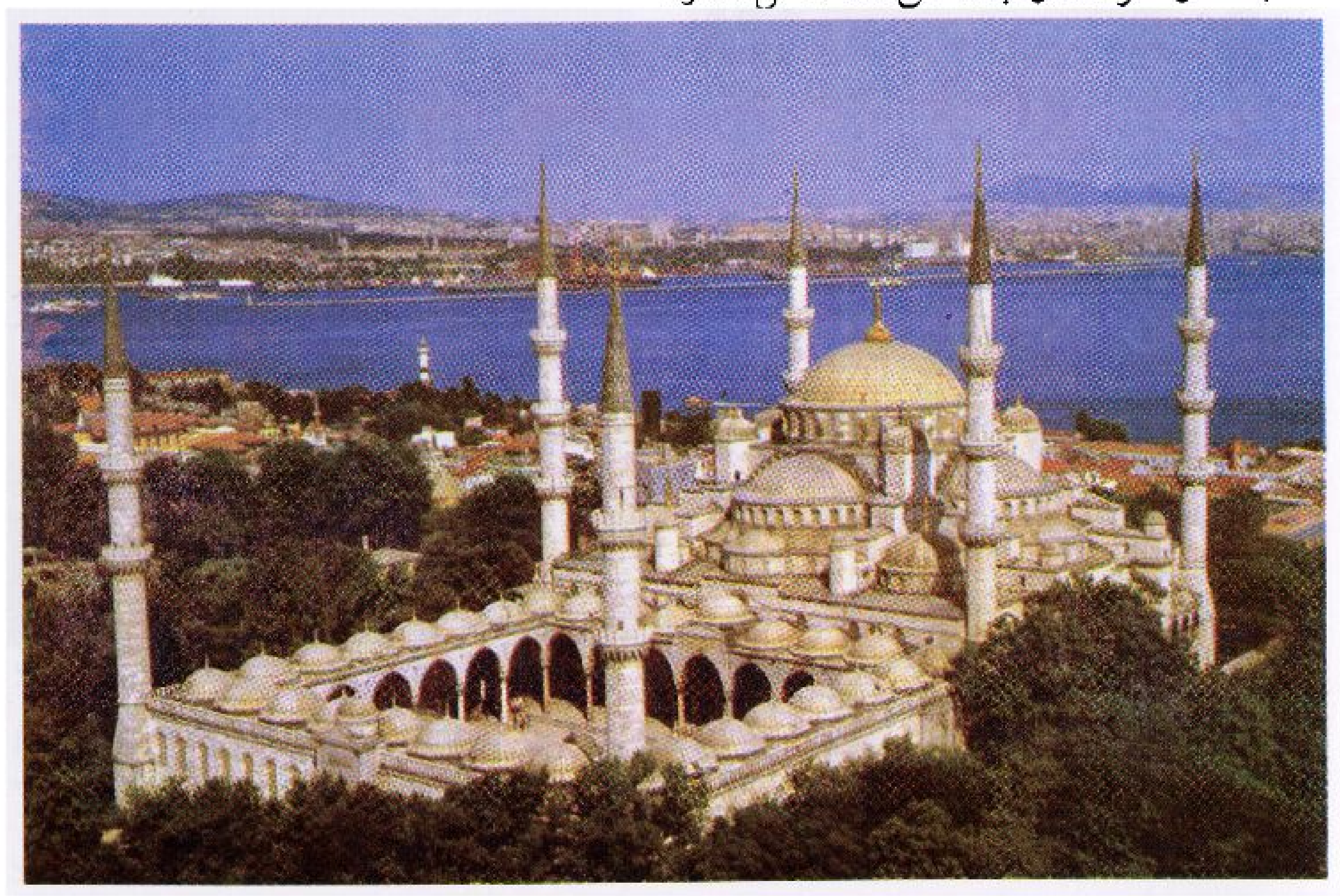
فالملابس الجميلة من الزينة، وأمر ابن آدم أمراً مباشراً أن يتزين عند ذهابه إلى المسجد، وحلل له التزين بشروطه الشرعية في المواطن الأخرى. وفي الآخرة يزينه ربه فيمتعه بجمال الملابس ونعومتها وألوانها وبالحلي الذهبية والفضية ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾(5).

---

(1) سورة النحل، آية: ٦٨، ٦٩.
(2) سورة النحل، آية: ٧٢.
(3) سورة الكهف، آية: ٤٦.
(4) سورة الأعراف، آية: ٣١، ٣٢.
(5) سورة فاطر، آية: ٣٣.

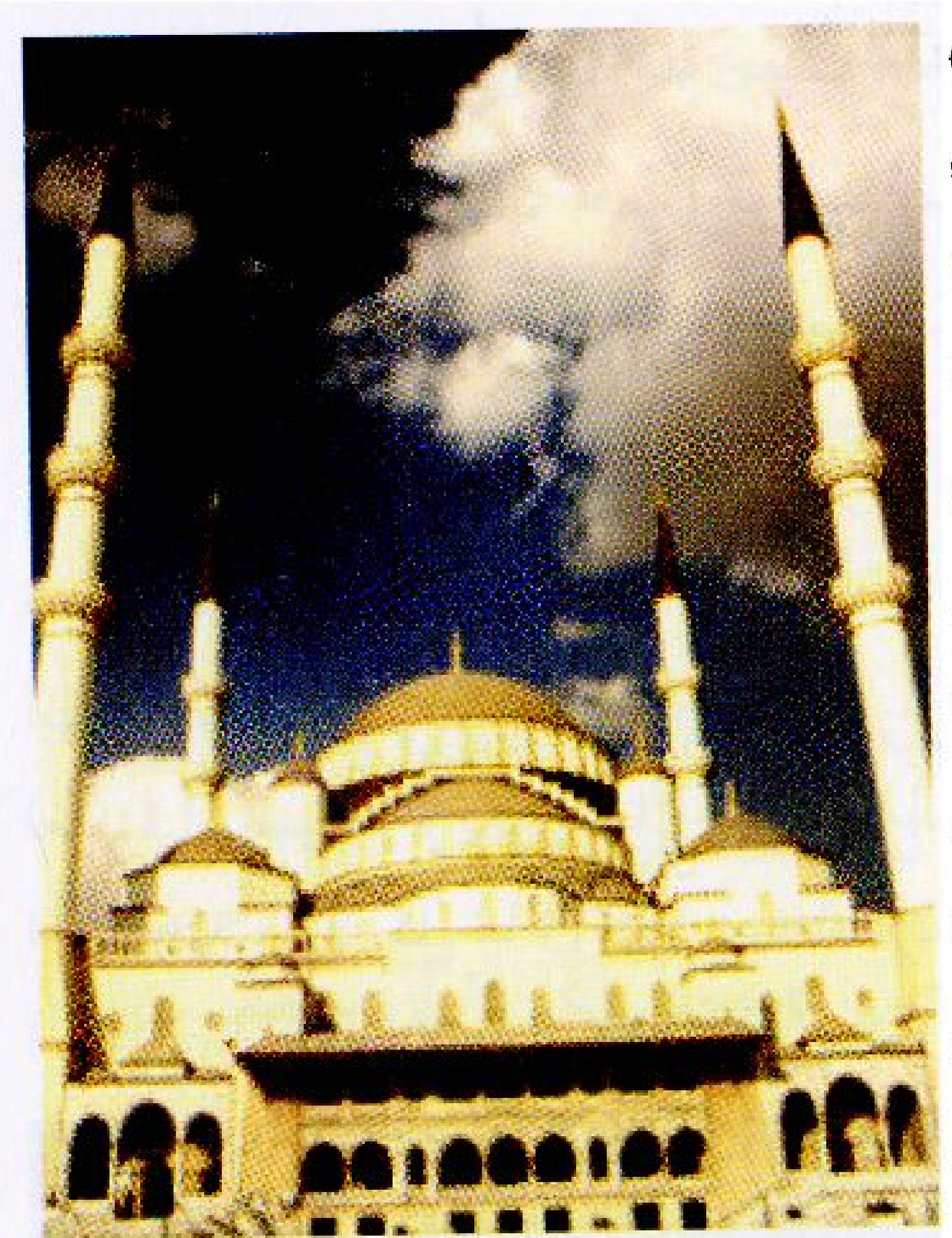
ويقول تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقٗا﴾[1].

كل هذه المواضع وغيرها من القرآن تؤكد على القيمة الجمالية للأشياء، وأنها قيمة مستقلة عن القيمة النفعية، وأنها من نعم الله التي تستحق الشكر، وأنها تظهر في أبهى صورة في الآخرة لأهل الجنة. ولو لم يكن للجمال قيمة ذاتية، ولم يكن فيه إشباع لغريزة أساسية، ولم يكن دليلاً على الجمال الرباني الأقدس، لما جعل الله كل ما في الجنة جميلاً، ولا كل ما في النار قبيحاً، فإن النعيم، والتلذذ الحسي والمعنوي، لأهل الجنة، والحرمان والبعد عن الله لأهل النار.



مسجد السلطان أحمد باسطنبول ـ تركيا

(١) سورة الكهف، آية: ٣١.



مسجد كوتشاتيبي بأنقرة - تركيا

إن الجنة شكلها جميل، وجوها جميل، وأرضها رائحتها المسك، وأنهارها من ماء ولبن وعسل وخمر لذة للشاربين، والمؤمنون فيها على أحسن صورة، وملابسهم وحليهم على أبهى هيئة، وكذلك قصورهم، وأرائكهم، وكئوسهم وأباريقهم، وخدامهم من الغلمان، وأزواجهم من الحور. وكل هذه النعم إلى جمال المنعم الأقدس تشير، فإن المولى ﷻ يقول: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾[1]، ويقول النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ»[2]، فالله ﷻ يحب أن يرى آثار تجليات صفاته الجميلة في خلقه، فكلما كان المخلوق جميلاً كان أقرب إليه سبحانه.

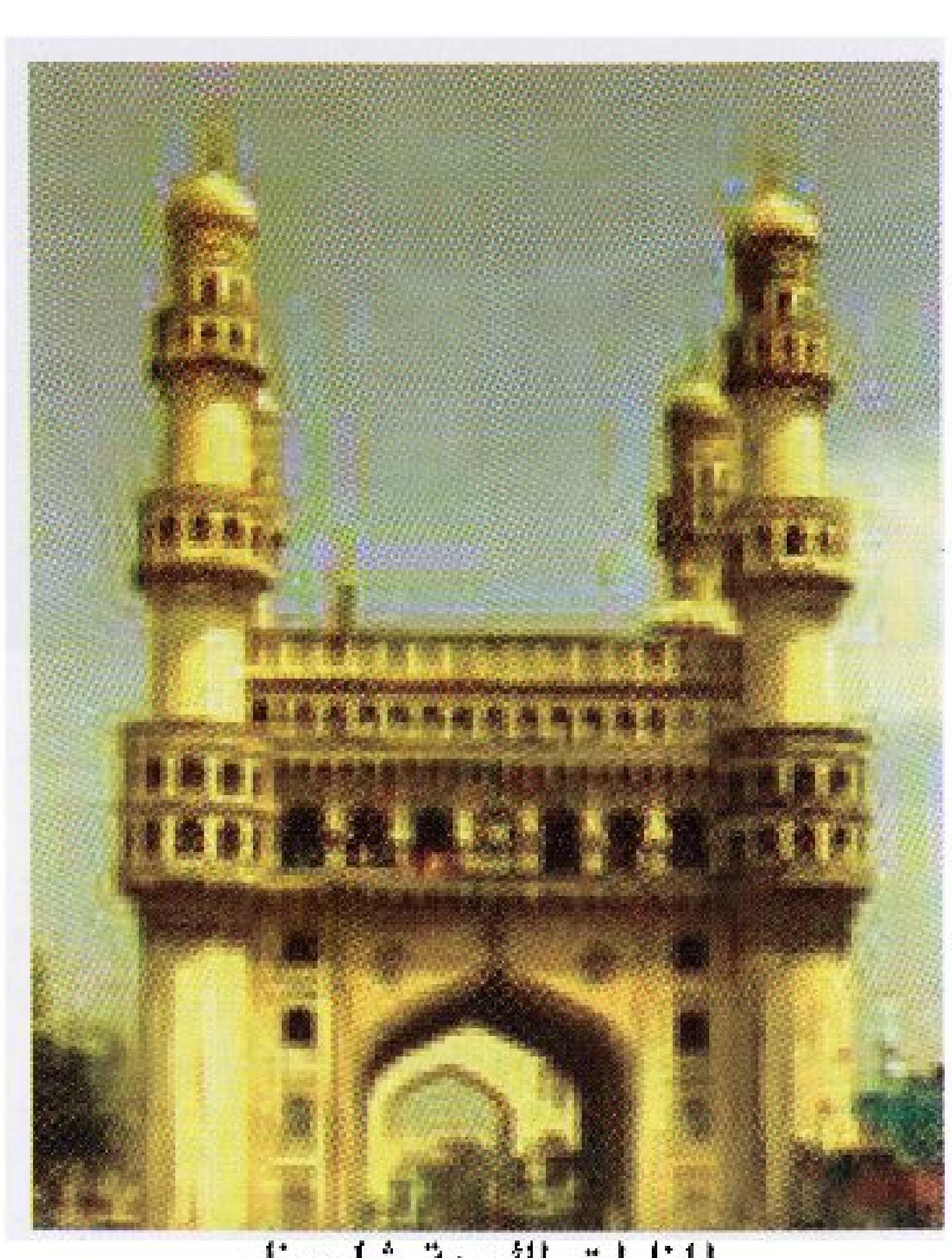
وقد بيّن النبي ﷺ في هذا الحديث أن القبح الحقيقي الذي يبعد عن الله إنما هو الكِبْر، فقال ﷺ: «لاَ يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ». قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً. قَالَ: «إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ، الْكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ»[3]. وكأن الرجل خاف أن يكون من التكبر أن يتجمل في الملبس، فبيّن له النبي ﷺ أن القبح الحقيقي إنما هو القبح المعنوي، وأن الكبر إنما هو

(١) سورة الأعراف، آية: ١٨٠.

(٢) سنن الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الكبر، (١٩٢٢). صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، (١٣١).

(٣) صحيح مسلم، (١٣١).

إنكار الحق واحتقار الناس. أما التجمل في الملبس إن لم يداخله إعجاب المرء بنفسه فإنه مندوب، لأنه تشبه بصفات الجمال الإلهية. ولذلك كان النبي ﷺ يتجمَّل قبل الخروج إلى الناس، فكان إذا قدم عليه الوفد لبس أحسن ثيابه وأمر أصحابه بذلك[1]، وكان يُصْلِح لأصحابه من هندامهم، ومن ذلك ما روي أنه لَمَّا أَمَرَ عَبْدَالرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ أَن يَتَجَهَّزُ لِسَرِيَّةٍ بَعَثَهُ عَلَيْهَا، وَأَصْبَحَ عَبْدُالرَّحْمَنِ قَدِ اعْتَمَّ بعِمَامَةٍ مَنْ كَرَابِيسَ[2] سَوْدَاءَ، فَأَدْنَاهُ النَّبِيُّ ﷺ ثُمَّ نَقَضَهُ وَعَمَّمَهُ بِعِمَامَةٍ بَيْضَاءَ، وَأَرْسَلَ مِنْ خَلْفِهِ أَرْبَعَ أَصَابِعَ أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ، وَقَالَ: «**هَكَذَا يَا ابْنَ عَوْفٍ اعْتَمَّ، فَإِنَّهُ أَعْرَبُ وَأَحْسَنُ**»، ثُمَّ أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بلالاً أَنْ يَدْفَعَ إِلَيْهِ اللِّوَاءَ، فَحَمِدَ اللَّهَ، وَصَلَّى عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ قَالَ: «**خُذِ ابْنَ عَوْفٍ، فَاغْزُوا جَمِيعًا فِي سَبِيلِ الله، فَقَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِالله، لاَ تَغُلُّوا، وَلا تَغْدِرُوا، وَلا تُمَثِّلُوا، وَلا تَقْتُلُوا وَلِيدًا، فَهَذَا عَهْدُ اللهِ وَسِيرَةُ نَبِيِّهِ ﷺ**»[3].



المنارات الأربعة شارمينار
بمدينة حيدر آباد - الهند

ونرى في تعليمات القتال التي يصدرها النبي ﷺ لقادة سراياه جمال النبي ﷺ والدين الذي أرسله الله به.

إن الله خلق الإنسان لعبادته، وخلق في نفسه مَلَكَة تذوق الجمال، حتى تجذبه هذه الْمَلَكَة إلى تذوق الجمال الطبيعي الذي يعكس قدرة الخالق ﷻ، وتدفعه لأن يجتهد في إخراج أعمال فنية تعكس

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي، الجزء السادس، ص ٢٥٩.
(٢) كرابيس جمع كرباس: فارسي معرب، وهو ثوب خشن من القطن الأبيض.
(٣) المستدرك للحاكم: (٨٦٢٣- ٨٧٧٢).

ما استطاع إدراكه من ذلك الجمال، كما تدفعه إلى أن يكون جميلاً في أخلاقه ومعاملاته، وأخيراً تُذكِّره دائماً بجمال الأسماء والصفات الإلهية وتحببه فيها، فتجعله من أهل الذكر الدائم.

ولذلك كما أن النبي ﷺ كان يحث على التجمل في الملبس، فإنه كان يحرص على التجمل في سائر الأشياء؛ ومنها تلاوة القرآن، والأذان، وتغيير الأسماء غير الجميلة إلى أخرى أجمل منها، إلى غير ذلك. وقد فهم الإمام البخاري ذلك فبوَّب لقول النبي ﷺ لأبي موسى الأشعري رضي الله عنه حين سمع قراءته: «**لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ**»، بعنوان: باب حُسْنِ الصَّوْتِ بِالْقِرَاءَةِ للقُرْآن، كما بوَّب له الإمام مسلم بعنوان: باب اسْتِحْبَابِ تَحْسِينِ الصَّوْتِ بِالْقُرْآنِ[1].

وكذلك بوَّب الكثير من أئمة الحديث. وفي روايات أخرى أن أبا موسى الأشعري لما سمع ذلك قال: «**لَوْ عَلِمْتُ لَحَبَّرْتُهُ لَكَ تَحْبِيرًا**». أي لحسنته وزينته[2]. وكذلك قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ**»[3].

---

(١) صحيح البخاري: (٤٦٦٠)؛ صحيح مسلم: (١٣٢١، ١٣٢٢).

(٢) صحيح ابن حبان: (٧٣٢٠)؛ مصنف عبد الرزاق: (٤١٧٨)؛ البيهقي في السنن الكبرى: (٣/ ١٢؛ ١٠/ ٢٣١)؛ وفي شعب الإيمان: (٢٠٨١؛ ٢٤٩٨).

(٣) صحيح البخاري: (٦٩٧٣)؛ سنن أبي داود: (١٢٥٧).



مسجد حديث بماليزيا

أما الأذان، فإن رسولَ الله ﷺ لما أخبره صاحبه برؤياه قال: «إِنَّ هَـٰذِهِ لَرُؤْيَا حَقٌّ، فَقُمْ مَعَ بِـلَالٍ فَإِنَّهُ أَنْدَى وَأَمَدُّ صَوْتًا مِنْكَ فَأَلْقِ عَلَيْهِ مَا قِيلَ لَكَ وَلْيُنَادِ بِذَلِكَ» (الحديث)[1].

ومعروف أن النبي ﷺ كان يُغَيِّر الأسماء القبيحة ويستبدلها بأسماء مليحة. فقد غيّر ﷺ اسم من اسمها «برة» إلى «زينب» وإلى «جويرية»[2]، ومن اسمها «عاصية» إلى «جميلة».

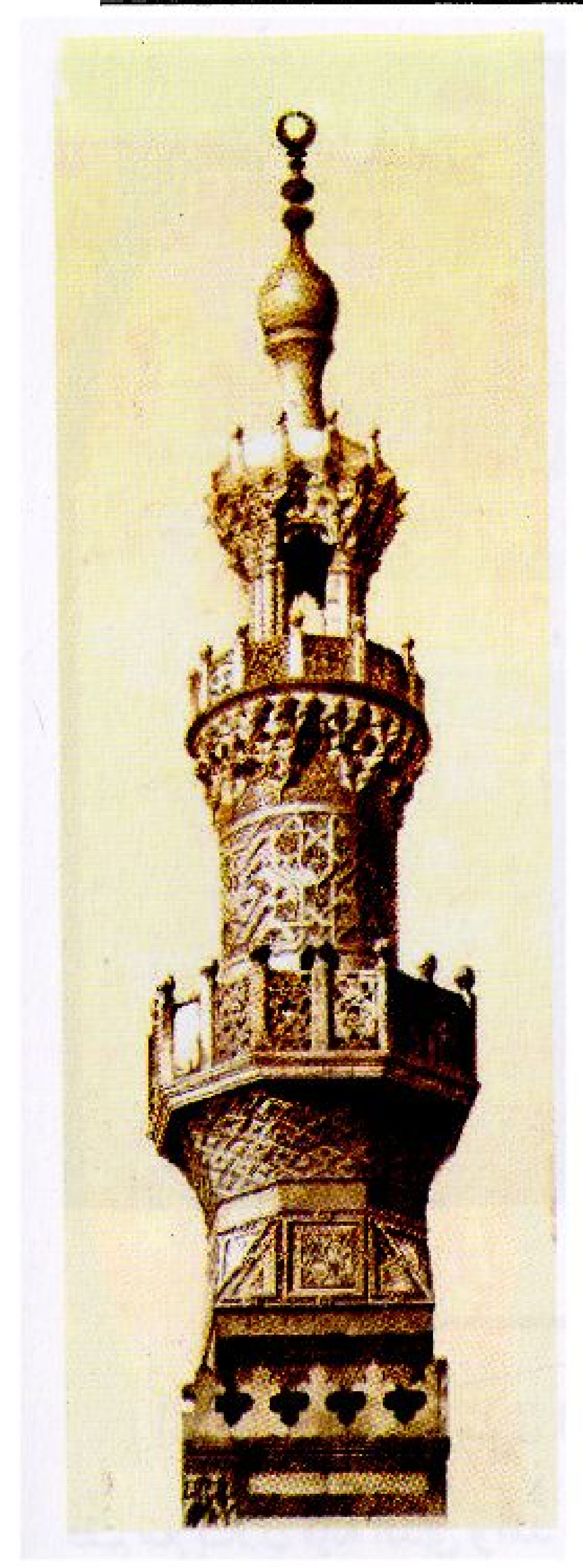
(١) سنن الترمذي: كتاب الصلاة ؛ باب ما جاء في بدء الأذان (١٧٤)؛ سنن أبي داود: كتاب الصلاة ؛ باب كيف الأذان (٤٢١)؛ سنن ابن ماجه: كتاب الصلاة، باب بدء الأذان (٦٩٨).

(٢) صحيح البخاري: (ج ١٩/ ص١٧٩) ٥٧٢٤؛ صحيح مسلم: (٣٩٩١-٣٩٩٠-٣٩٨٩-٣٩٨٧)؛ سنن أبي داود: (١٢٨٥).

هكذا نرى أن القيمة الجمالية للأشياء ليست مجرد ترف وتبذير، ولكنها قيمة أصلية نابعة من أن خالق الأشياء جميل، وصنعته جميلة، وهو يحب الجمال، وبالتالي يبغض القبح، فالقبح ومن يحبه بعيد كل البعد عن الله، مقطوع عن حضرته، محروم من محبته.

وهنا نقطتان ينبغي التنبيه عليهما؛

الأولى: أن الجمال الأعلى له التقديم دائماً على الأقل درجة، بمعنى أن الجمال المعنوي الروحي والأخلاقي مُقَدَّم دائماً على الجمال الحسي، فإن تعارضا قُدِّم المعنوي. فمثلاً إذا افترضنا رجلاً صالحاً، عالماً، زاهداً، ولكن ثيابه قبيحة رثة، فإن جماله المعنوي يحجب قبحه الحسي، فيراه مَن يُدْرك حقيقته جميلاً. والعكس صحيح، إذا افترضنا مثلا امرأة جميلة الهيئة، ولكنها سيئة الْخُلُق، فإن قبحها المعنوي يطغى على جمالها الحسي، فيراها من لا يرى إلا ظاهرها جميلة، ويراها من يُدرك حقيقتها قبيحة.



منارة مسجد قايتباي

أما النقطة الثانية فهي أن الجمال الحقيقي والفن الرفيع لا يحتمل التبذير والسفه، فإن التبذير والسفه من القبح فلا يجتمعان مع الجمال ولا يتفقان معه؛ فكما أن البحث عن الجمال وتذوقه شيء أساسي أصلي في خِلْقة الإنسان، لا يُستهان به، ولا يُبخل عليه في إشباعه، كذلك، وبناءً على النقطة الأولى، إن أسرف صاحبه في النفقة، انقلب سفهاً وقبحاً معنوياً أضاع جماله الحسي.

ج- القيمة المعنوية:

رأينا مما سبق كيف أن القيمة النفعية غير منفصلة عن القيمة الجمالية، وكيف أن القيمة الجمالية بدورها مرتبطة بالقيمة المعنوية، متداخلة معها.

يشير الإمام السيوطي رحمه الله إلى شيء من الأمور المعنوية التي يشتمل عليها التسبيح بالسَّحَر على المآذن حينما يقول «أن أول ما حدث التسبيح بالأسحار في زمن موسى عليه السلام، واستمر بعده إلى أن كان زمن داود عليه السلام وبنى بيت المقدس فرتب فيه من يقومون بذلك من الثلث الأخير من الليل إلى الفجر، إلى أن خرب بيت المقدس». إلى أن قال: «وأما في هذه الملة المحمدية فكان ابتداء عمله بمصر، وسببه أن مسلمة بن مخلّد الصحابي رضي الله عنه بنى وهو أمير مصر مناراً بجامع عمرو واعتكف فيه، فسمع أصوات النواقيس عالية، فشكا ذلك إلى شرحبيل بن عامر عريف المؤذنين، فقال: إني أمد الأذان من نصف الليل إلى قرب الفجر فإنهم لا ينقسون إذا أذنت، ففعل.

ثم لما كان أحمد بن طولون رتب جماعة نوبا يكبرون ويسبحون ويحمدون ويقولون قصائد زُهدية، وجعل لهم أرزاقاً واسعة، ومن ثَمَّ اتخذ الناس قيام المؤذنين في الليل على المنائر؛ فلما ولي السلطان صلاح الدين بن أيوب، أمر المؤذنين في وقت التسبيح أن يعلنوا بذكر العقيدة الأشعرية، فواظب المؤذنون على ذكرها كل ليلة إلى وقتنا هذا». انتهى[1].

أي إلى وقت الإمام السيوطي، ذلك أن صلاح الدين كان بذلك يعلن أن مصر قد عادت، بعد الفاطميين، حكومة وشعباً، إلى مذهب أهل السنة والجماعة وهي عقيدة الإمام أبي الحسن الأشعري.

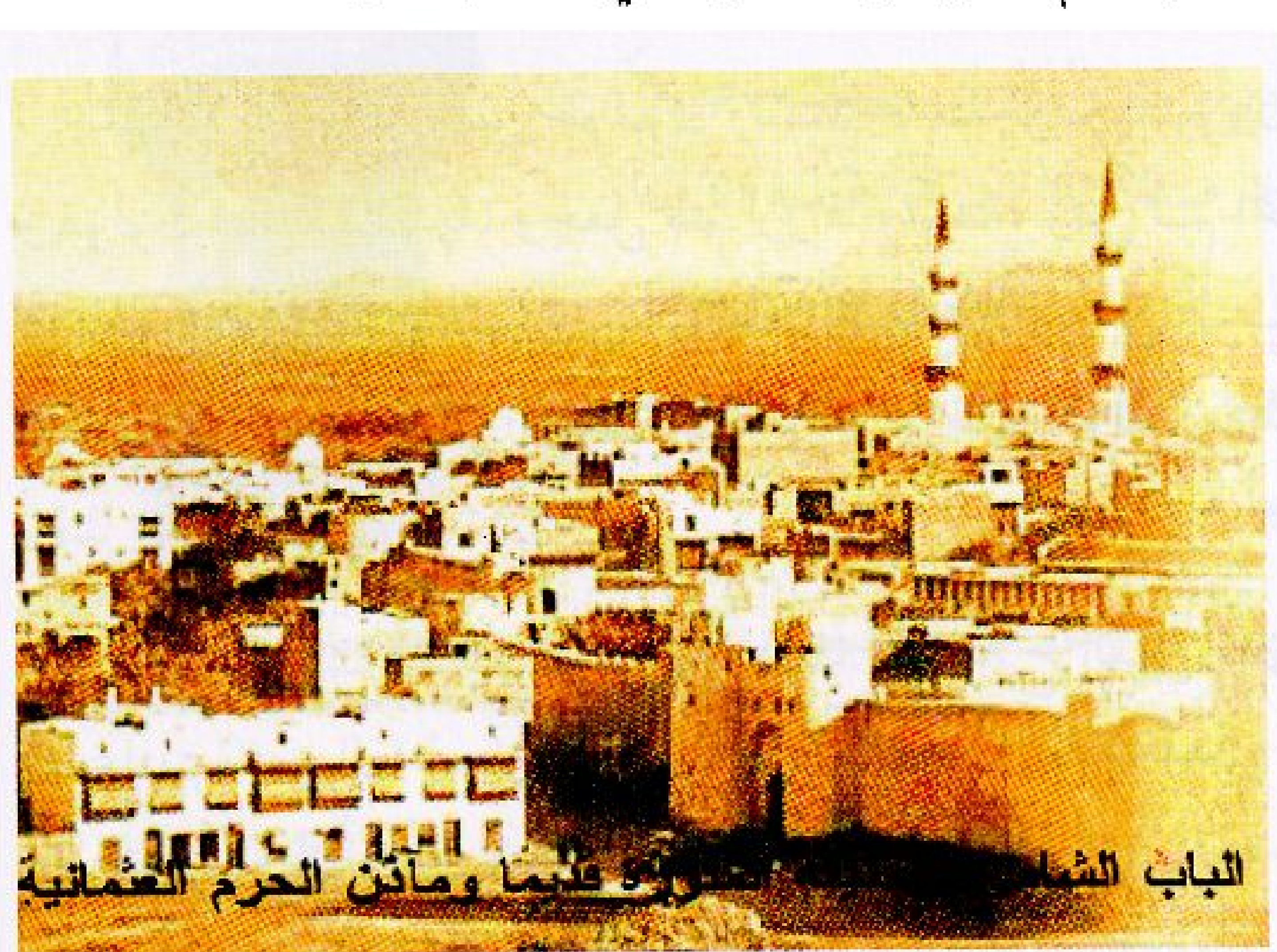
إن حقيقة القيمة المعنوية هي أن صورة الشيء وهيئته يكون فيها من الإشارات ما يُذَكِّر الناظر بالمعاني السامية والعوالم العلوية.

---

(١) تفسير روح البيان للشيخ إسماعيل حقي: الجزء ١٣، ص ٩.

إن المعاني التي يمكن أن يدركها الناظر إلى عجائب خلق الله متوقفة على عمق إدراك الإنسان أياً ما كان دينه ومكانه الجغرافي وتاريخه، فالسماء تعني العلو المادي والمعنوي بكل اللغات وفي كل الحضارات، بينما المعاني التي يمكن إدراكها فيما هو من صنع الإنسان متوقفة على بيئته الدينية والفكرية والحضارية، فإن الشكل الواحد تختلف معانيه باختلاف النموذج المعرفي لكلاً من الصانع والمشاهد.

وعقيدة المسلمين والحمد لله واحدة عبر الزمان والمكان، وأركان الإسلام وأساسيات الدين واحدة باتفاق، ولذلك فالنموذج المعرفي للمسلمين واحد في أساسياته وقواعده. إلا أن هذا النموذج المعرفي قد يختلف عمقاً واتساعاً، فإن المسلم الذي لم ينشغل يوماً بمعرفة نفسه، فعلم أنه من جسد ونفس وروح، وعلم صفات كلٍّ ووظيفته، ولم ينشغل يوماً بمعرفة الكون الذي سخّره الله له، فيعلم ما هو الملك وما الملكوت، ولا يشتمل فهمه للإسلام على البعد الروحي، وهو ضرورة الارتقاء، والمجاهدة في نيل القرب من الله، لن يفهم الإشارات المذكورة في هذه الرسالة، ولن تعني له شيئاً، وقد ينكرها ويعتبرها أضغاث أحلام، بينما أن المسلم المشغول بتزكية نفسه بهدف الترقي في المقامات ونيل المعارف سوف يراها واضحة وبديهية، بل يتعجب كيف وهي بهذا الوضوح قد فاته رؤيتها وإدراكها قبل ذلك.



مآذن الحرم المدني منذ أكثر من مائة سنة

إن صورة المئذنة ما هي إلا عمود يرتفع إلى السماء، مقسم إلى أقسام عن طريق شرفات متتالية، أو خطوط أو علامات أخرى، وله سلم داخلي وأحياناً خارجي. وإذا رقى الإنسان درجات هذا السلم فإن دائرة ما يدركه بصره تزداد اتساعاً، ويرى أكثر وأكثر من جغرافية وظروف الأرض حوله ومما يحدث عن بعد فيها، وبعد أن كان بصره محدوداً بأفقه الضيق حين كان يمشي على الأرض أصبح أفقه متسعاً، وبدأ يدرك أموراً كانت خافية عليه من قبل ولا تزال خافية على أولئك الذين لا يزالون على الأرض، فيخبرهم بما يحدث عند الأفق الذي يراه ولا يرونه، ومَن يأتي من هذا الاتجاه، وما يحدث في ذاك الموقع.

ولَمَّا يدرك الإنسان باتساع أفقه القوانين الكونية التي يُسَيِّر الله بها الكون يكون -كما ذكرنا- قد انتقل من إدراك علوم التفصيل إلى إدراك علوم الإجمال، وصار بذلك حكيماً ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[1].

وإذا نظرنا إلى مآذن المسلمين عبر الزمن وفي مختلف بلادهم وجدنا أن لها هيئات وتصميمات مختلفة، ولقد شاعت في مصر وفي غيرها من بلاد المسلمين المآذن ذات التقسيم الثلاثي، سواء كان ذلك بشرفات ثلاث، أو ثلاث أجزاء تفصلها شرفتان، وصار ذلك أمرًا شائعًا ومألوفًا، يكاد يكون نمطا متفق عليه، على الرغم من اختلاف الطراز المعماري من مكان إلى مكان، ومن زمان إلى زمان.

وبناء على ما ذكرناه آنفا تحت عنوان «المعراج» نستطيع أن نرى كيف أن هذه تتفق مع تصور المسلم لمراحل معراجه إلى خالقه. ولكنا قبل ذلك نستعرض بعض نماذج المآذن التي شيَّدها المسلمون في شتى بقاع الأرض لكي نرى وحدة الفكرة والمعنى المرتبطة بثوابت الإسلام رغم اختلاف الهيئة.



(١) سورة البقرة، آية: ٢٦٩.



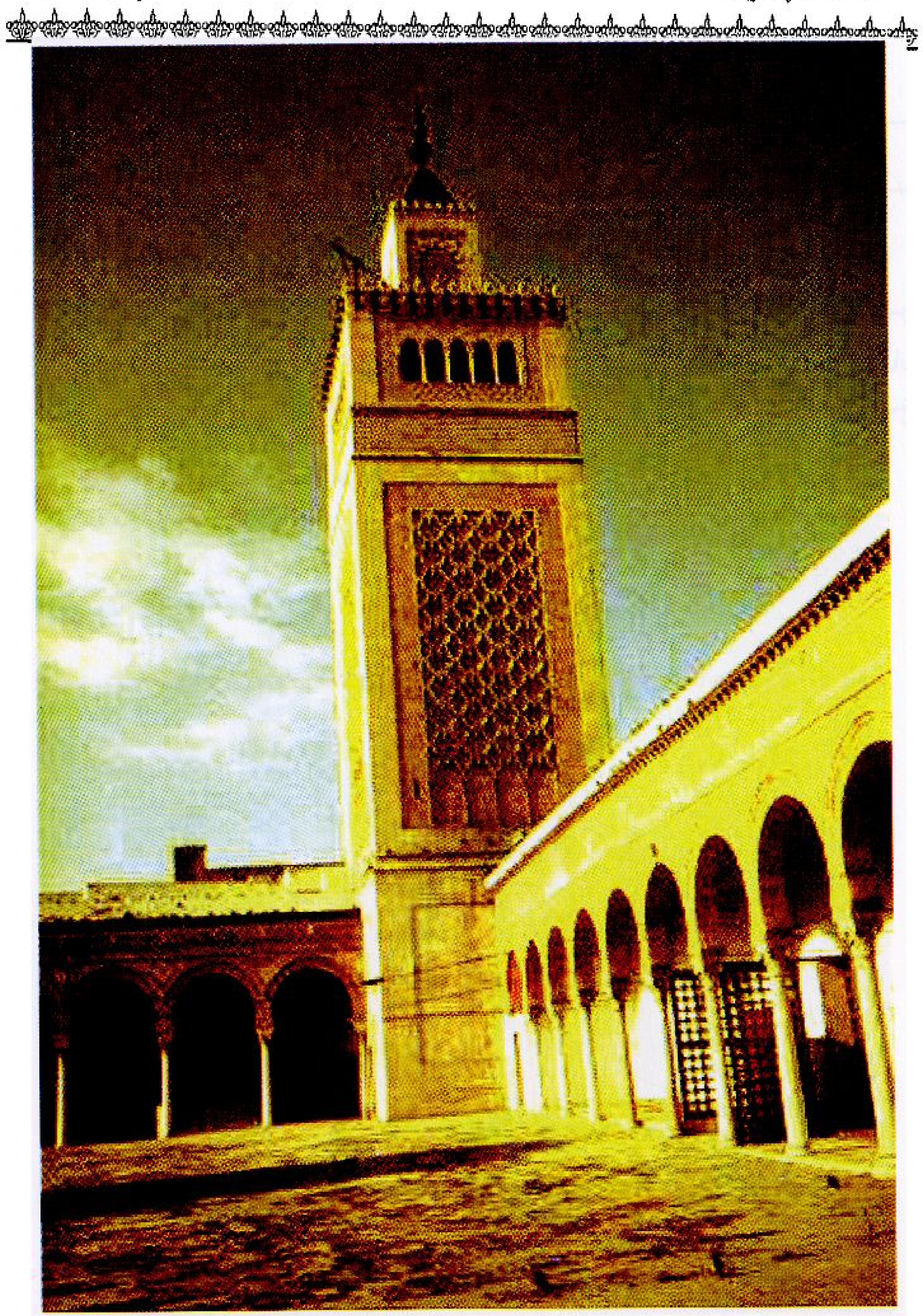
نماذج من المآذن من مختلف بلاد المسلمين

١- بعض مآذن المغرب العربي:

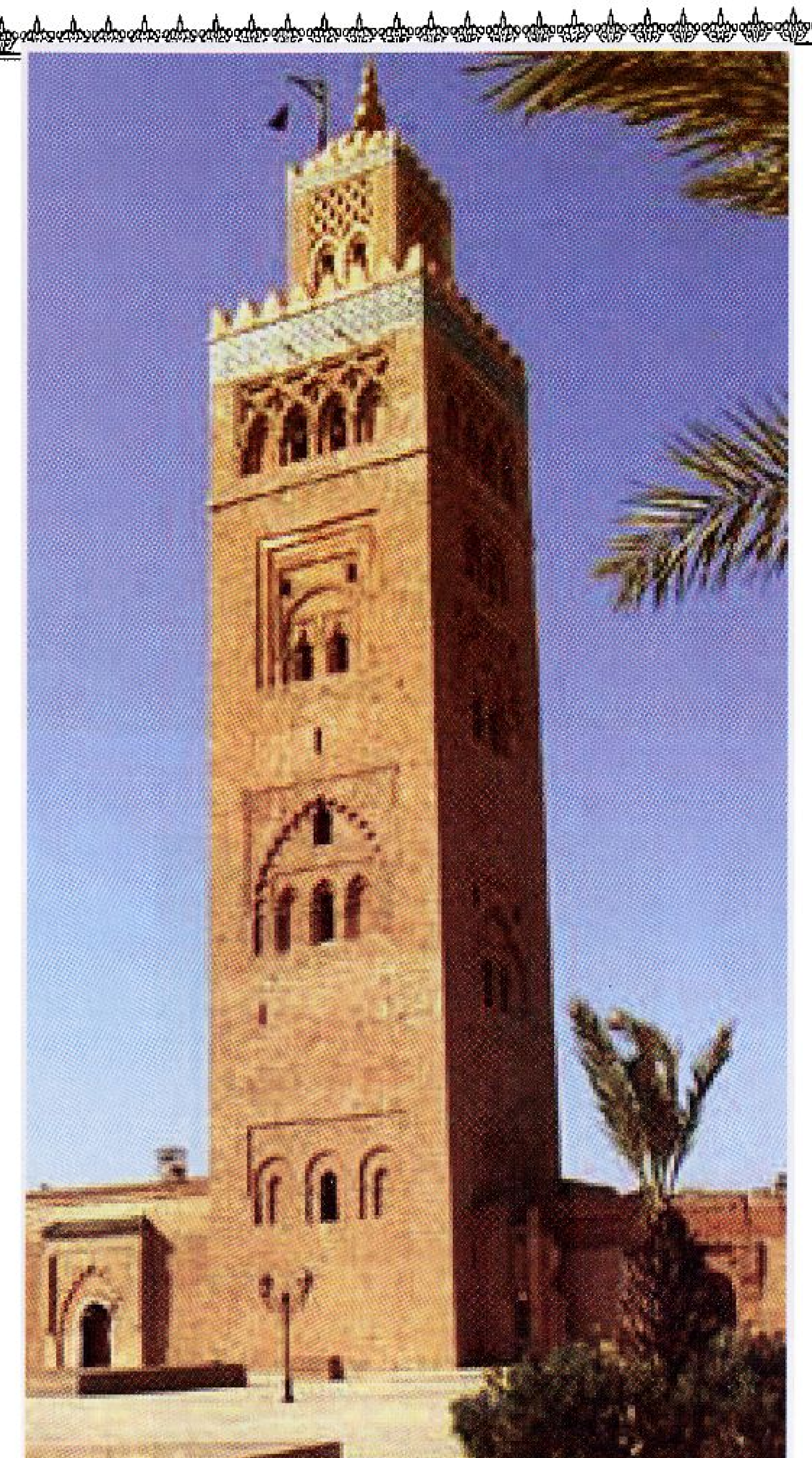
مآذن المغرب العربي لها طراز خاص فأكثرها مربعة المقطع كما يشاهد في الصور التالية وهي صور مآذن مساجد الزيتونة والقرويين القديمة ومسجد الحسن الثاني الحديث، وكأنها احتفظت بالشكل الأصلي القديم للمآذن الأولى، وهي من ثلاثة أجزاء، كل جزء أصغر مساحة من الذي تحته.



مئذنة مسجد القيروان القديم بتونس



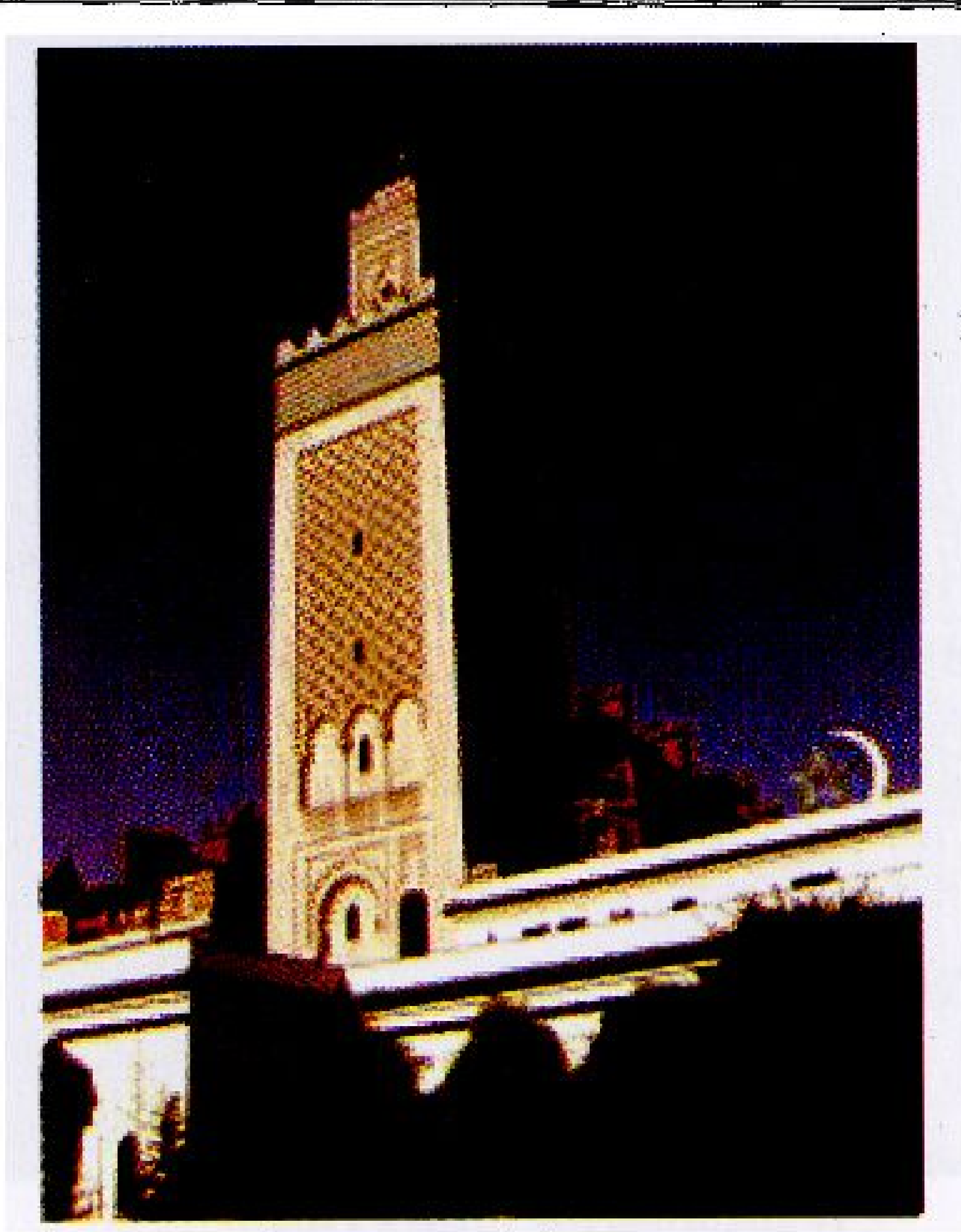
مئذنة مسجد الزيتونة بتونس



مئذنة مسجد الكتبية بمدينة مراكش بالمغرب



مسجد الملك الحسن الثاني بالدار البيضاء بالمغرب



مئذنة مغربية الطراز بمسجد باريس بفرنسا

٢- مآذن الأندلس الباقية:

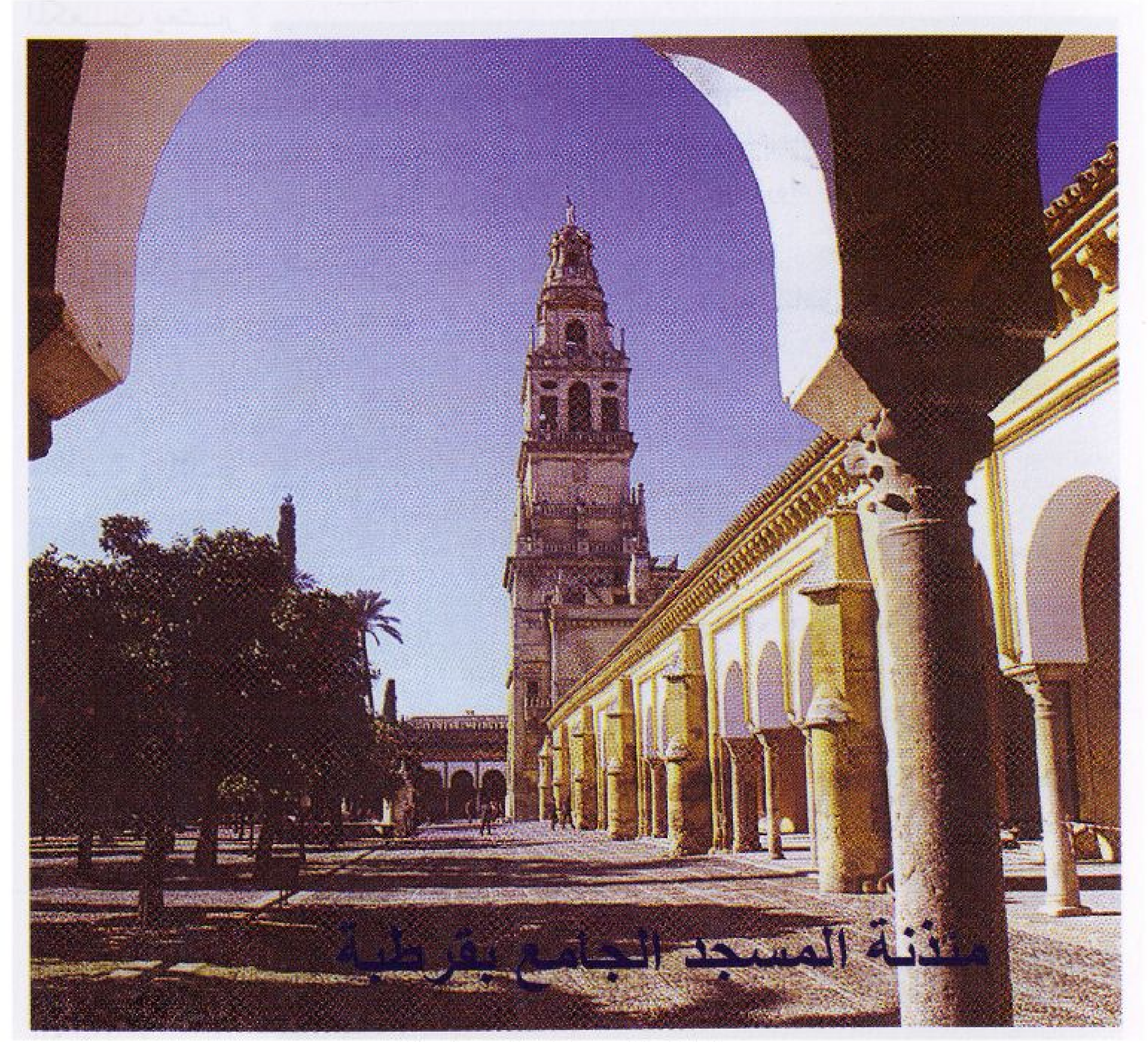
قياساً على المآذن القليلة جداً المتبقية من مآذن الحضارة الأندلسية الراقية فإن مآذن الأندلس كانت ليست ببعيدة الشبه عن مآذن المغرب العربي، فهي إما مربعة المقطع أو مضلعة، وذات أدوار ثلاثة، وقمة نصف كروية.



مئذنة غرناطة بعد تعديلها لتصبح برج الكنيسة



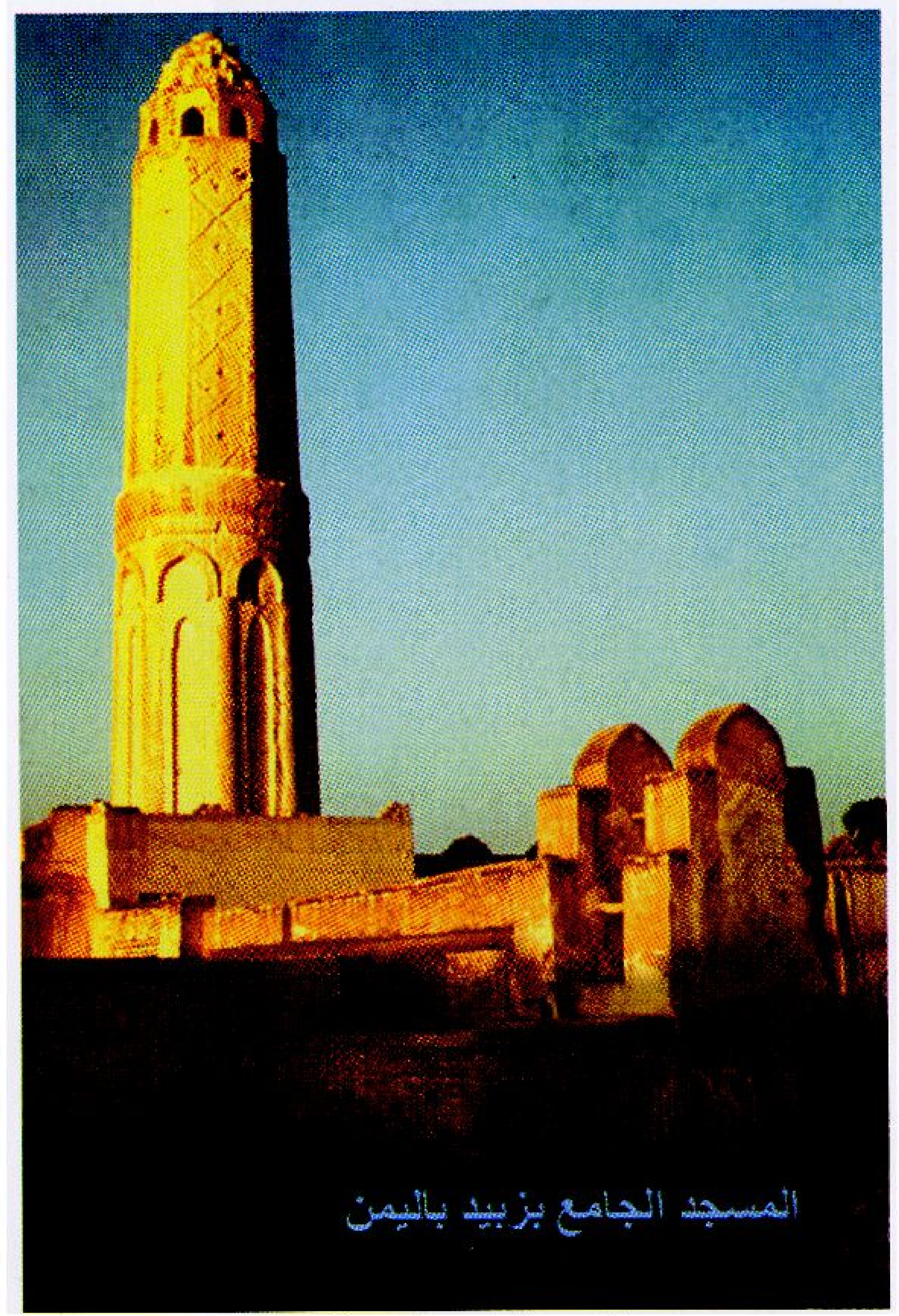
مئذنة غرناطة



مئذنة المسجد الجامع بقرطبة

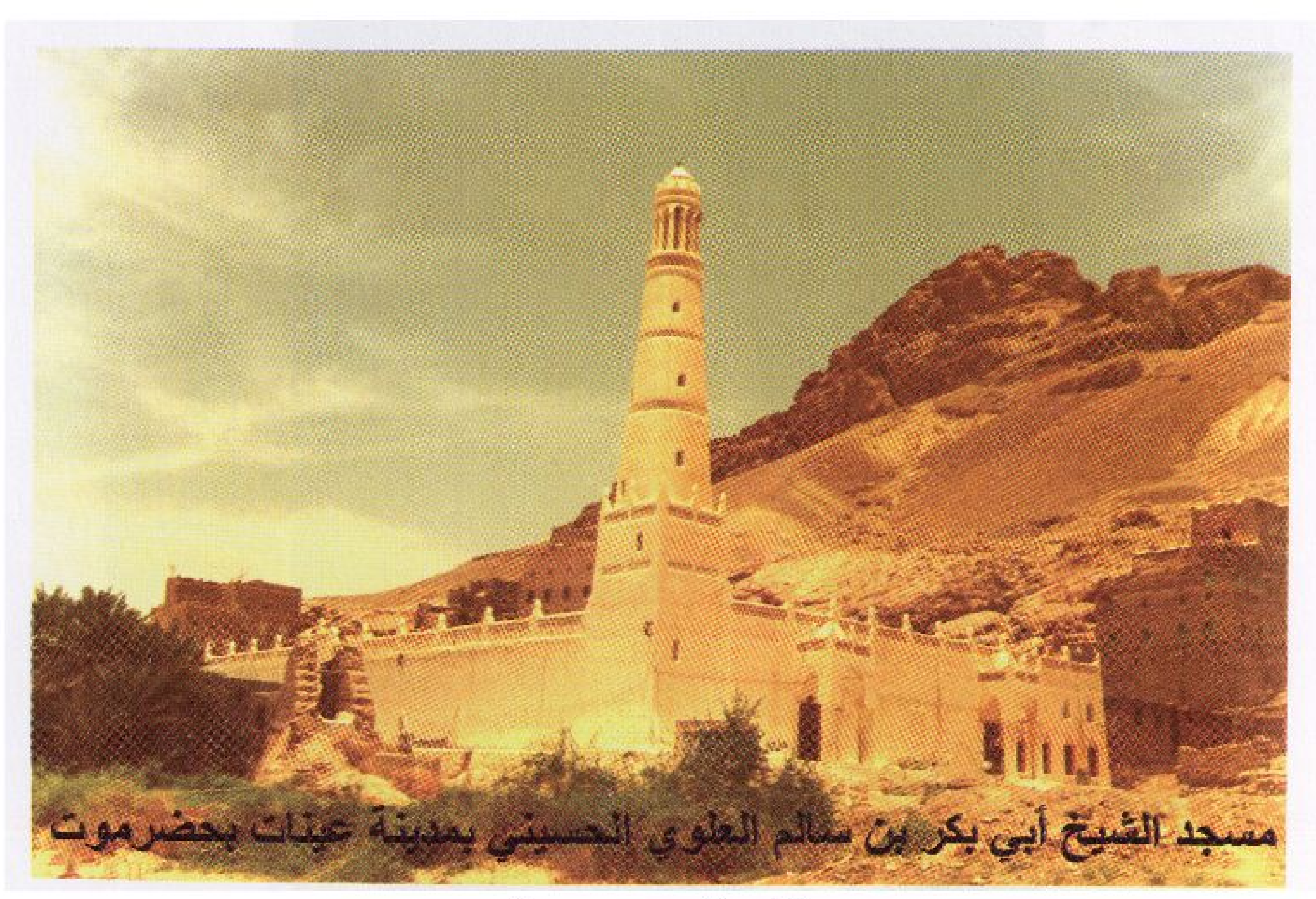
٣- بعض مآذن اليمن الشمالي والجنوبي:

طراز معماري مختلف، ولكل من الجنوب والشمال طراز خاص به، وتظهر تقسيمات ثلاثية أو ما يقاربها على هيئة خطوط تحيط بجسم المئذنة في أكثر الأحيان. وكذلك يظهر التفاوت في شكل جسم المئذنة وهي ترتفع، فهي تكون عادة في البداية مربعة المسقط، ثم بعد الشرفة الأولى تصبح مثمّنة، ثم مستديرة. ذلك أن الشكل

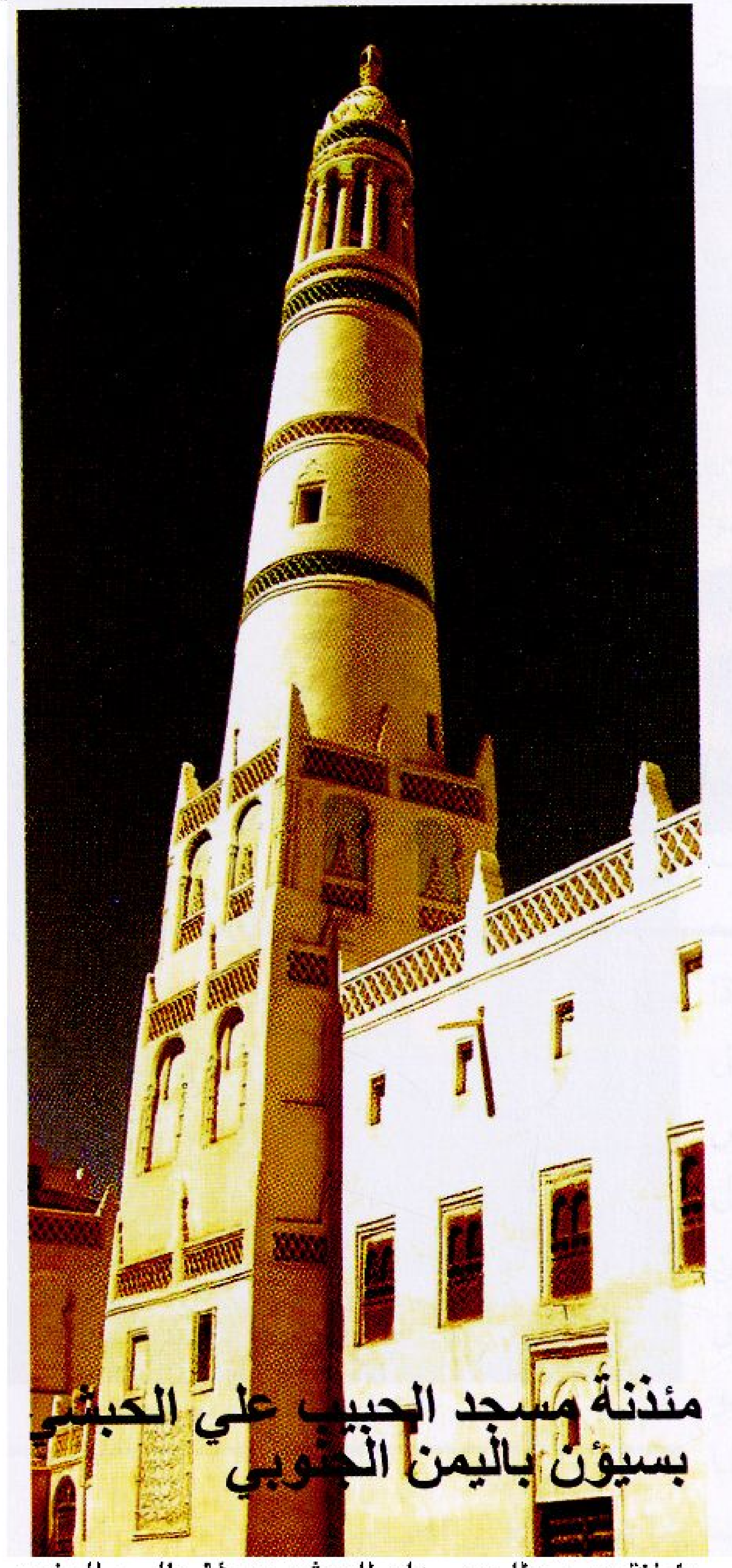


المسجد الجامع بزبيد - اليمن

المكعب يعتبر أكثر الأشكال تحديدًا وتقييدًا أي كثافة، بينما الشكل المثمّن أقل تقييدًا وبالتالي أقل كثافة وأكثر شفافية، وأخيرًا الشكل الكروي أو المستدير أقلها على الإطلاق تقييدًا، وأكثرها لطافة. تتابع هذه الأشكال إذا أشار إلى الارتفاع من التقييد إلى الإطلاق، ومن الكثافة إلى اللطافة، فهو معنى مطابق لما سبق من أن المئذنة إنما هي إشارة إلى المعراج.



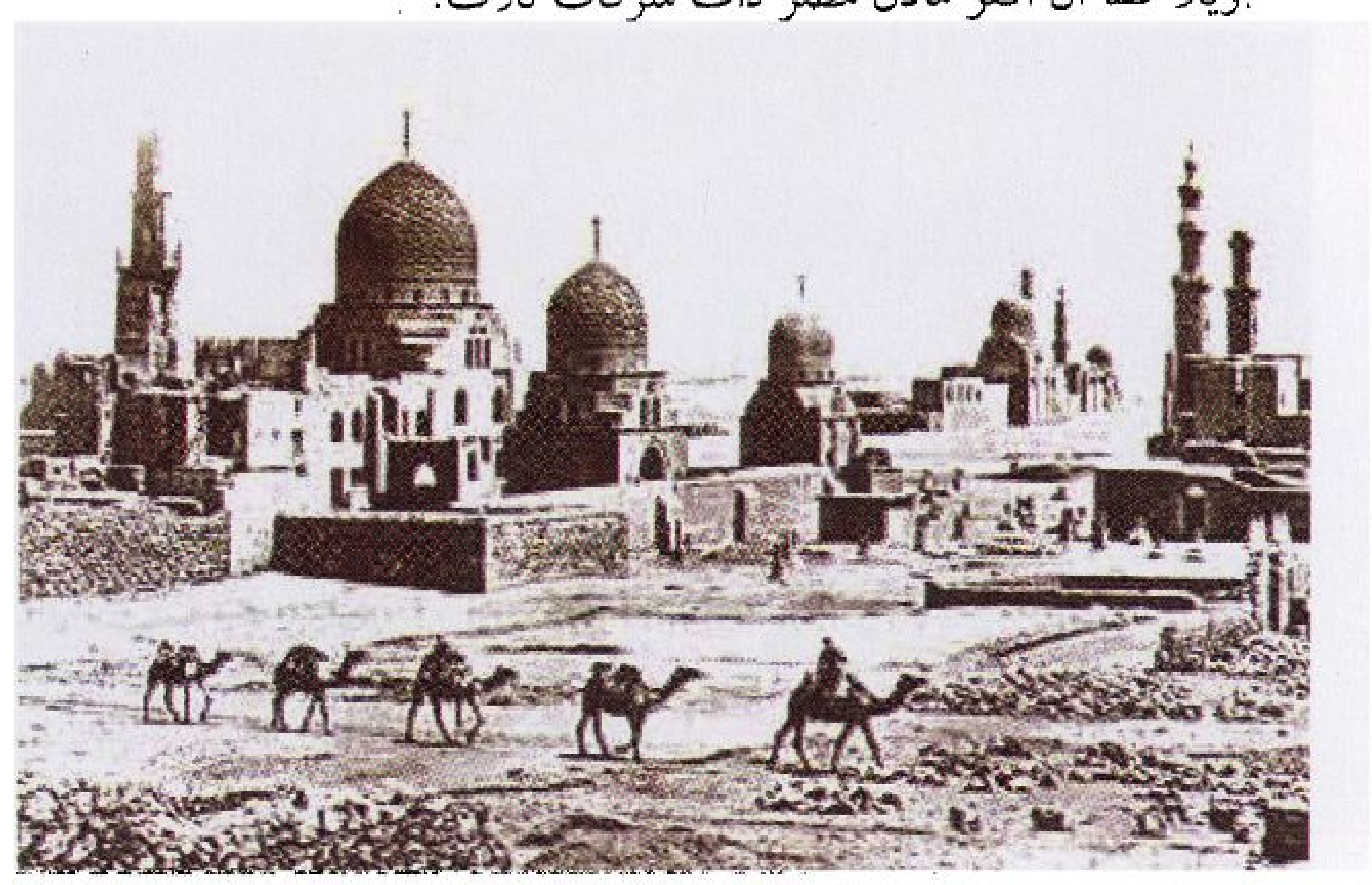
مسجد الشيخ أبي بكر بن سالم



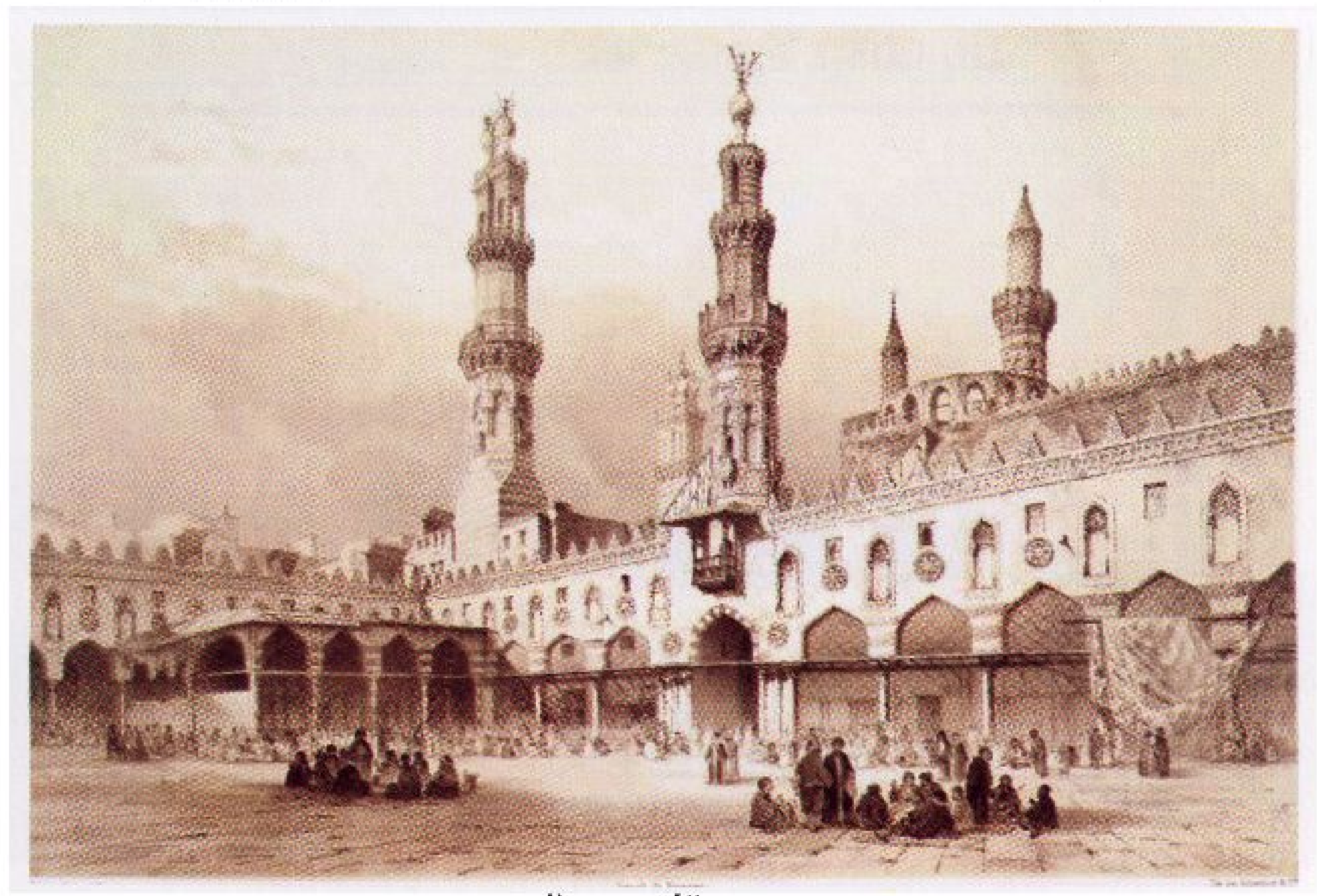
مئذنة مسجد الحبيب علي الحبشي بسيؤن باليمن الجنوبي

٤- بعض مآذن القاهرة القديمة:

ويلاحظ أن أكثر مآذن مصر ذات شرفات ثلاث.

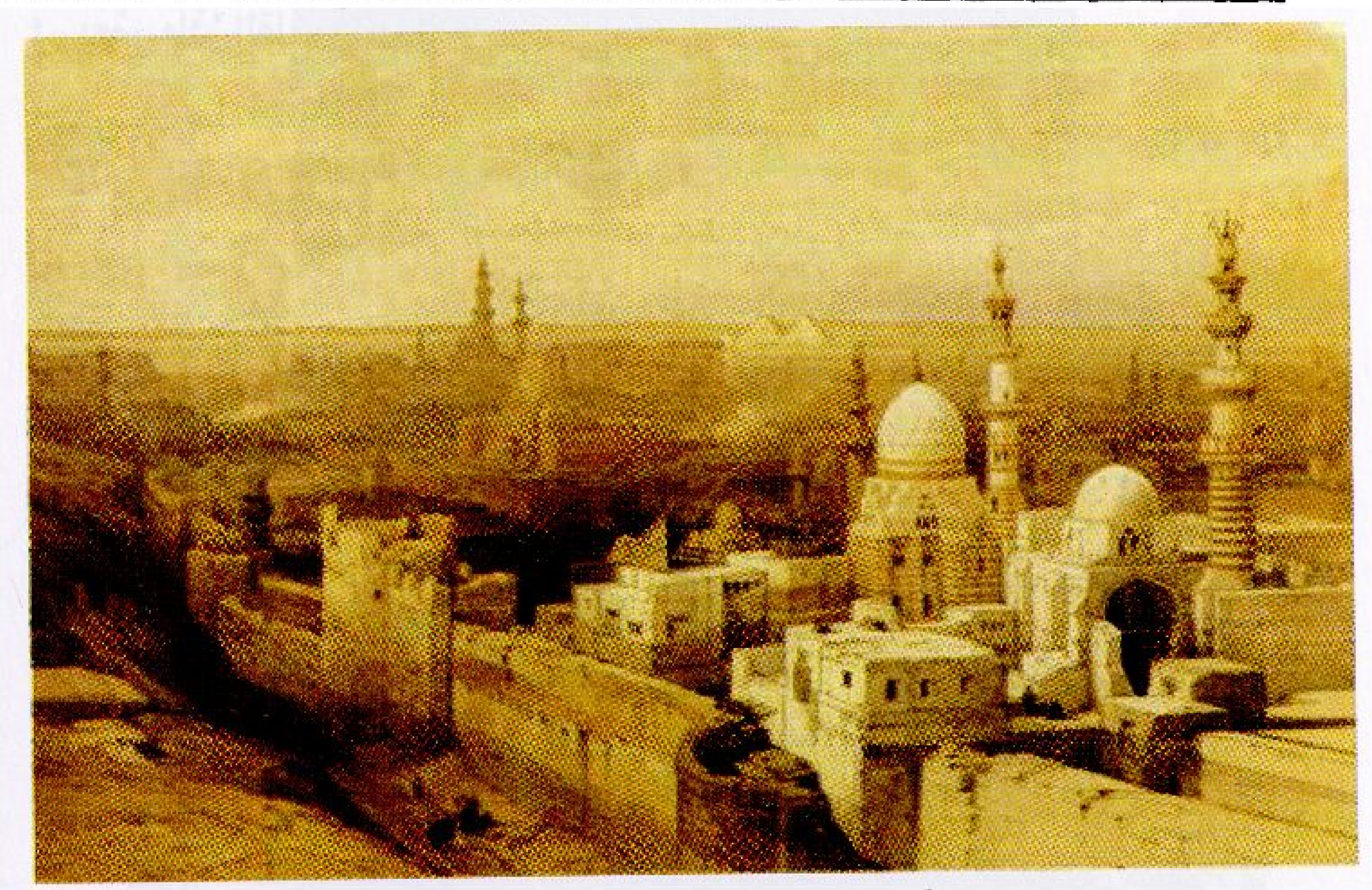


صورة فوتوغرافية من منتصف القرن التاسع عشر لمآذن وقباب

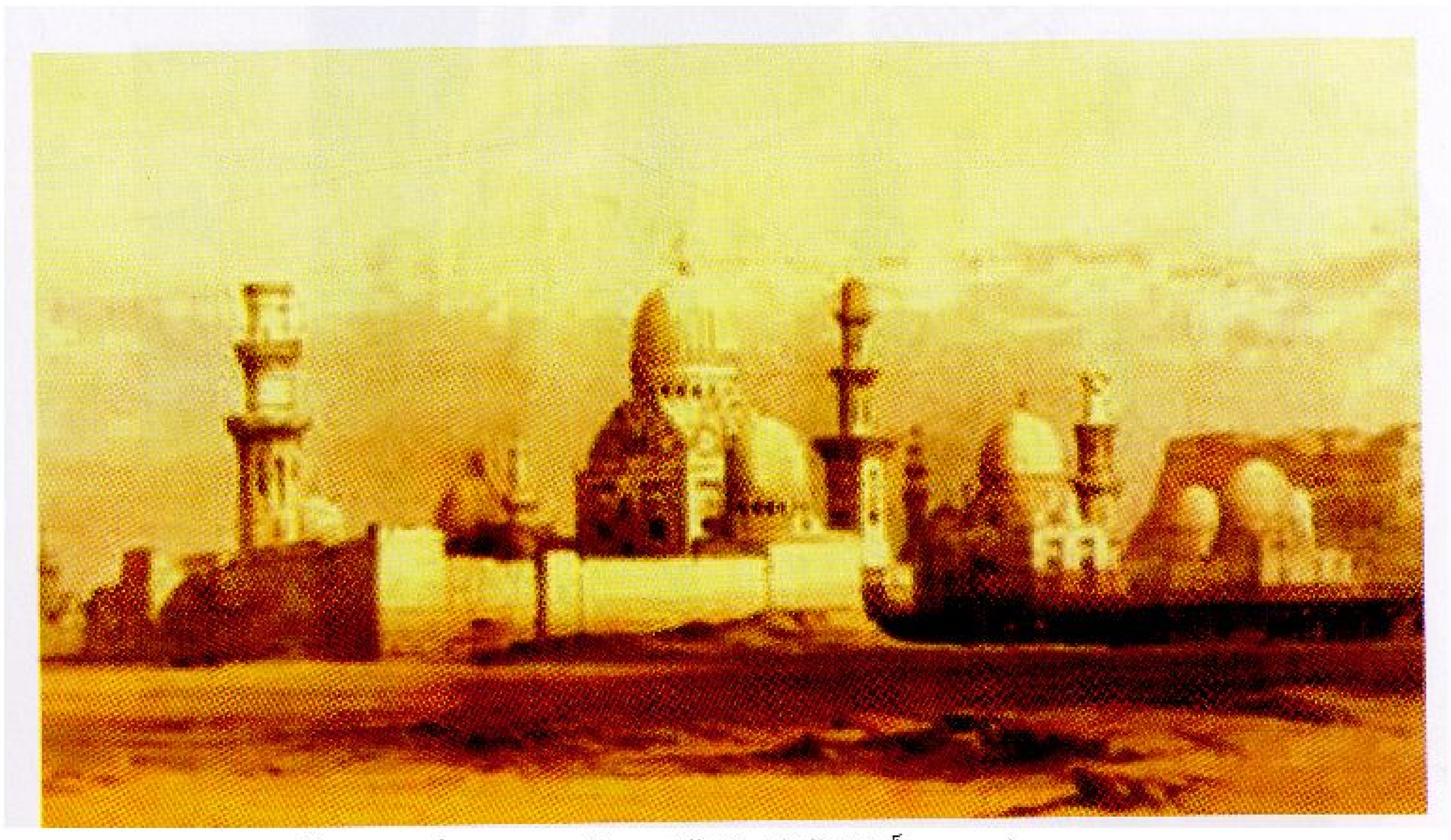


صحن الأزهر حوالي ١٨٥٠م

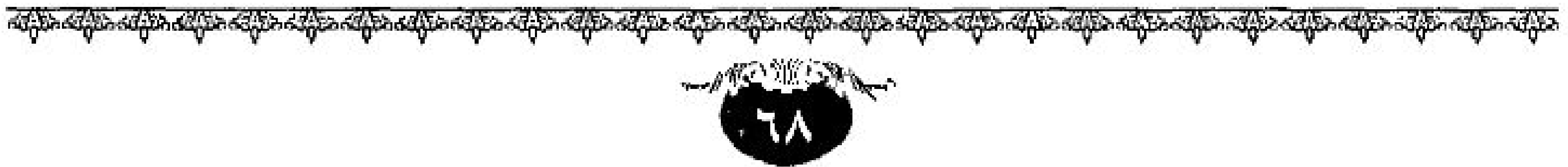


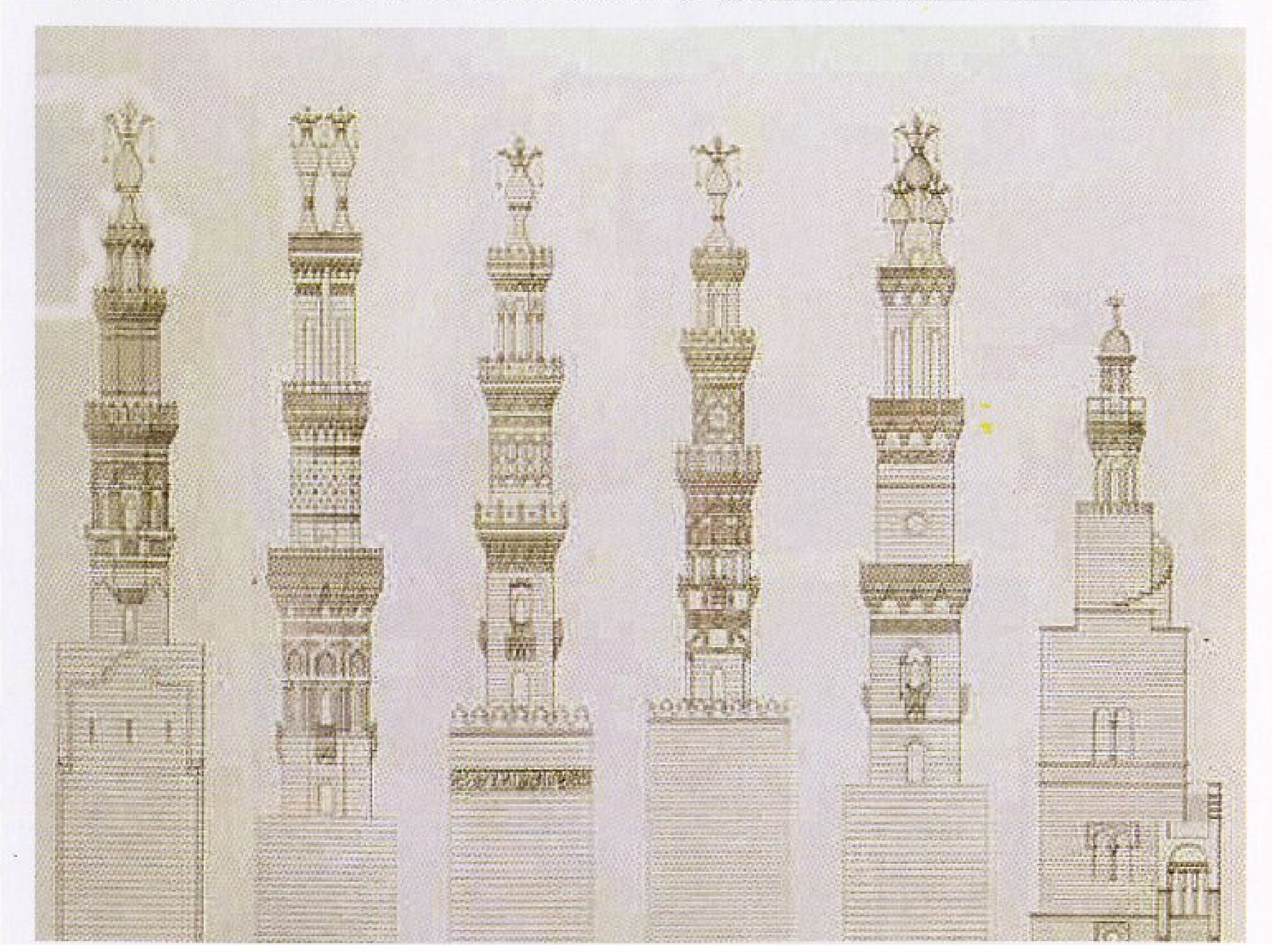


القاهرة قديماً بمآذنها وقبابها (من رسم ديفيد روبرتس)

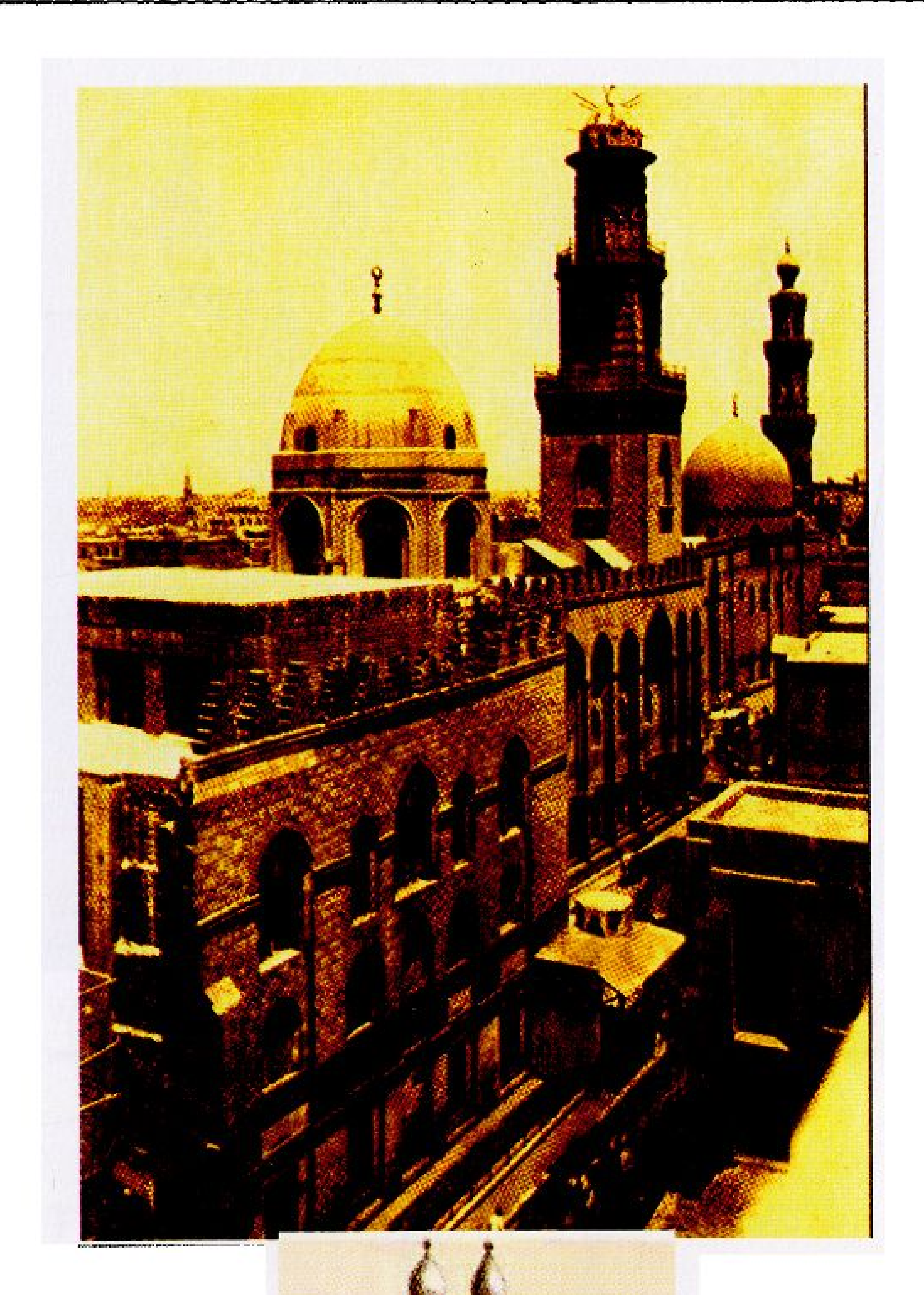


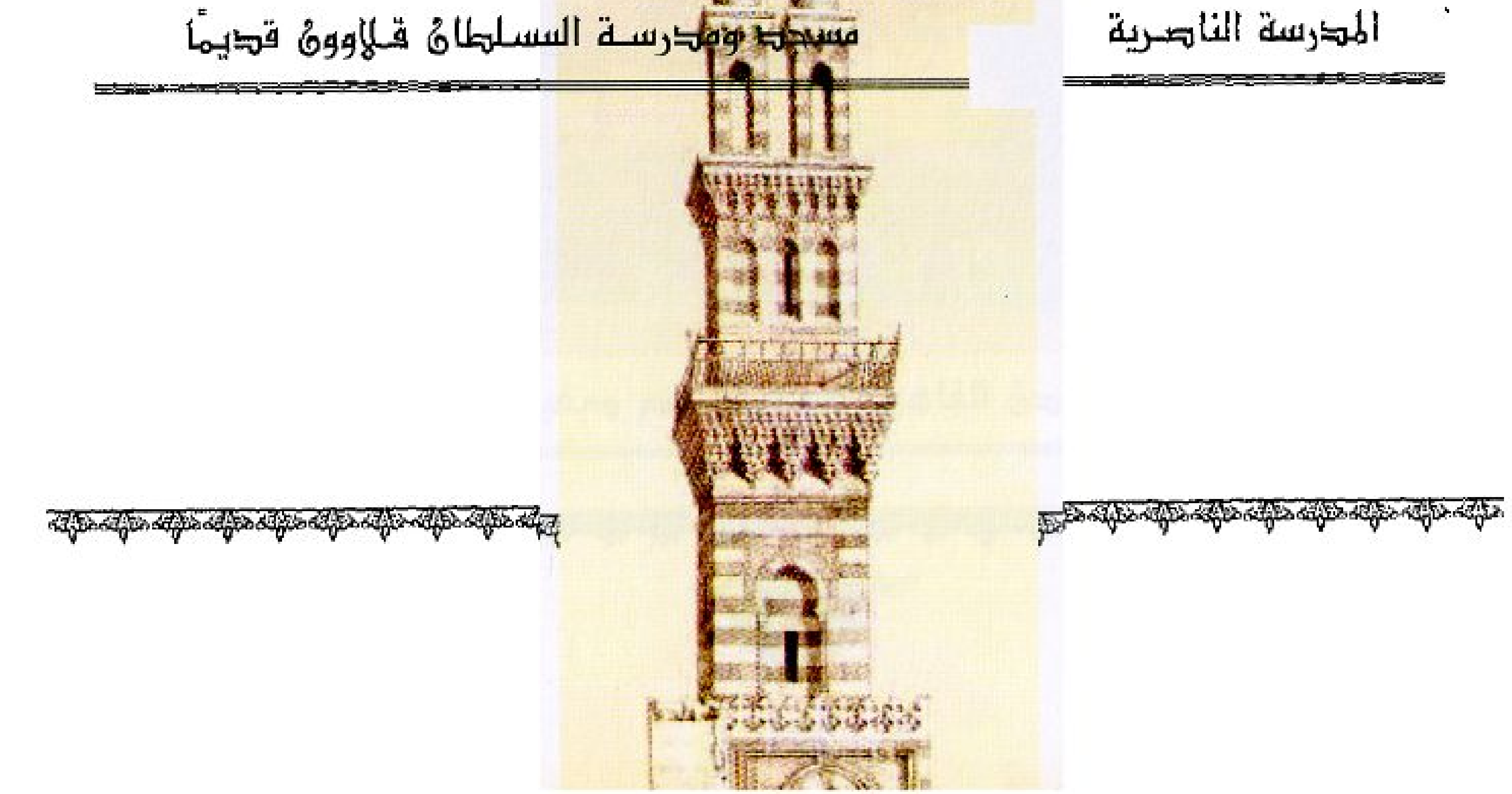
مساجد ومآذن القاهرة القديمة (رسم ديفيد روبرتس)





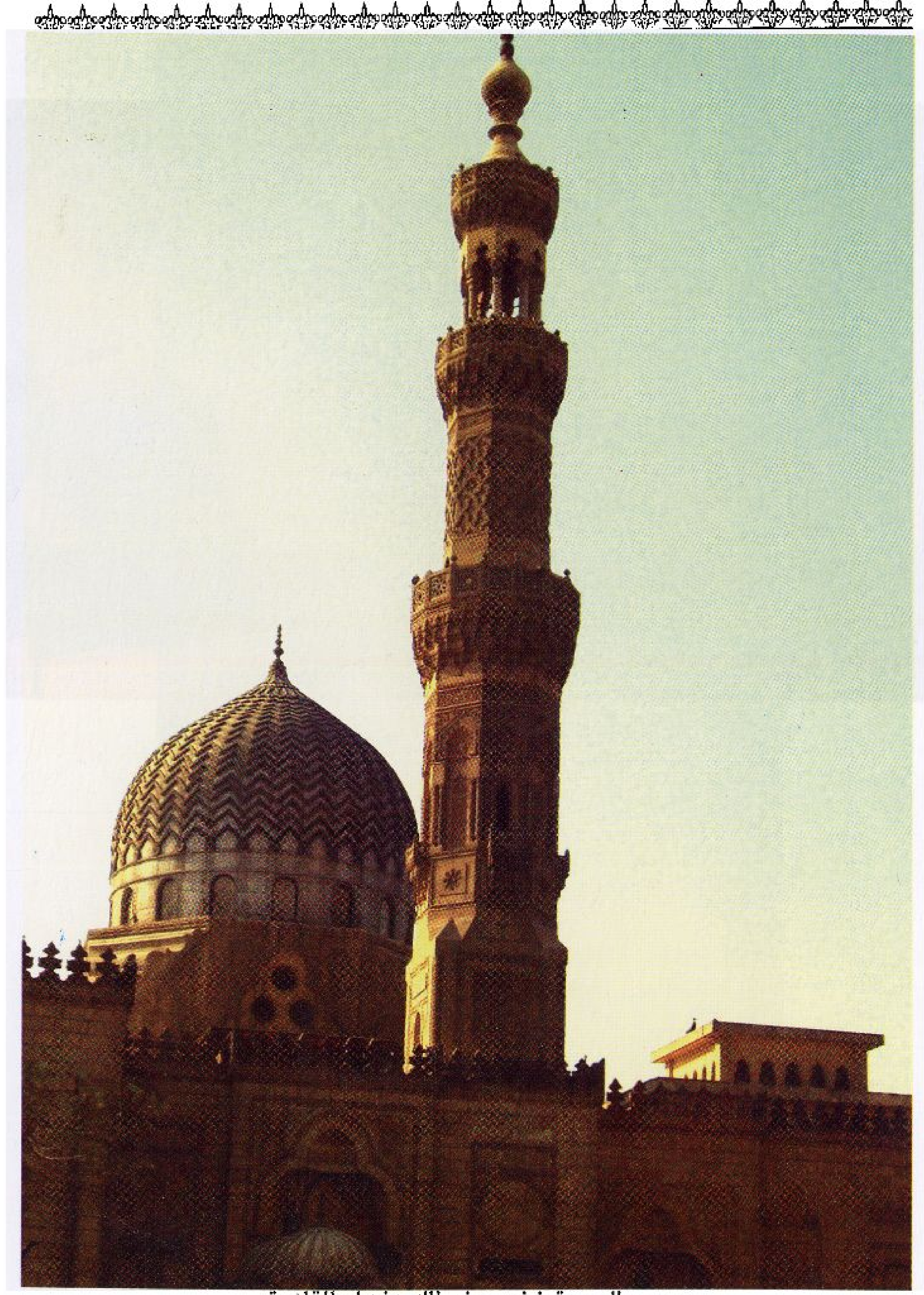
منائر القاهرة في القرن الثالث عشر الهجري



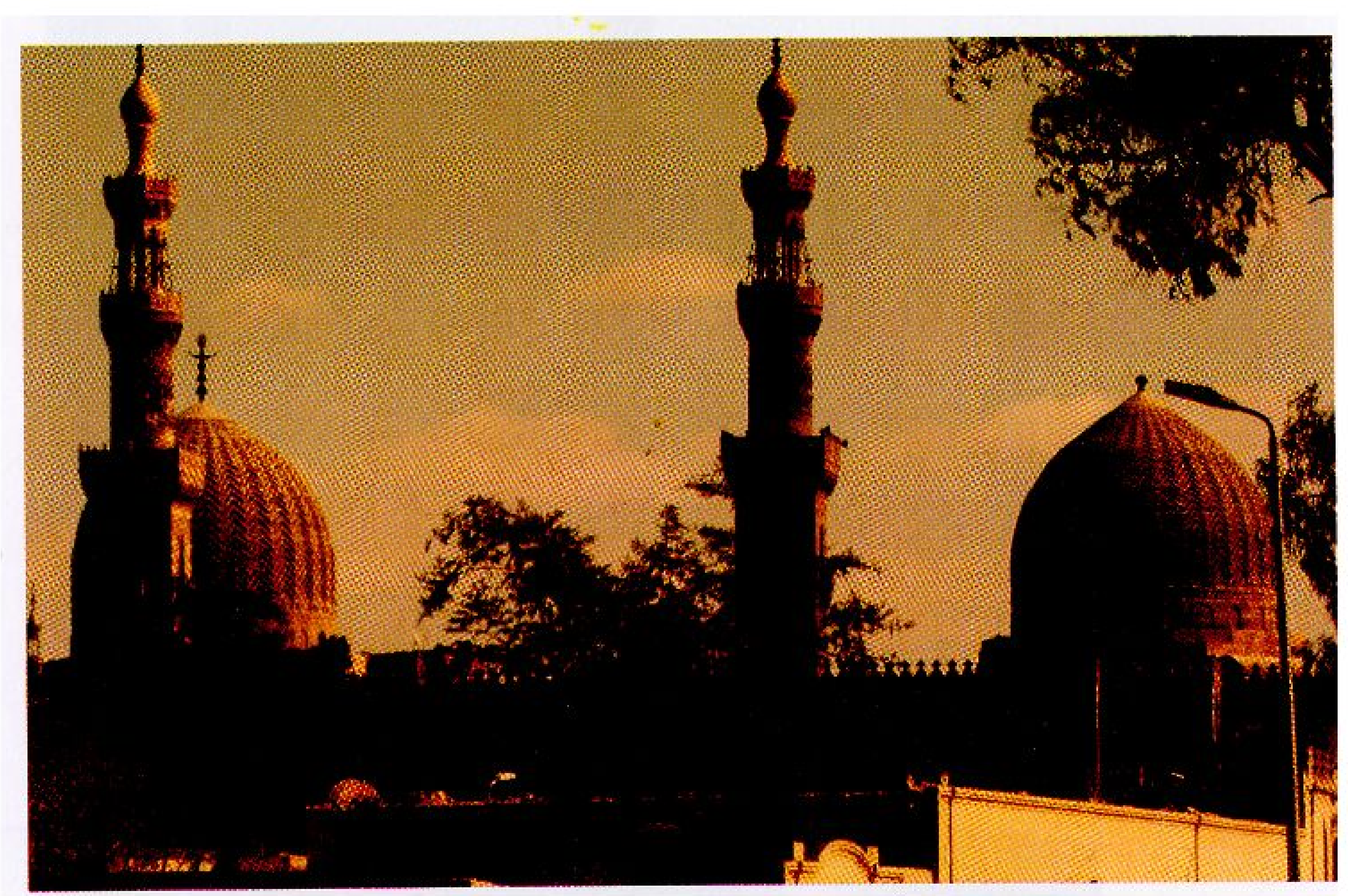


المدرسة الناصرية

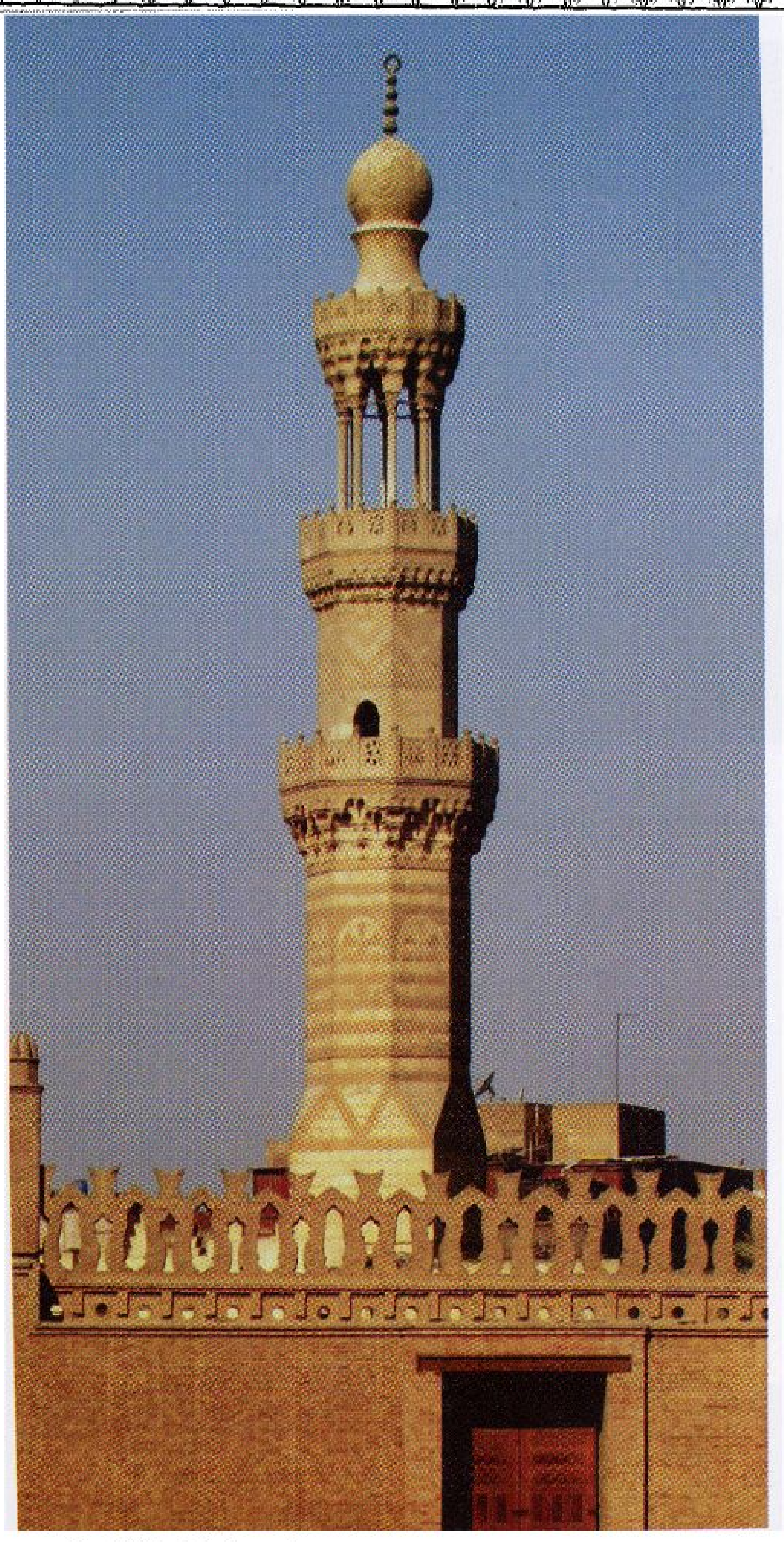
مسجد ومدرسة السلطان قلاوون قديماً



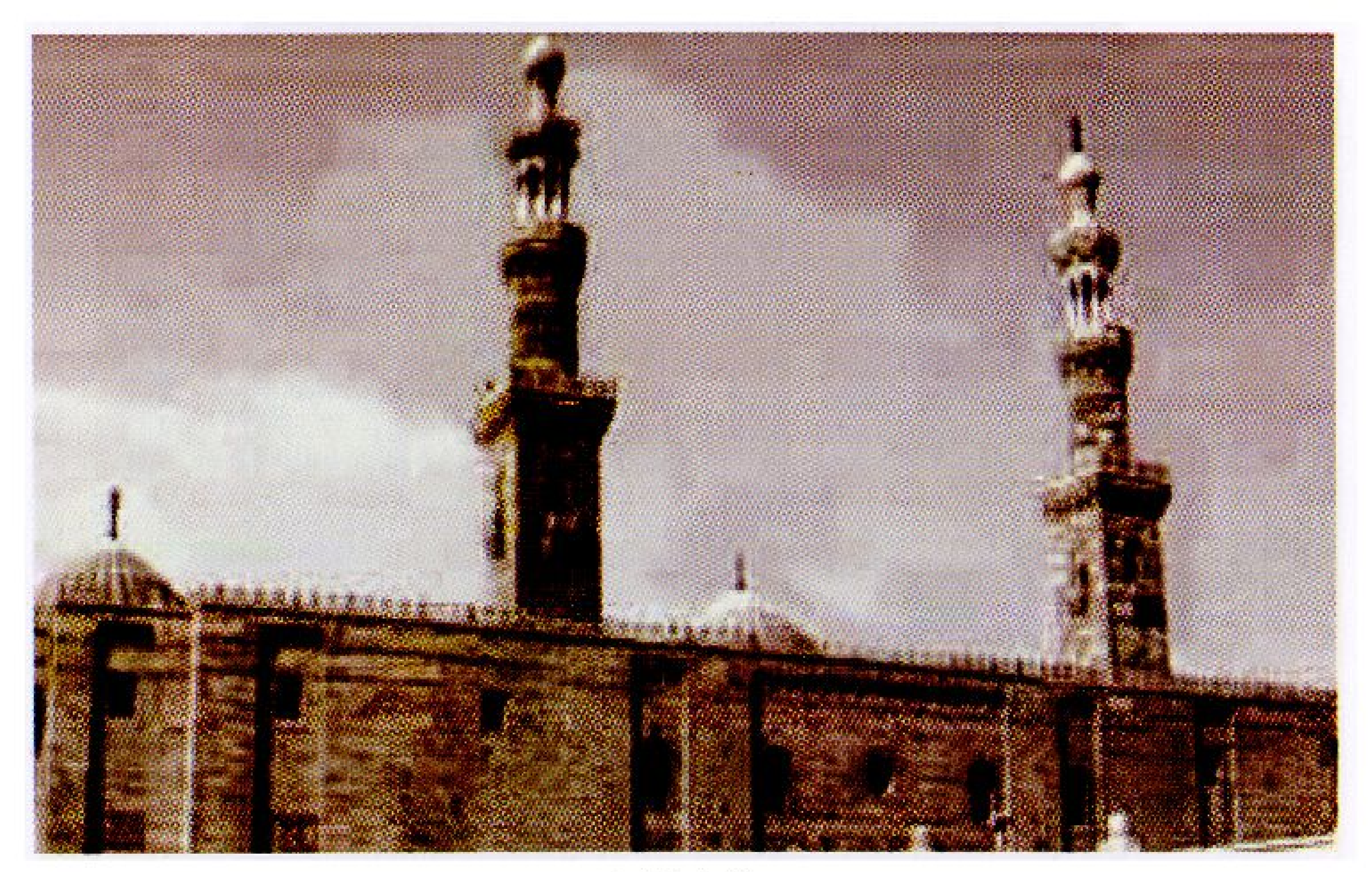
مسجد السيدة زينب رضي الله عنها بالقاهرة



مآذن مسجد السلطان برقوق بالقاهرة



منارة مسجد سرغاتميش الملاصق لمسجد ابن طولون بالقاهرة



مسجد السلطان فرج

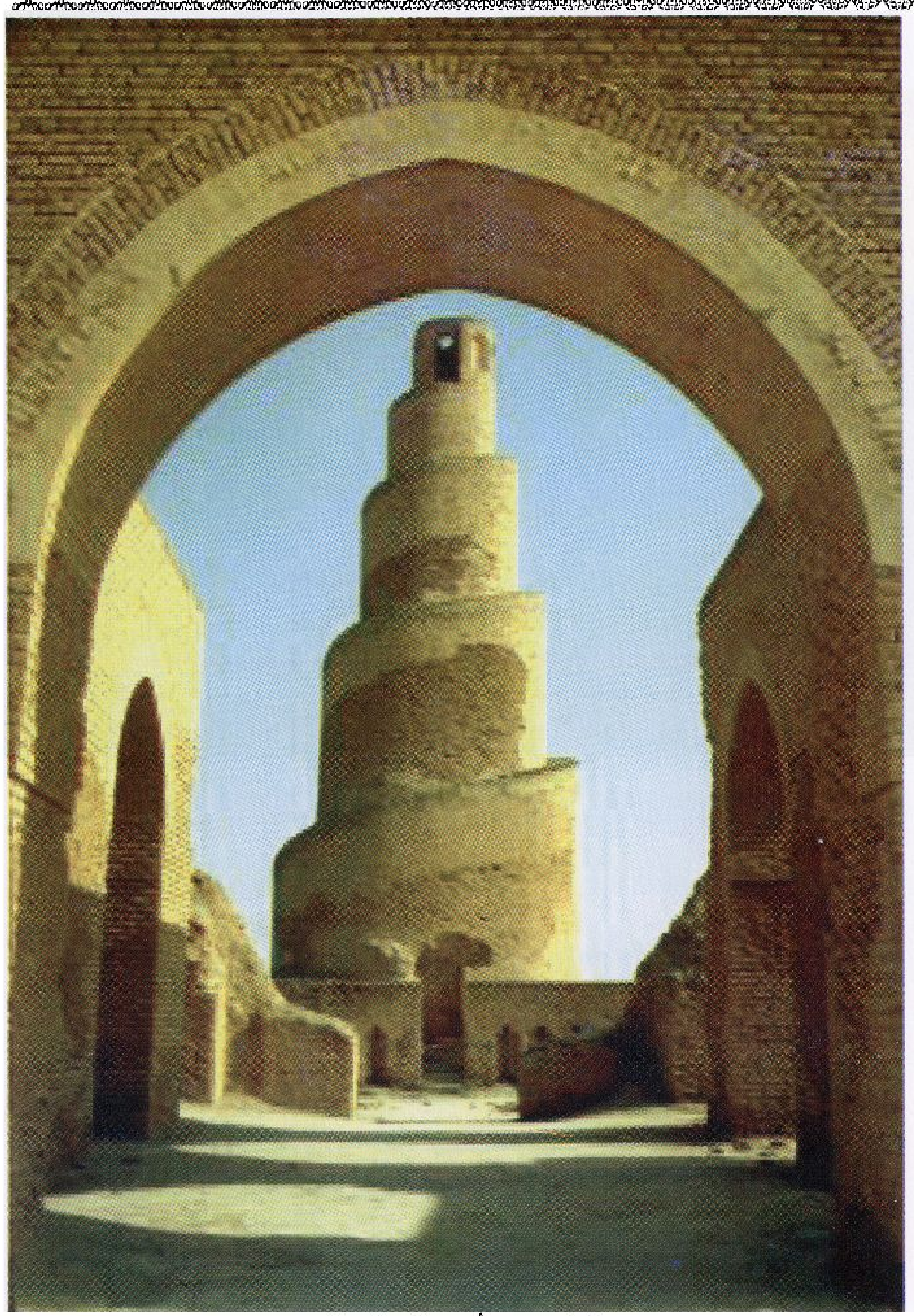
منارات المساجد ذات الطراز المملوكي بالقاهره

٥- المآذن الملْويّة:

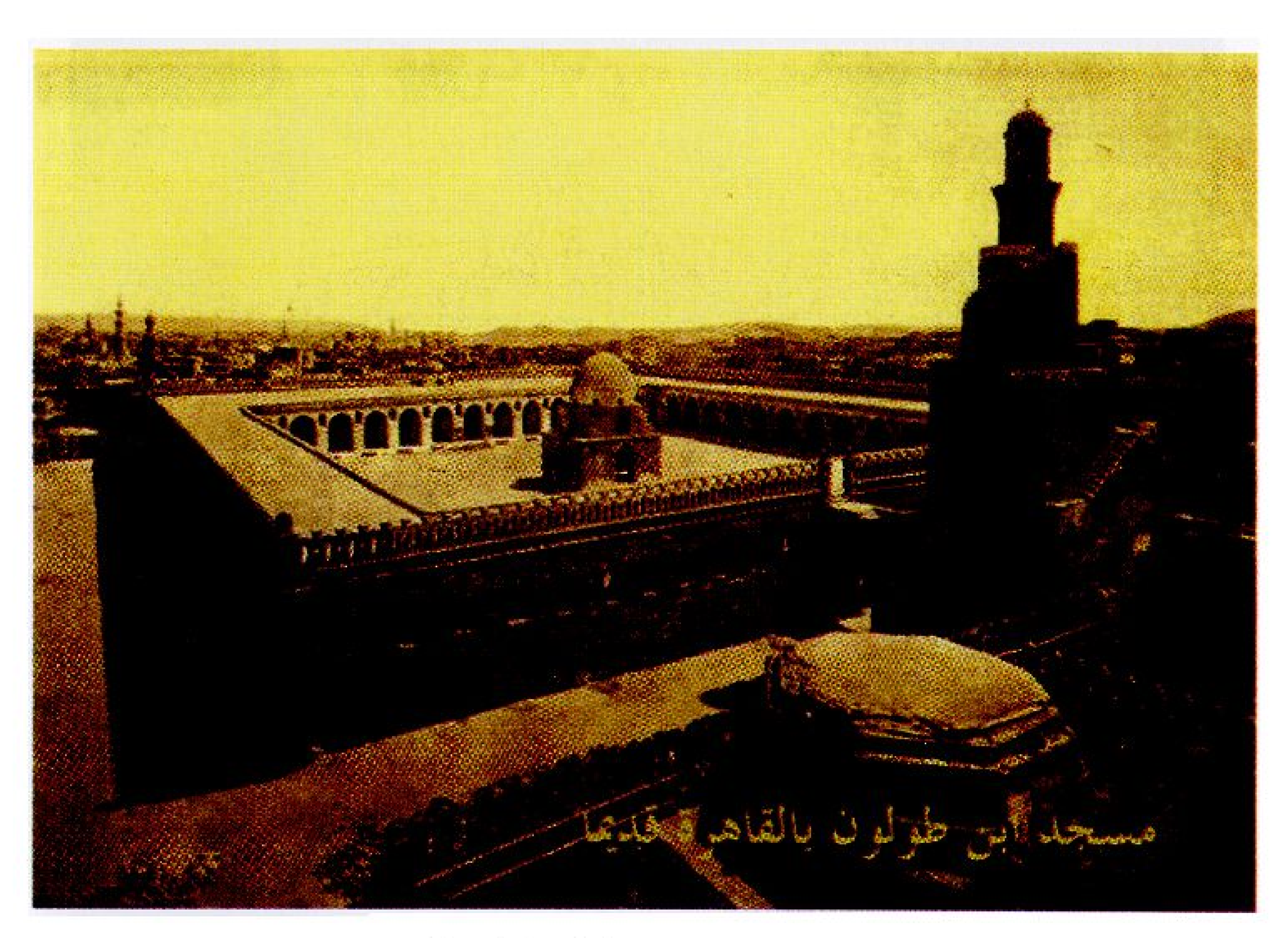
هذه المآذن نادرة الوجود، فالمعروف منها اليوم لا يزيد عن أربعة، منها اثنتان في سامراء بالعراق من بناء الخليفة العباسي المتوكل، وواحدة بمسجد ابن طولون بالقاهرة، والرابعة في التوسعة الأخيرة لمسجد ميقات ذي الحليفة بالمدينة المنورة. وكلها تشترك في أن السلم خارجي، وأنها عريضة من ناحية القاعدة، وتقل قطرا كلما ارتفعت، بحيث تكون القاعدة سميكة والقمة رقيقة، فيرتفع الذي يرتقي الدرج من الكثافة إلى اللطافة، ومن مجاورة الأرض إلى مجاورة السماء، ففيها بلا شك نفس معاني المعراج التي ترى في غيرها.

منذنة مسجد المتوكل بسامراء العراق

مئذنة مسجد المتوكل بسامراء العراق

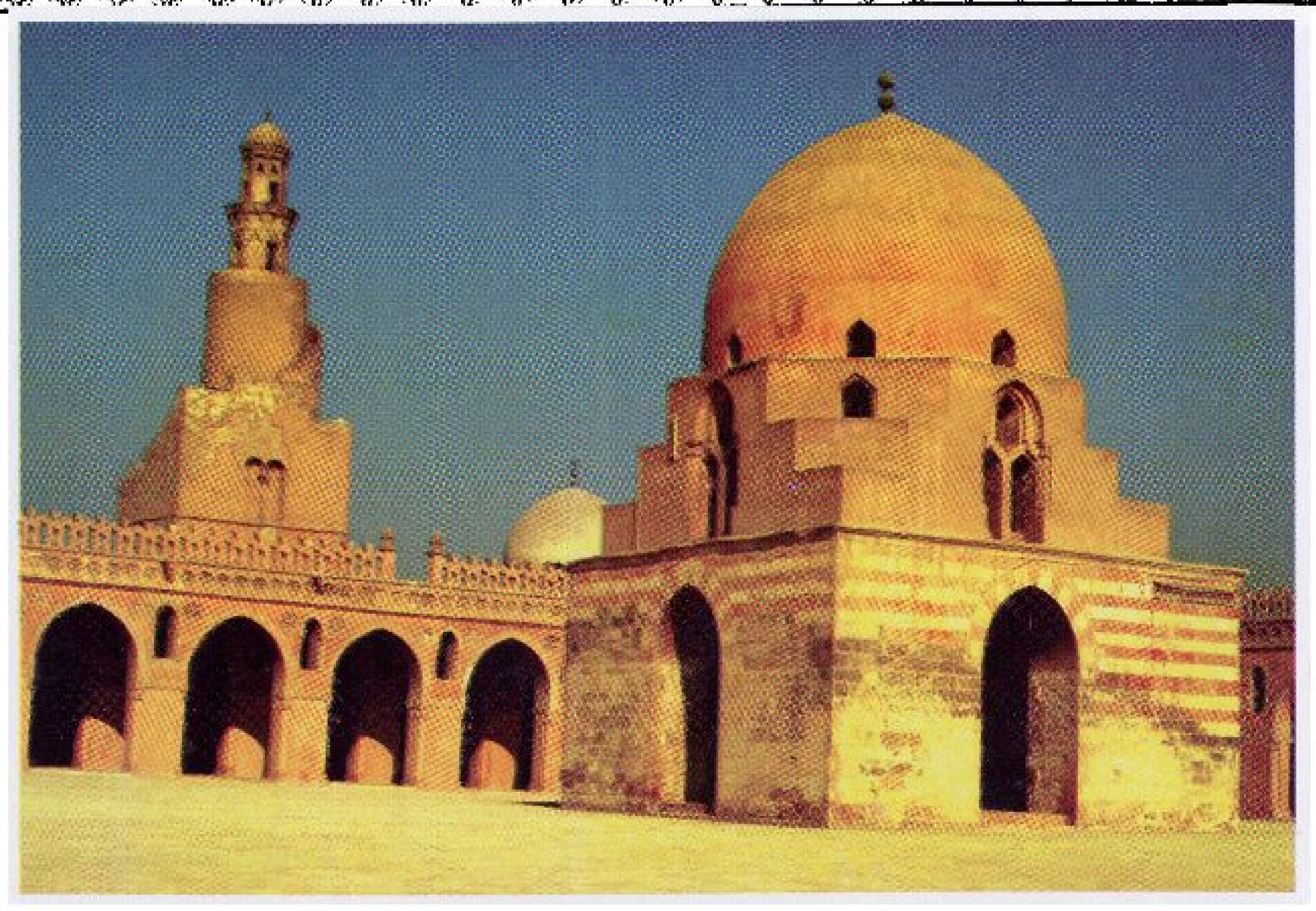


منارة مسجد أبو دلف بالعراق

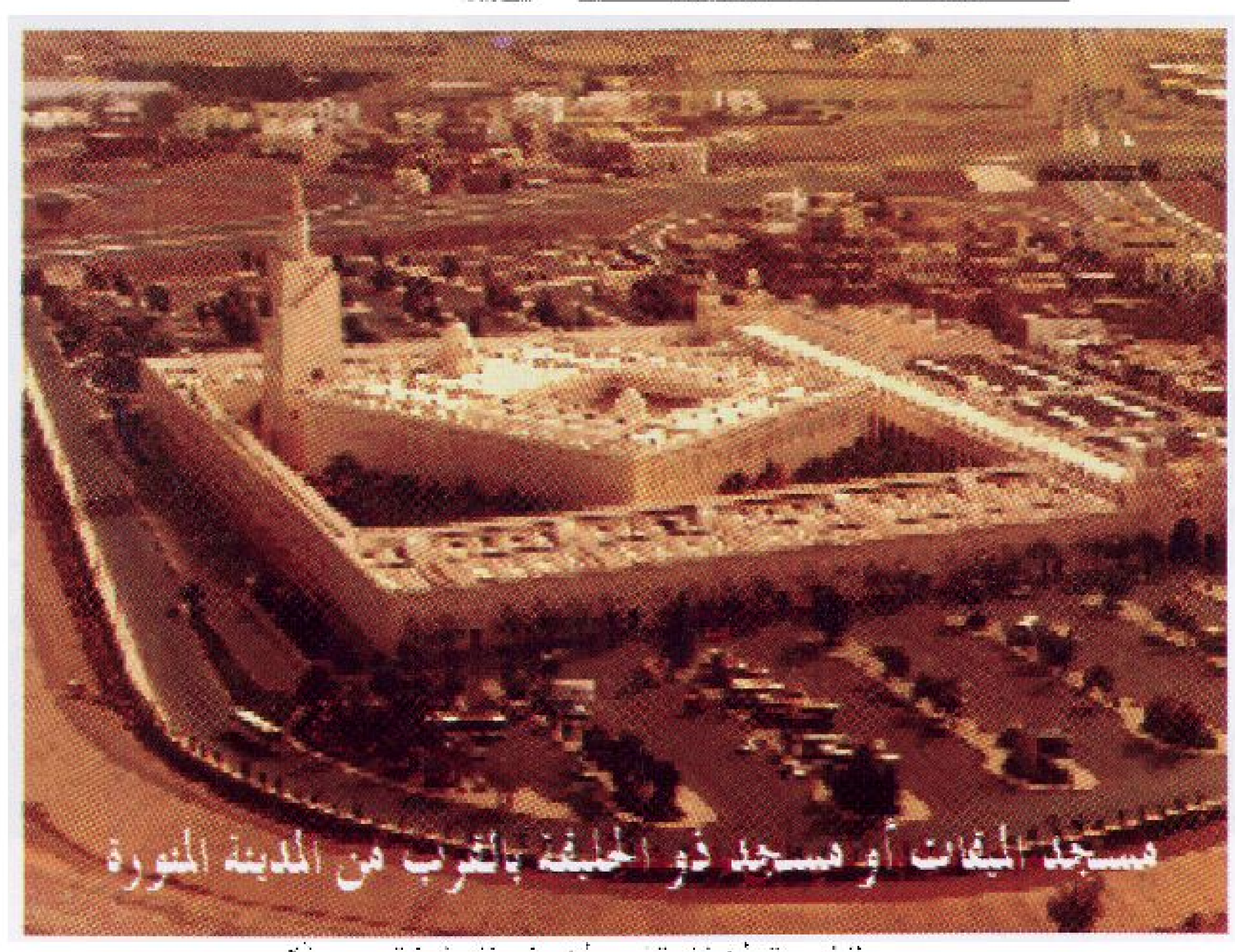


مسجد ابن طولون بالقاهرة قديماً

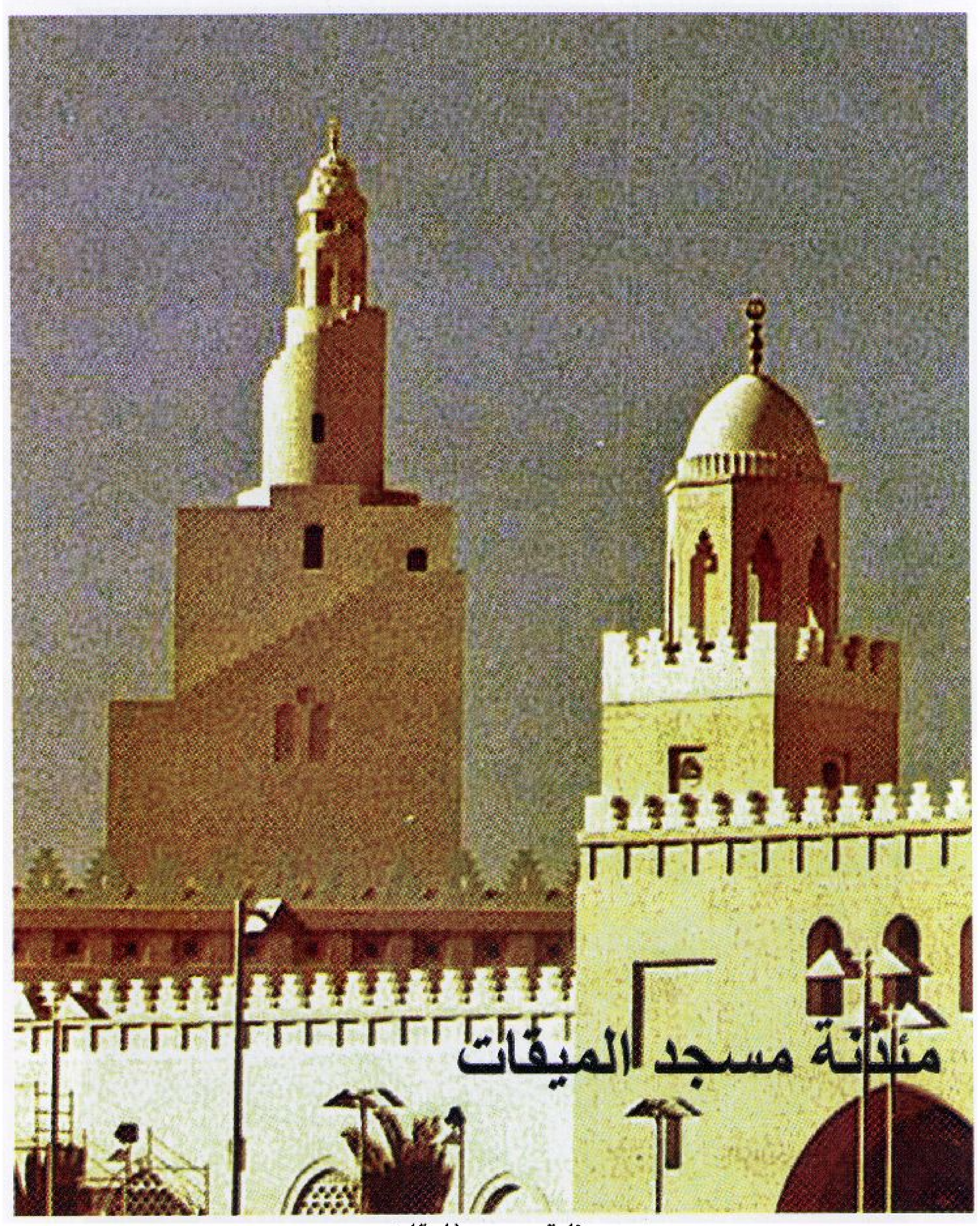




منارات مسجد ابن طولون بالقاهرة



مسجد الشجرة أو الميقات أو ذو الحليفة حديثًا



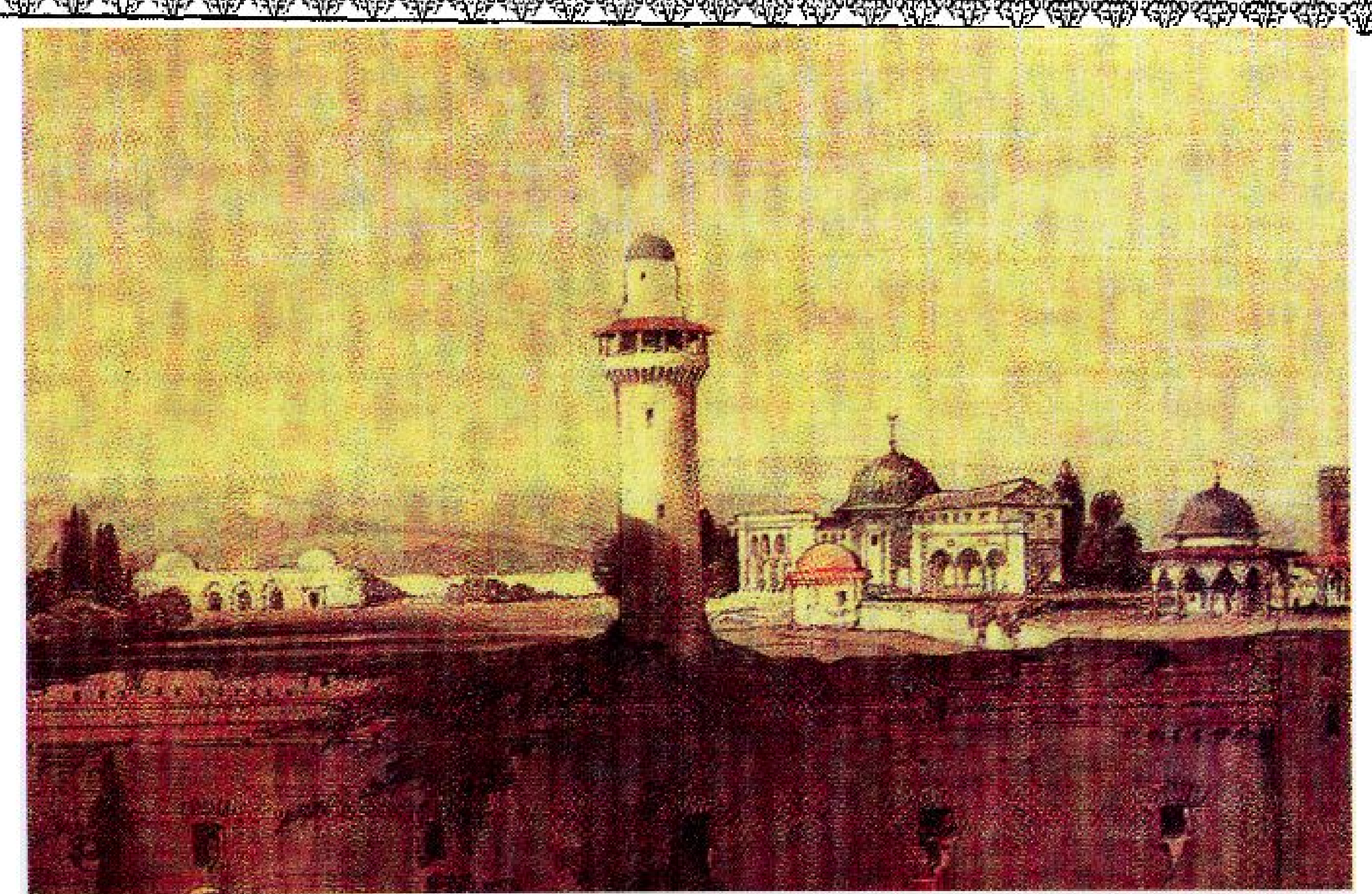
منارة مسجد الميقات

٦- بعض مساجد فلسطين قديماً وحديثاً:

الكثير من مساجد فلسطين، وسورية، والعراق، وإيران لها شرفة واحدة يعتليها المؤذن، فوقها مظلة تحملها أعمدة من الخشب أو من مادة أخرى؛ فكأن المئذنة مقسمة إلى ما هو فوق، وما هو تحت الشرفة، بينما الجزء الثالث هو مجموع الشرفة والمظلة والأعمدة.



مسجد الخليل «رسم إدوارد لير»



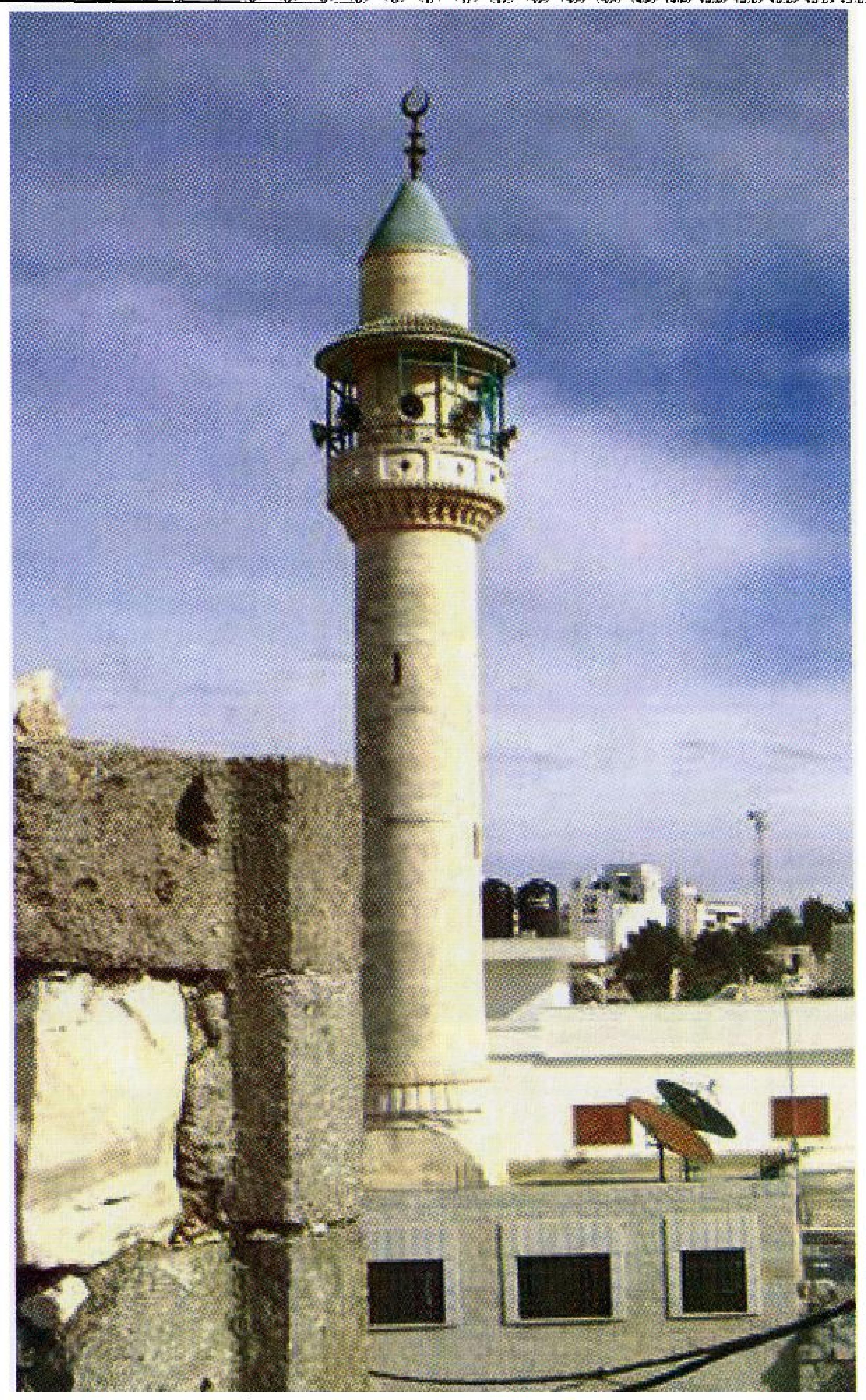
مسجد عمر بالقدس قديماً «رسم إدوارد لير»



مدينة نابلس قديماً

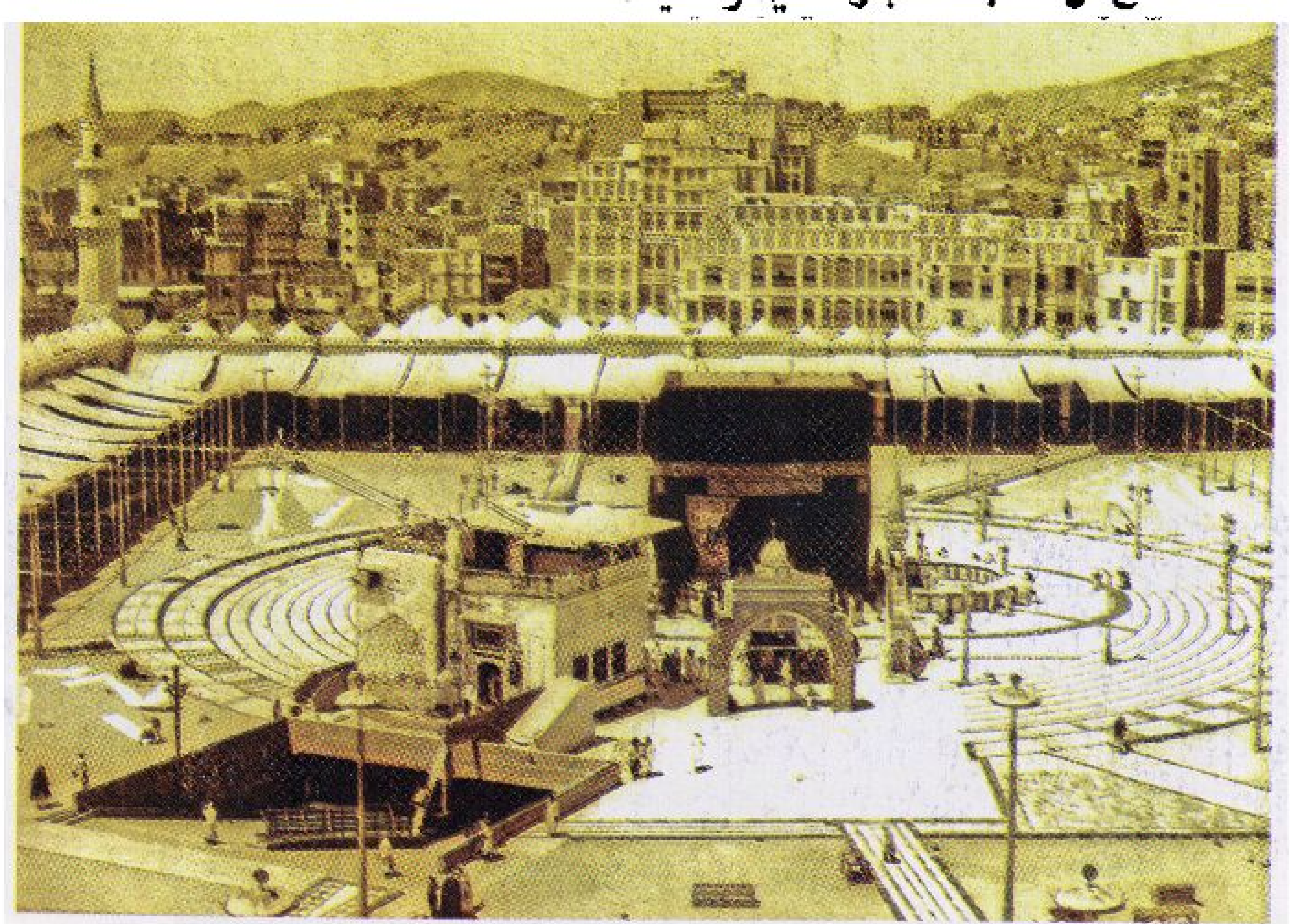


مئذنة مسجد الناصر بنابلس - فلسطين

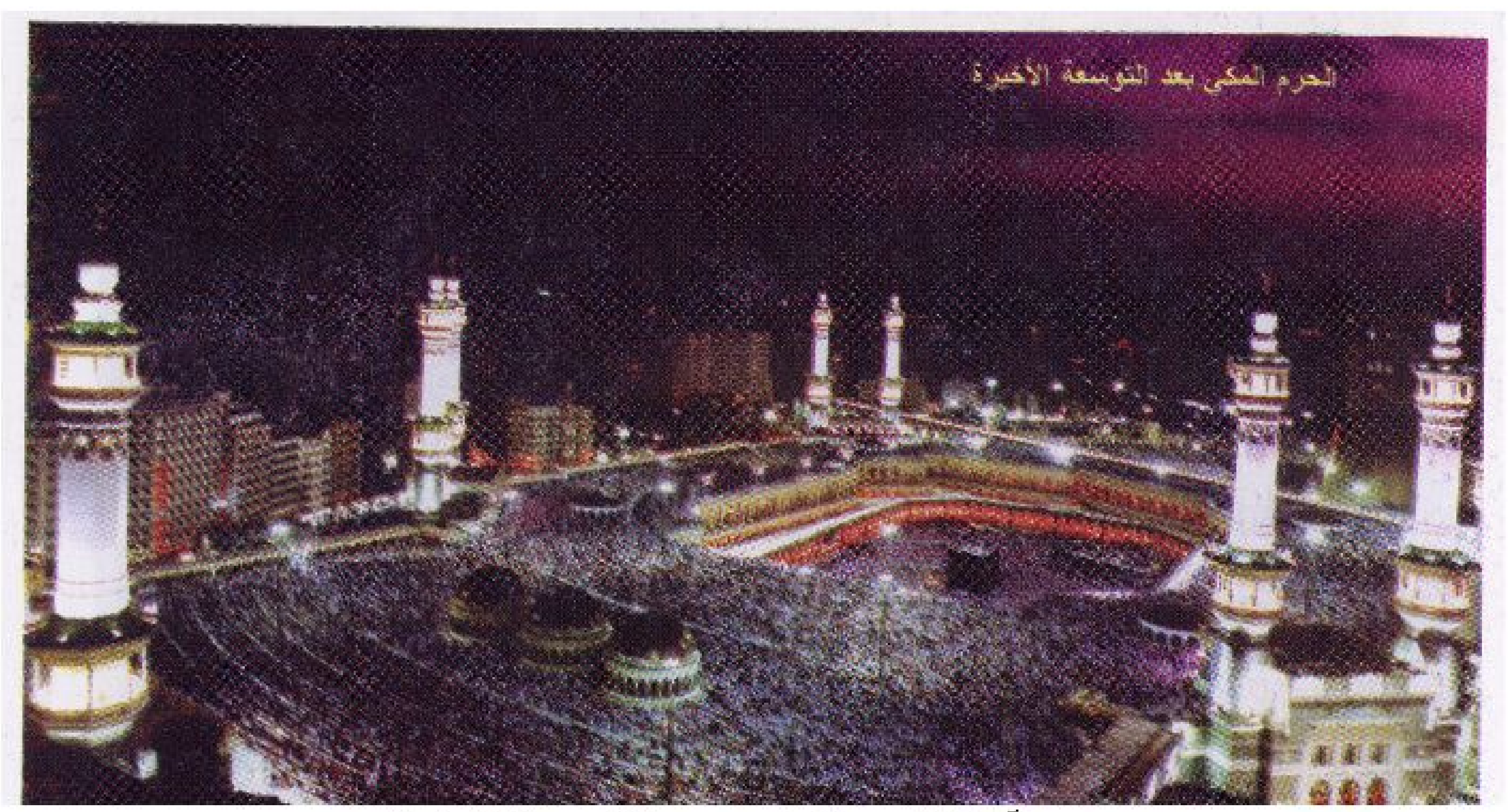


مئذنة مسجد برام الله - فلسطين

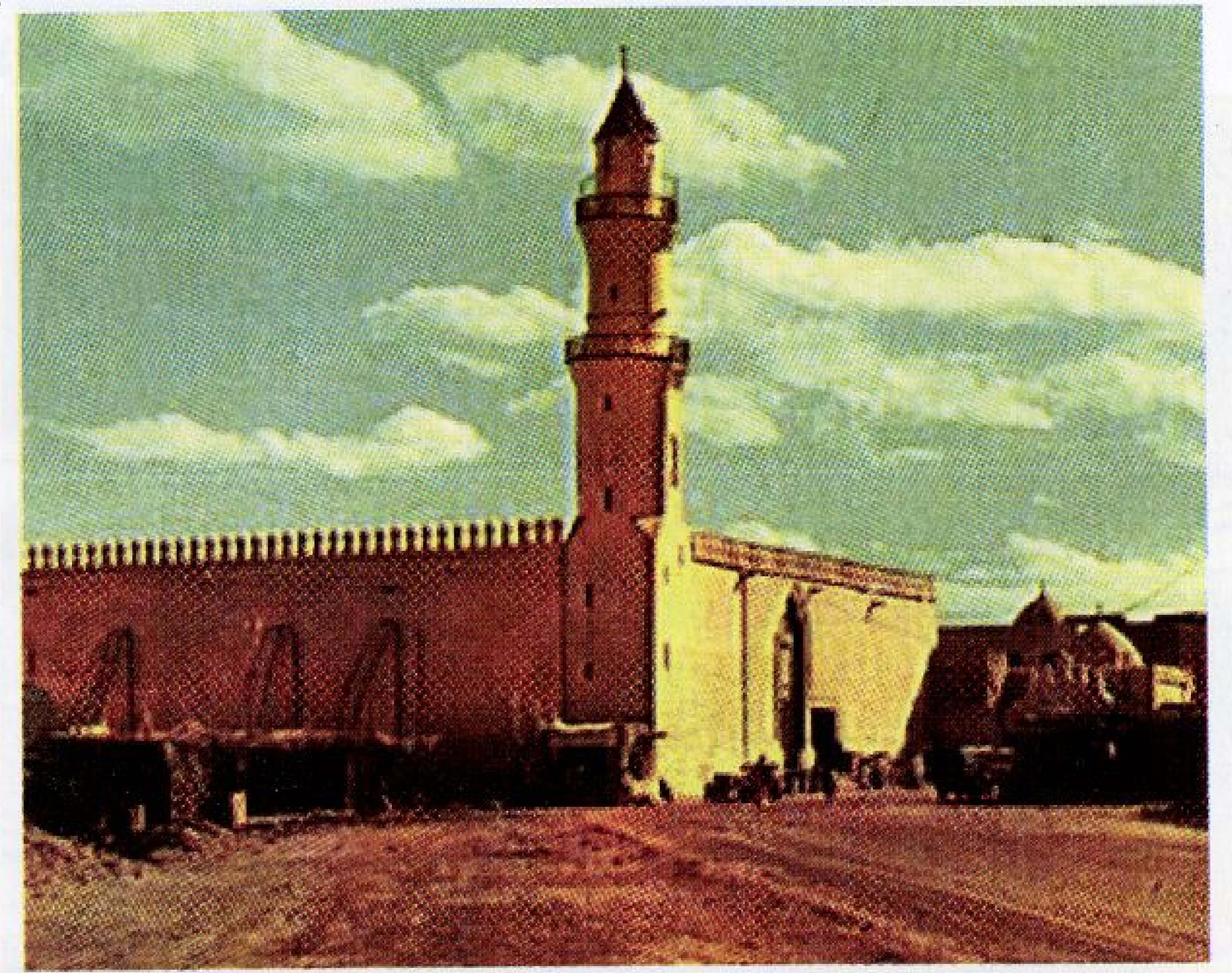
٧- نماذج من مساجد الحجاز، قديماً وحديثاً:



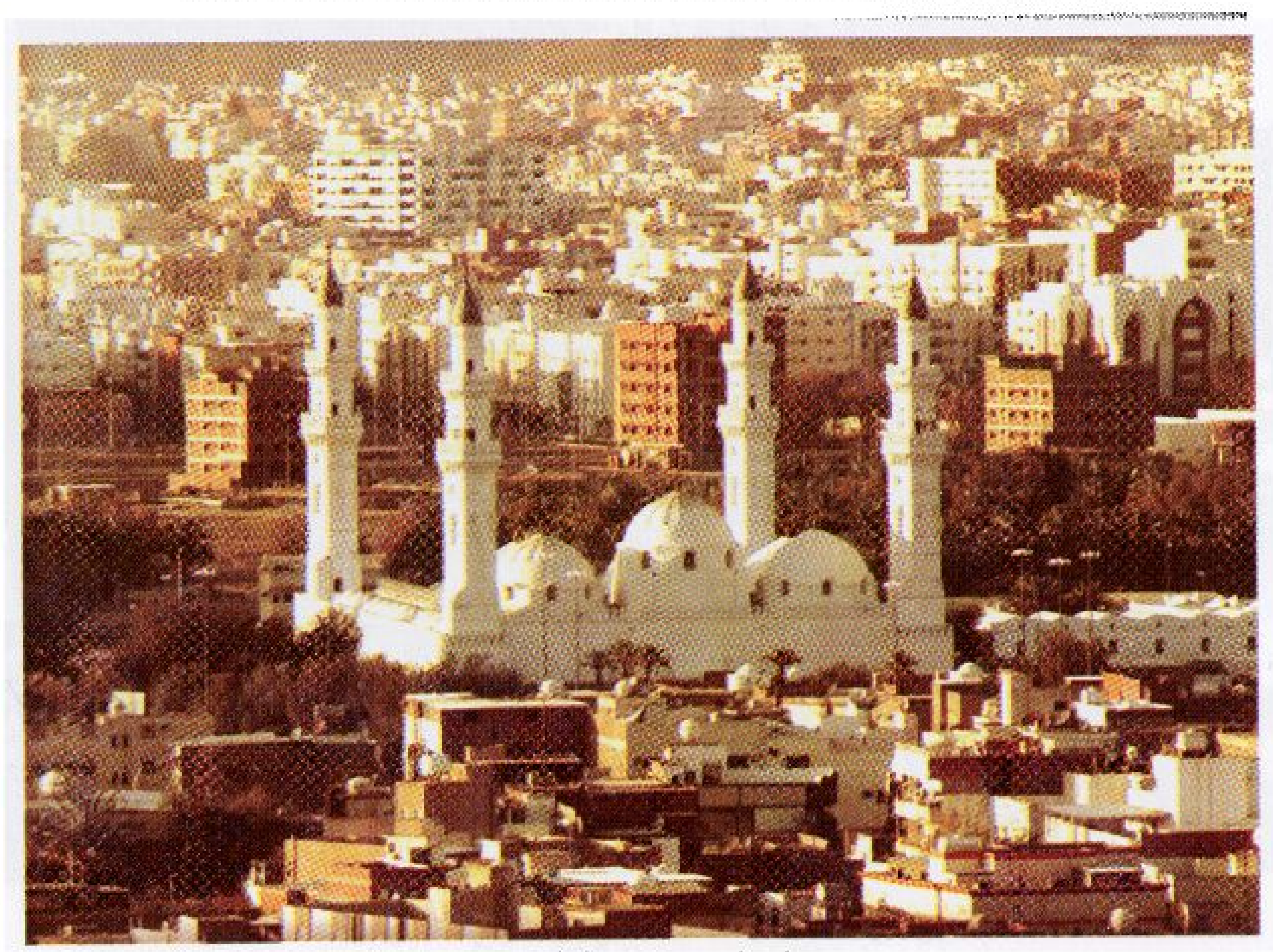
الحرم المكي والكعبة قديما



مآذن الحرم المكي بعد التوسعة الأخيرة



مسجد قباء القديم ببنائه العثماني



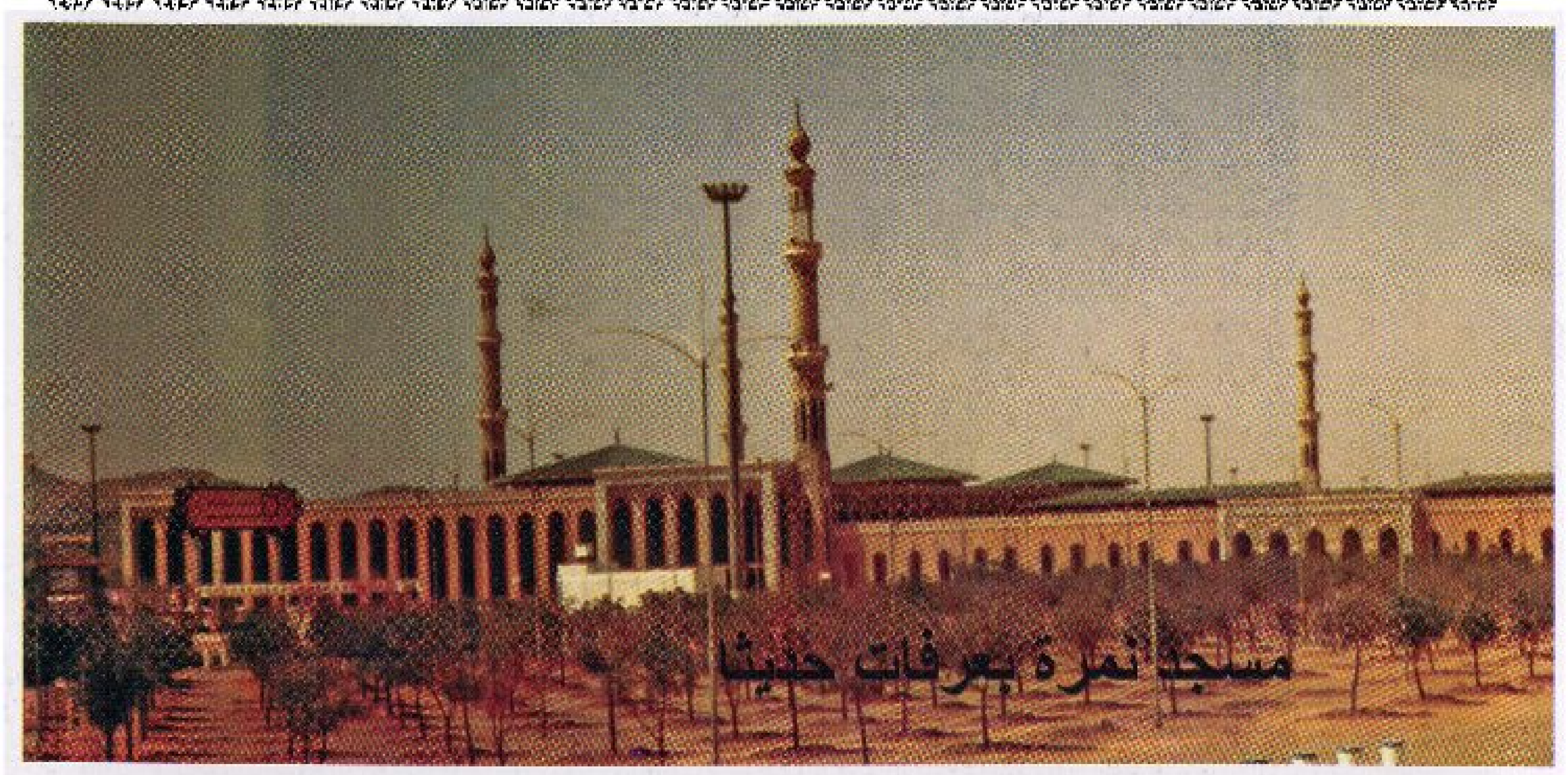
مآذن مسجد قباء



مسجد القبلتين بالمدينة المنورة (حديثًا)

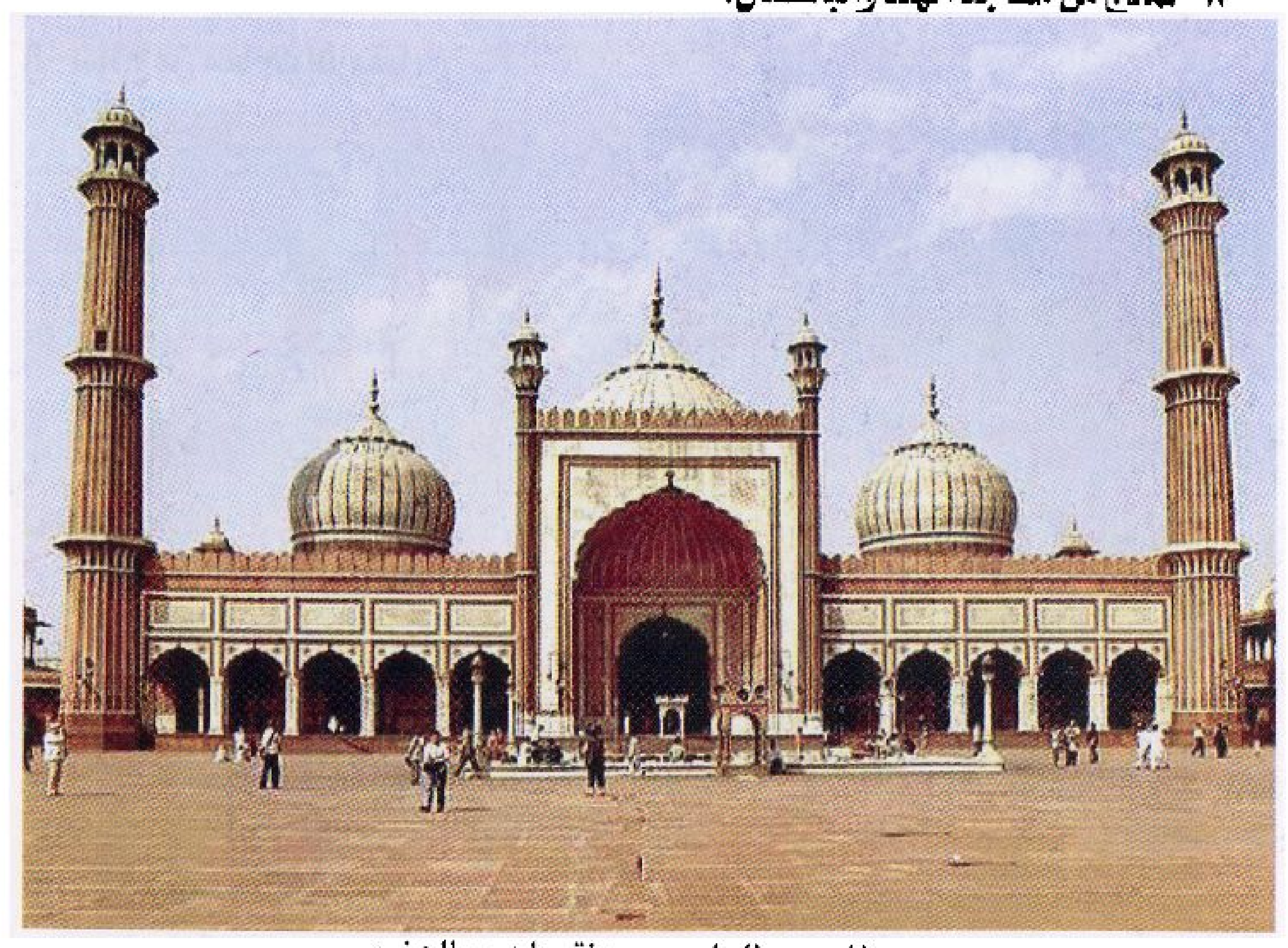


مسجد العريش بدر

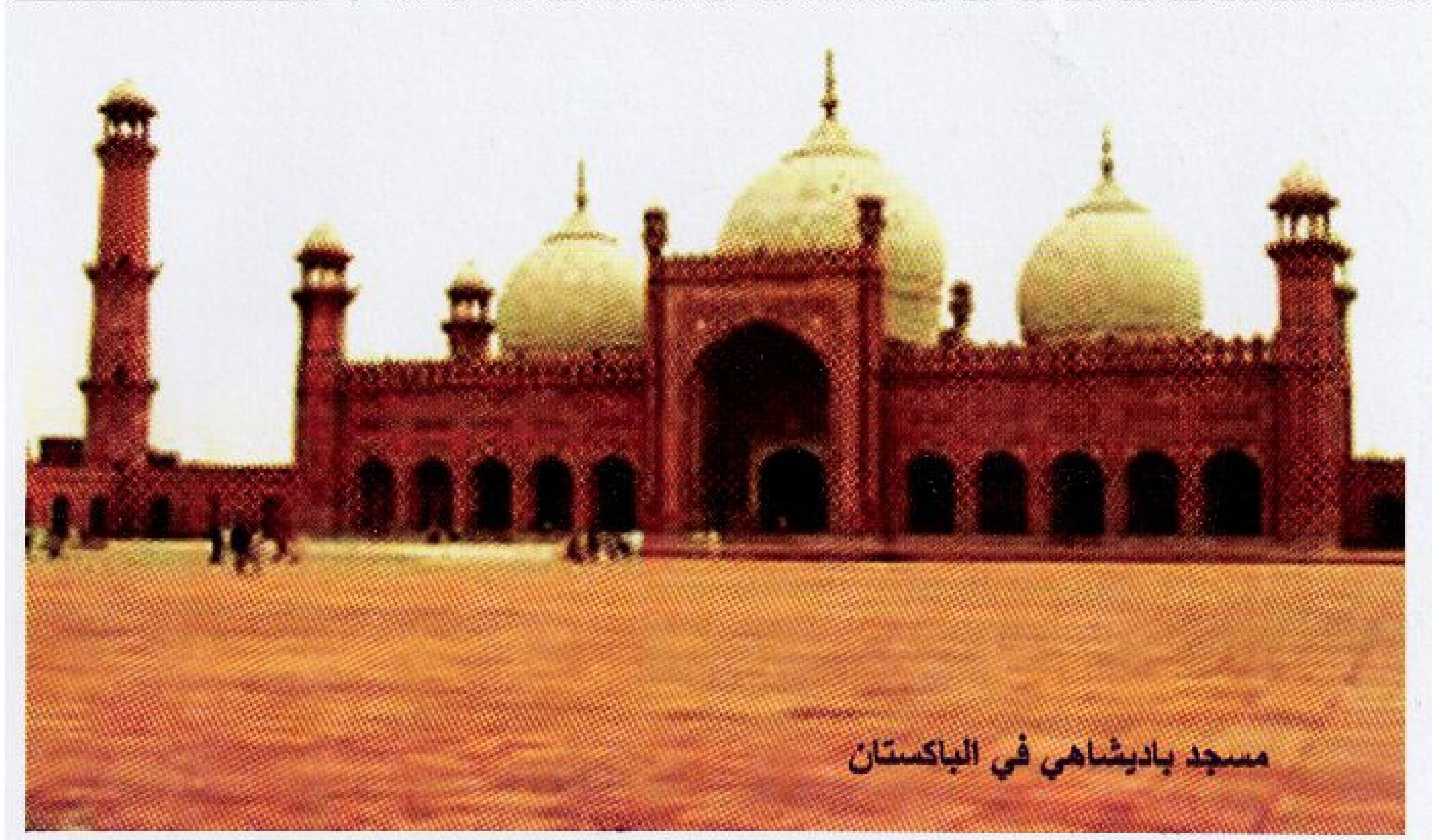


مسجد نَمِرَة بعرفات (حديثًا)

٨- نماذج من مساجد الهند والباكستان:

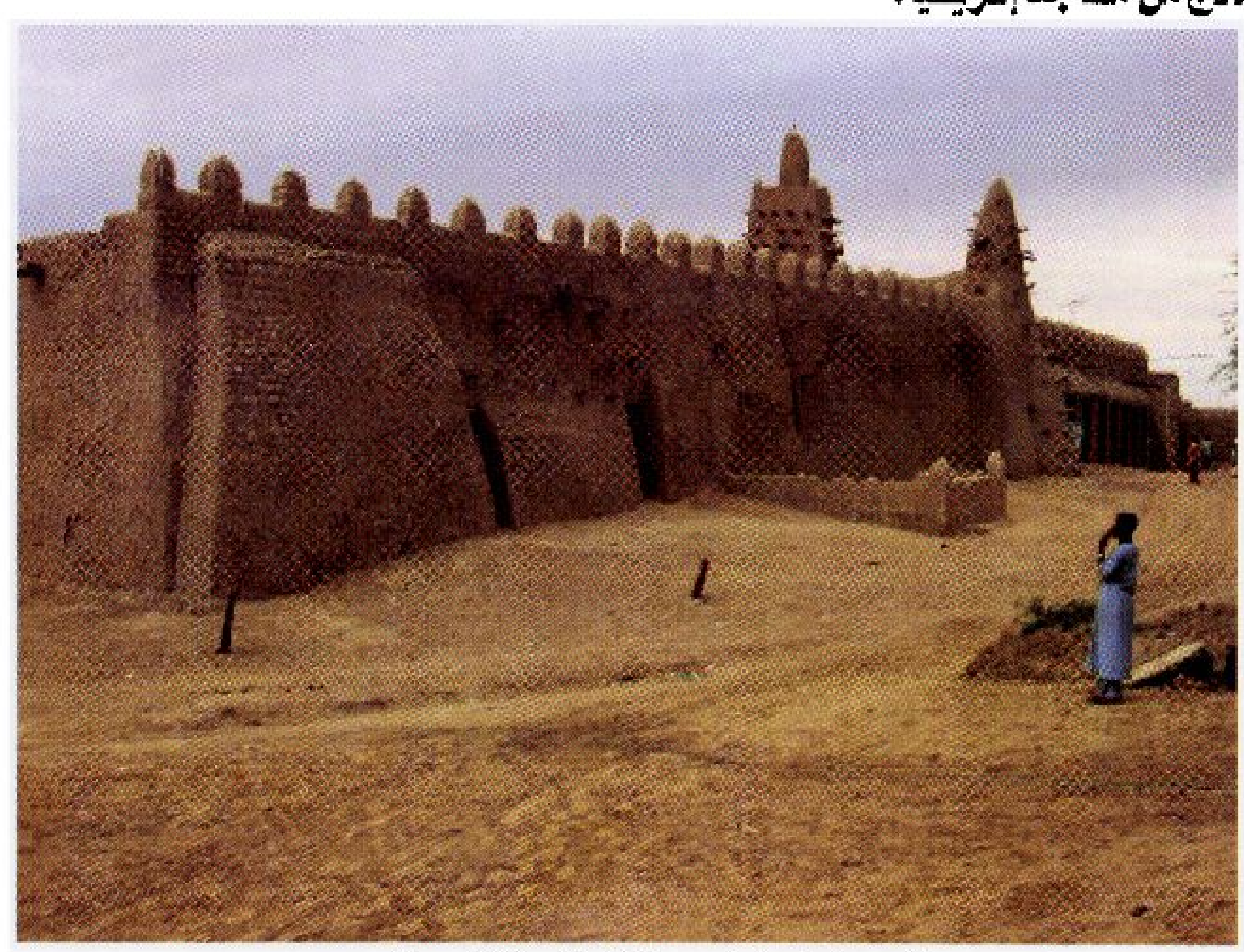


المسجد الجامع بمدينة دلهي بالهند

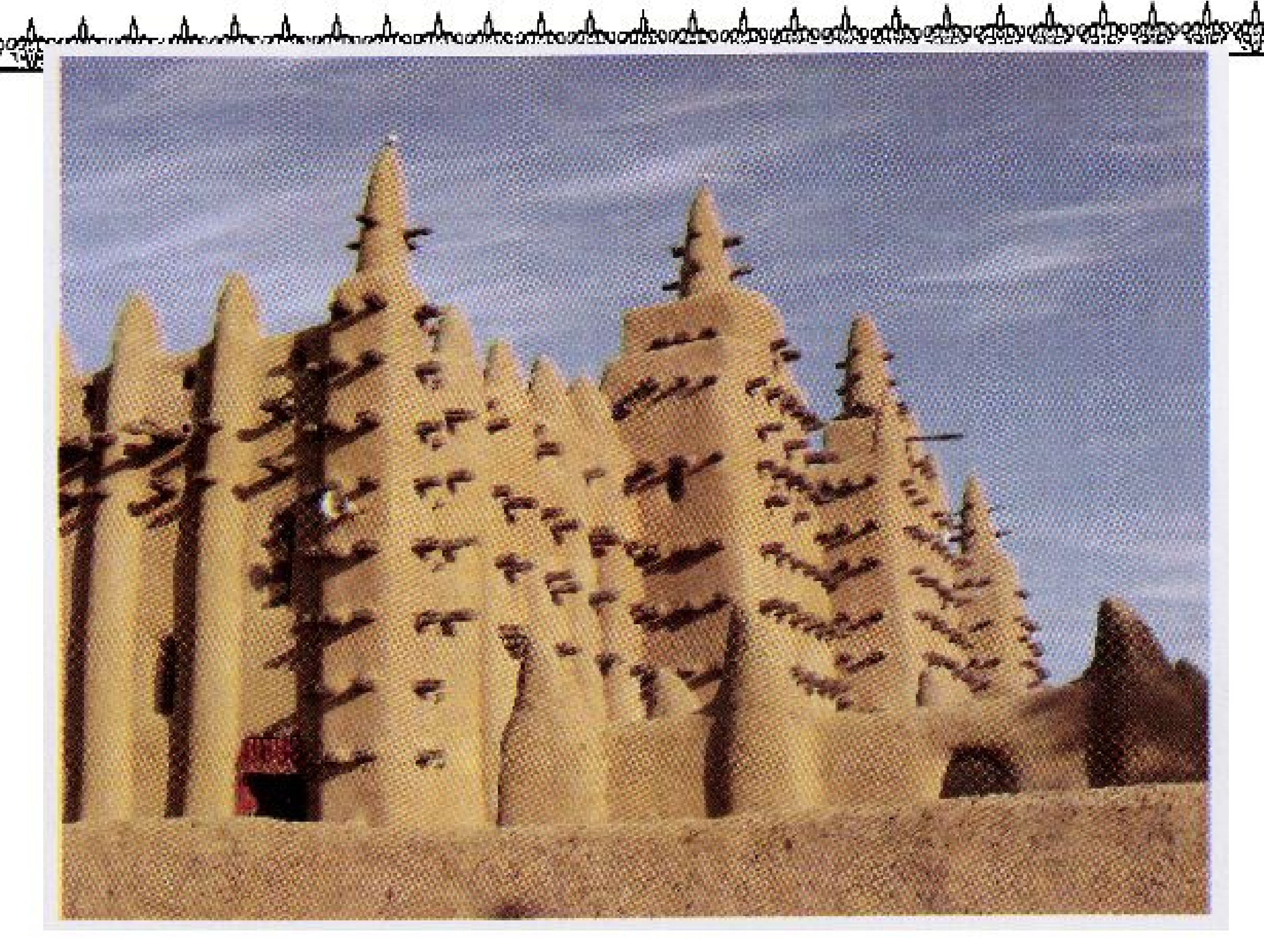


مسجد باديشاهي بالباكستان

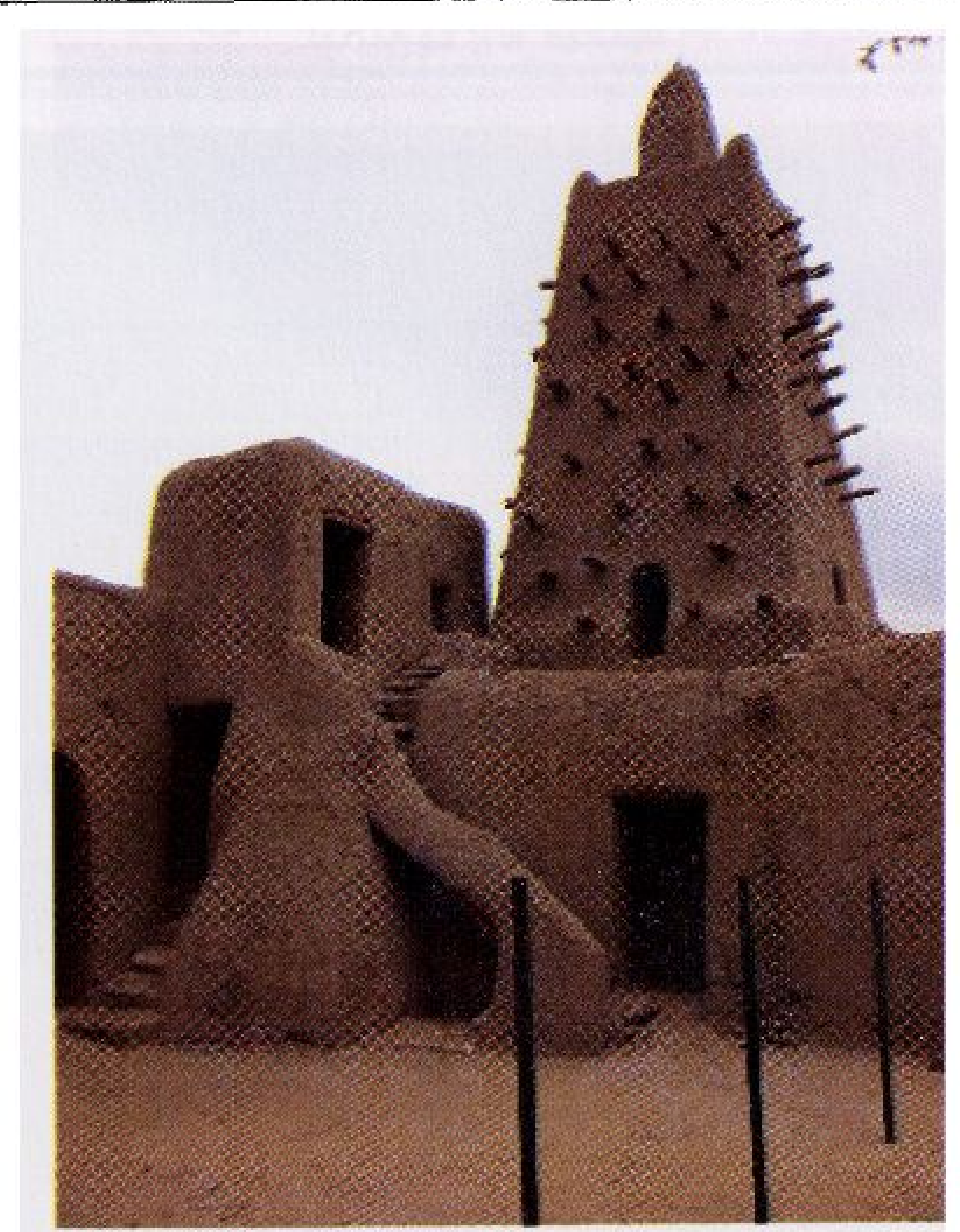
٩- نماذج من مساجد إفريقيا:



المسجد الجامع بمدينة (تمبكتو) بمالي

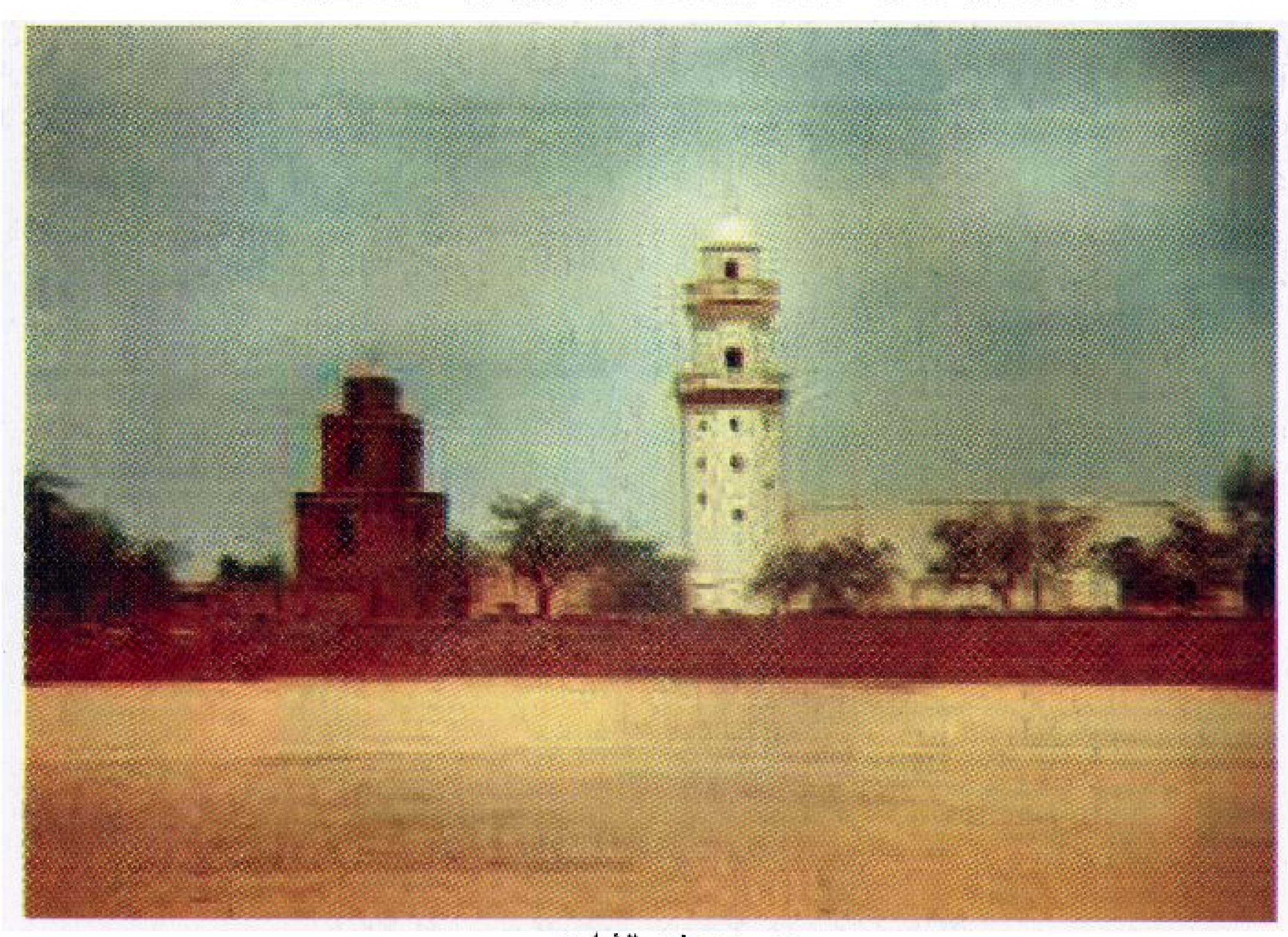


المسجد الجامع بمدينة (جنة) بمالي

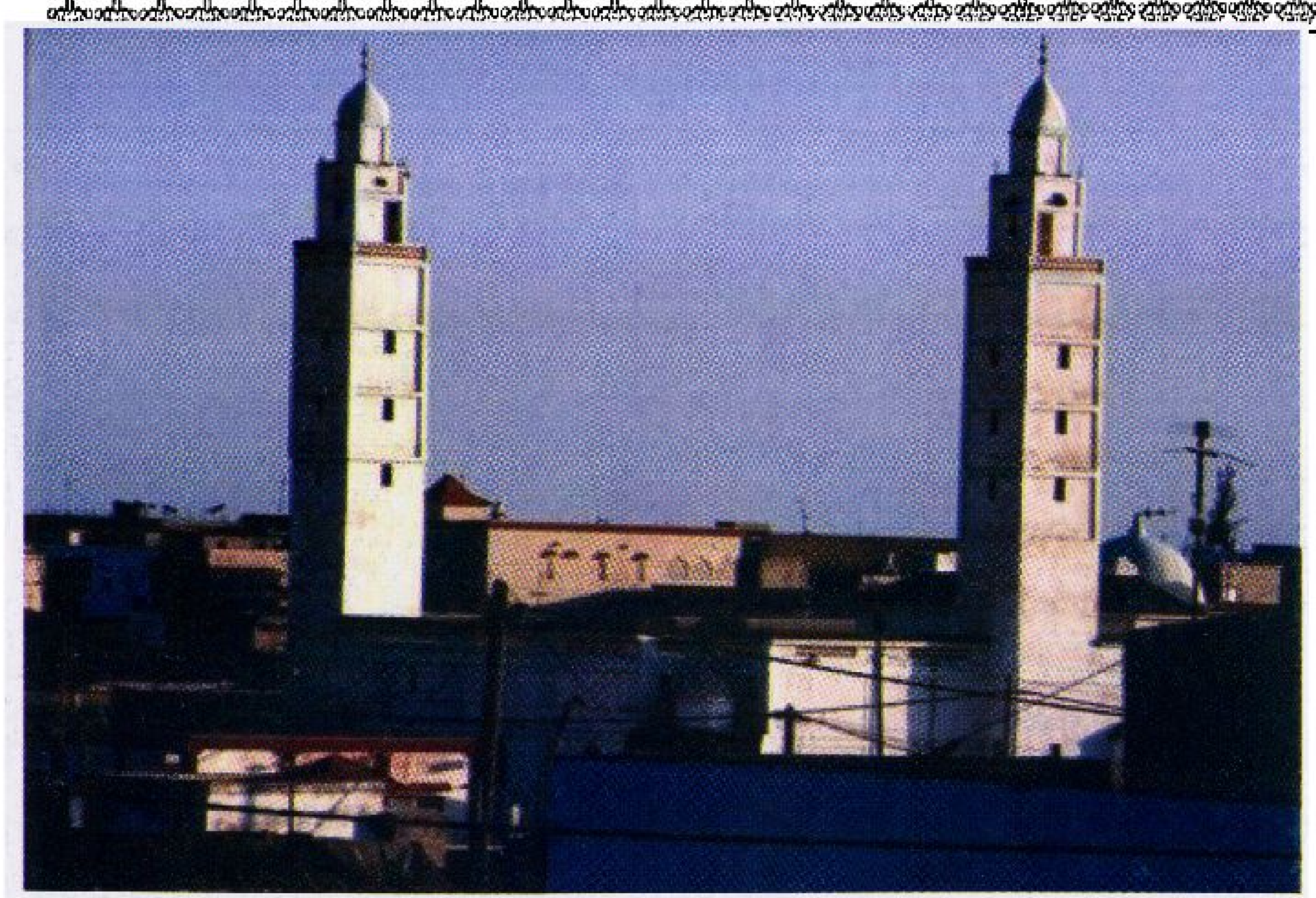


مئذنة المسجد الجامع بمدينة (تمبكتو) بمالي

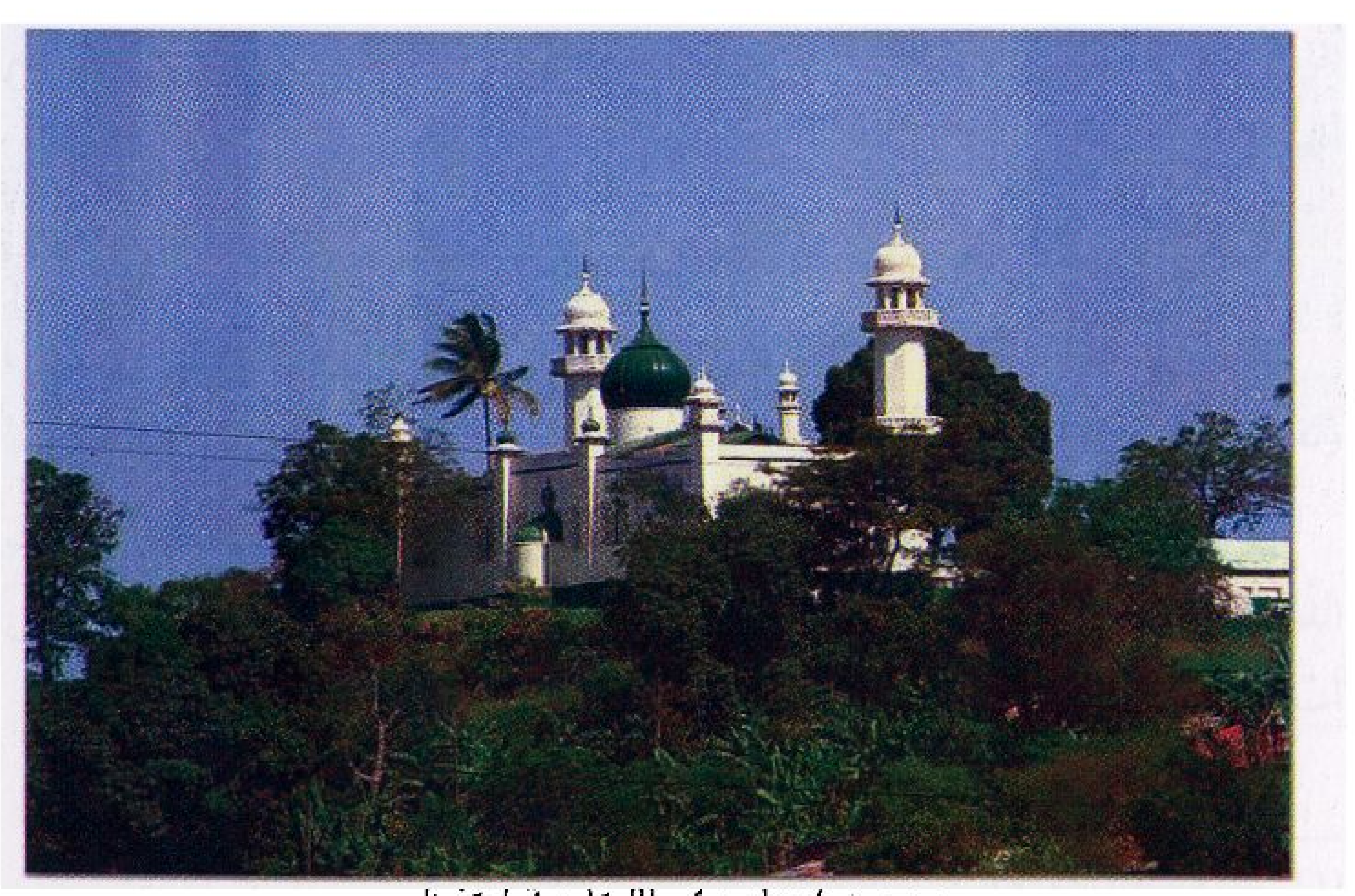
المسجد الجامع بمدينة (أجادين) بالنيجر



مسجد في تشاد



مسجد في موريتانيا



مسجد كيبولي بكمبالا عاصمة اوغندا

مساجد الصحراء الكبرى مبنية بالمواد المناسبة للبيئة وهي الطين والخشب، وعند انتهاء موسم الأمطار تخرج البلدة بأجمعها لترميم ما سببته الأمطار من خسائر، ويعتبر هذا عيدا كبيرا يشارك فيه الرجال والنساء والأطفال، ويعيش البناء بهذه الطريقة المئات، بل الآلاف من السنين. أما في المدن الكبيرة والعواصم فيكون طراز البناء مختلفا، وقد تدخل فيه عناصر هندية لوجود جاليات هندية كبيرة في البلاد.



عودة إلى القيمة المعنوية للمآذن

إن المآذن التي يسهل إدراك قيمتها المعنوية بأعماقها هي المآذن الثلاثية التقسيم، أي التي لها شرفات ثلاث، فإن معاني المعراج تنقسم بسهولة وبداهة ودون تكلف إلى التقسيمات الثلاثية التالية:

١- العوالم الثلاثة:

بينما أن عالم الحق عند المسلمين هو الأحدية المطلقة، فإن تصورهم لعالم الخلق مبني على تقسيمات ثلاثية كثيرة: فالكون، أي العالم الكبير، يشتمل عندهم على عالم الملك، وعالم الملكوت، وعالم الجبروت. فالأول عالم الشهادة، وهو عالم المادة الكثيف الذي يحتوي على الصور الكثيفة، الخاضعة للزمان والمكان والكثافة أي الوزن، بينما عالم الملكوت هو السموات السبع بما تحتويه من صور لطيفة، وعالم الجبروت هو عالم الروح، أو عالم الأنوار، أو عالم المعنى، المنزه عن الصور، فالمعاني لا صورة لها، مع أنها من عالم الخلق.

يقول تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[1].

قال مجاهد: «تَفَرَّجَتْ لِإِبْرَاهِيمَ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ حَتَّى الْعَرْشُ فَنَظَرَ فِيهِنَّ، وَتَفَرَّجَتْ إِلَيْهِ الأَرَضُونَ السَّبْعُ فَنَظَرَ فِيهِنَّ».

وقال السُّدِّيّ: «أُقِيمَ عَلَى صَخْرَةٍ وَفُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ السَّمَوَاتِ، فَنَظَرَ إِلَى مُلْكِ اللَّهِ ﷻ فِيهَا، وَحَتَّى نَظَرَ إِلَى مَكَانِهِ فِي الْجَنَّةِ، وَفُتِحَتْ لَهُ الأَرَضُونَ حَتَّى نَظَرَ إِلَى أَسْفَلِ الأَرْضِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا﴾»[2].

---

(١) سورة الأنعام، آية: ٧٥.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم: (٧٥٣٣-٧٥٣٤).

أما العالم الصغير وهو الإنسان، فهو ثلاثي التركيب أيضاً: فله جسم طيني، له صورة، وله وزن وكثافة، وبالتالي فهو خاضع للزمان والمكان؛ ثم للإنسان نفس لطيفة، تفكر وتدرك، لها عاطفة، ولها ذاكرة تختزن فيها الصور، ولكنها صور لطيفة، وتسترجع هذه الصور في الخيال، وكذلك تراها في المنام؛ وللإنسان روح نوراني، من عالم الأرواح المنزه عن الصور، وبالتالي عن الزمان والمكان.

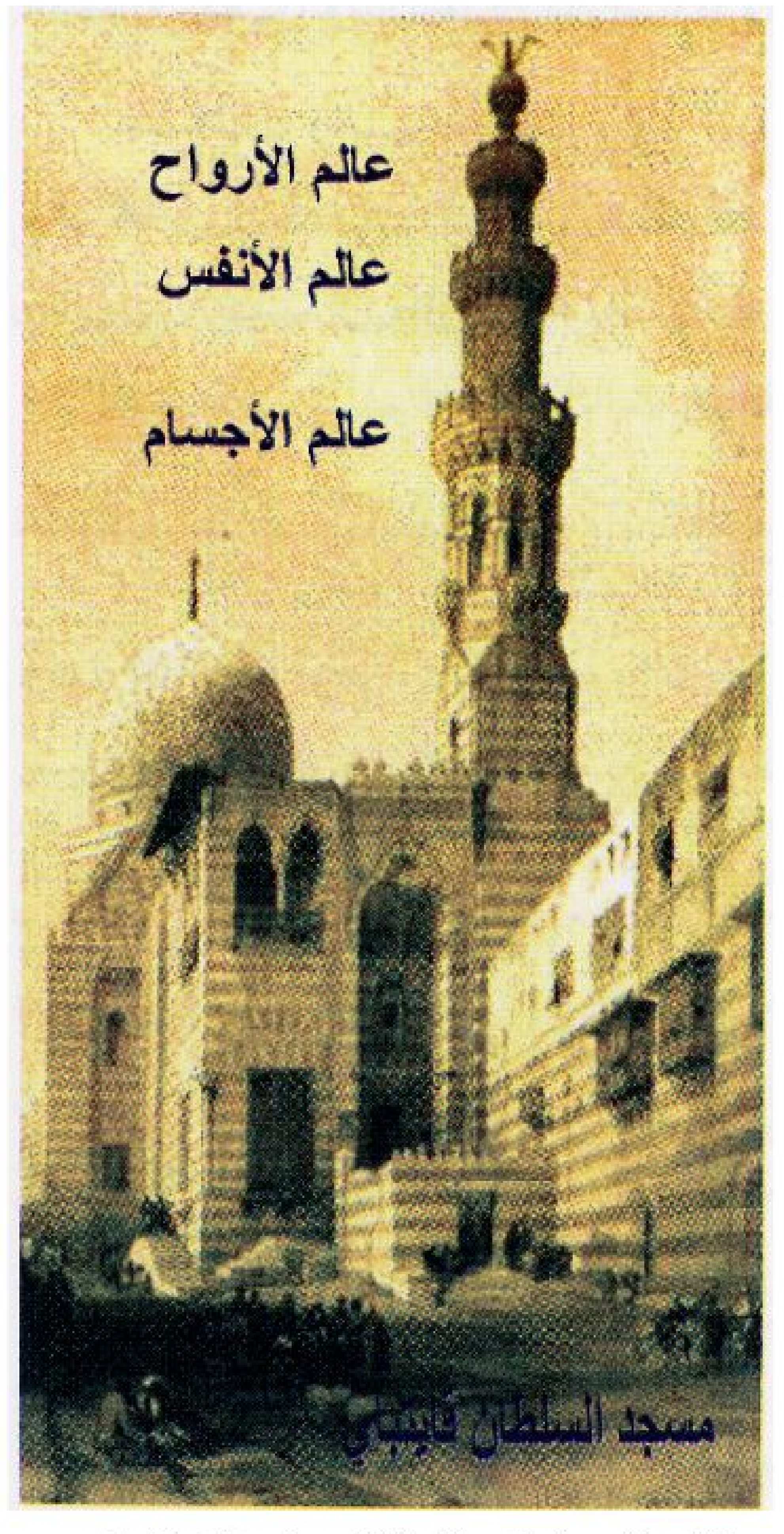


ملك ثم ملكوت ثم جبروت

والمستويات الثلاثة للعالم الصغير صورة مرآة لمستويات العالم الكبير، فالجسم يقابله في العالم الكبير عالم الملك، والنفس يقابلها عالم الملكوت، والروح يقابله الجبروت.

يقول الشيخ إسماعيل حقي، رحمه الله تعالى، في تفسيره: «لَمَّا كان عالم الروح متقدماً بالوجود والمرتبة على عالم الأجسام، وكان الإمداد الرباني الواصل إلى الأجسام موقوفاً على توسط الأرواح بينها وبين الحق، وتدبير الأجسام مفوض إلى

الأرواح، وتعذر الارتباط بين الأرواح والأجسام للمباينة الذاتية الثابتة بين المركب والبسيط، فإن الأجسام كلها مركبة، والأرواح بسيطة، فلا مناسبة بينهما، فلا ارتباط؛ وما لم يكن ارتباط لا يحصل تأثير ولا تأثر، ولا إمداد ولا استمداد، فلذلك خلق الله عالم المثال برزخًا جامعًا بين عالم الأرواح وعالم الأجسام، ليصح ارتباط أحد العالمين بالآخر، فيتأتى حصول التأثر والتأثير، ووصول الإمداد والتدبير.



عالم الأجسام ثم عالم الأنفس ثم عالم الأرواح

وهكذا شأن روح الإنسان مع جسمه الطبيعي العنصري الذي يدبره ويشتمل عليه علمًا وعملاً، فإنه لما كانت المباينة ثابتة بين روحه وبدنه، وتعذر الارتباط الذي يتوقف عليه التدبير ووصول المدد إليه، خلق الله نفسه الحيوانية برزخًا بين البدن والروح المفارق...

وإذا وضح هذا، فاعلم أن القوة الخيالية التي في نشأة الإنسان من كونه نسخة من العالم بالنسبة إلى العالم المثالي المطلق كالجزء بالنسبة إلى الكل، وكالجدول بالنسبة إلى النهر الذي هو مشرعه...»[(١)].

وهذه التقسيمة الثلاثية للكون المخلوق، وهي: عالم الملك (الأجسام أو الشهادة)، وعالم الملكوت (البرزخ أو المثال)، وعالم الجبروت (الأرواح أو الأنوار أو المعنى)،

(١) تفسير روح البيان للشيخ إسماعيل حقي، الجزء السادس، ص٤٢. تفسير سورة يوسف، آية: ٤.

ويقابلها في الإنسان الجسم، والنفس، والروح، هي التقسيمة الثلاثية الأساسية التي ينبني عليها كل معنى، وتدل عليها كل إشارة، وتعود إليها كل منظومة ثلاثية أخرى[1].

عالم الملك والشهادة أولها، ولقد كان الكاغد والحبر والقلم واليد من هذا العالم، وقد جاوزت تلك المنازل على سهولة، والثاني عالم الملكوت وهو ورائي، فإذا جاوزتني انتهيت إلى منازله وفيه المهامه الفيح والجبال الشاهقة والبحار المغرقة، ولا أدري كيف تسلم فيها، والثالث هو عالم الجبروت وهو بين عالم الملك وعالم الملكوت، ولقد قطعت منها ثلاث منازل في أوائلها منزلة القدرة والإرادة والعلم، وهو واسطة بين عالم الملك والشهادة والملكوت، لأن عالم الملك أسهل منه طريقاً، وعالم الملكوت أوعر منه منهجاً، وإنما عالم الجبروت بين عالم الملك وعالم الملكوت يشبه السفينة التي هي في الحركة بين الأرض والماء، فلا هي في حد اضطراب الماء، ولا هي في حد سكون الأرض وثبوتها، وكل من يمشي على الأرض في عالم الملك والشهادة؛ فإن جاوزت قوته إلى أن يقوى على ركوب السفينة كان كمن يمشي في عالم الجبروت؛ فإن انتهى إلى أن يمشي على الماء من غير سفينة مشى في عالم الملكوت من غير تتعتع، فإن كنت لا تقدر على المشي على الماء فانصرف فقد جاوزت الأرض وخلفت السفينة ولم يبق بين يديك إلا الماء الصافي، وأول عالم الملكوت مشاهدة القلم الذي يكتب به العلم في لوح القلب وحصول اليقين الذي يمشي به على الماء[2].

قال الله تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾[3] فما لك أيها الفقير إلا قلب واحد إذا أقبلت على الخلق أدبرت عن الحق، وإذا أقبلت على الحق أدبرت عن الخلق فترحل من عالم الملك إلى الملكوت، ومن الملكوت إلى الجبروت، وما دمت مقيدًا في هذا العالم بشهواتك وعوائدك فلا يمكنك الرحيل إلى ربك.

(١) إحياء علوم الدين: (ج٣/ ص٣٤٣).
(٢) إيقاظ الهمم شرح متن الحكم: (ج١/ ص٢٥).
(٣) سورة الأحزاب، آية: ٤.

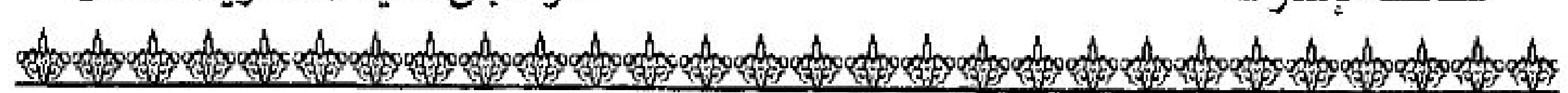
٢- مراتب النفس:

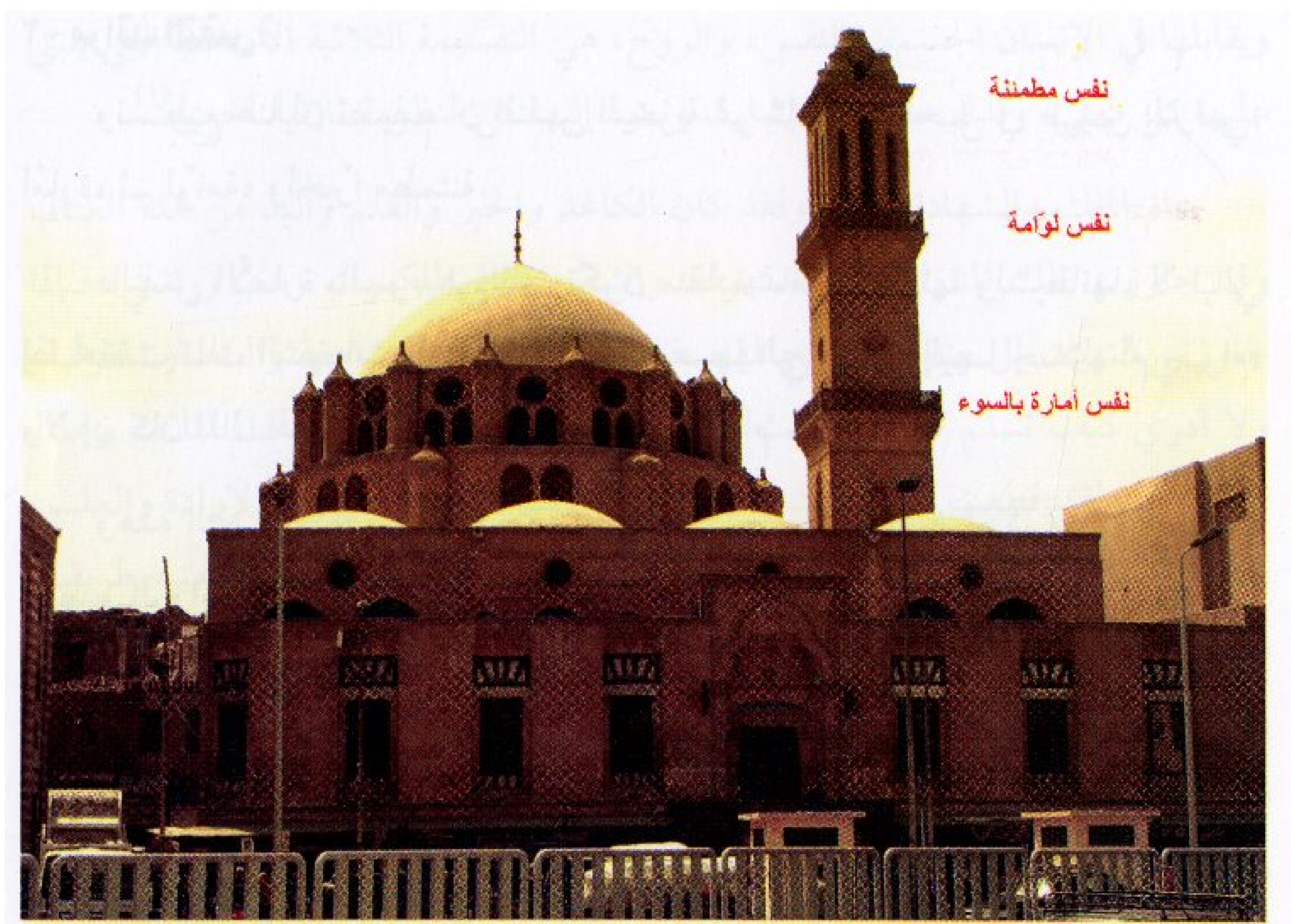
ونستطيع هنا أن نضيف أن النفس البشرية تمر بثلاثة مراحل في طريق الترقي: أمّارة، ثم لوّامة، وأخيرًا مطمئنة.

فالنفس الأمارة بالسوء هي التي تكون منقادة تمامًا لشهواتها ولشيطانها، لا تبالي إذا تحققت تلك الشهوات إن كانت الشهوة نفسها التي تسعى إليها حلال أم حرام، ولا إن كان المال الذي يشتري هذه الشهوة حلال أم حرام.

وهذه النفس لا تدرك مصلحتها الطويلة الأجل، فهي لقضاء شهوتها مستعدة لتقطيع الروابط الأسرية والاجتماعية، وإيصال الأذى إلى الناس، ولا تبالي بحساب ولا عقاب في الآخرة.

فإذا بدأت مثل هذه النفس تصدق بوجود يوم آخر، وتؤمن برب قدير يبعثها بعد موتها ويحاسبها على ما فعلت، بدأت تنزجر عن بعض ما تفعله من محرمات، فأصبحت نفسًا لوامة، تقع في المعاصي أحيانًا وتنزجر عنها أحيانًا أخرى. فإذا جاهدت هذه النفس نزعاتها إلى الشر والحرام، واستقامت على الشريعة، بدأت تتباعد عن حالتها الأولى وتقترب من حال عباد الله الصالحين، حتى إذا وجدت راحتها في الطاعة والخير وصحبة أهل الخير، وانزعجت من المعصية والشر وصحبة أهل الشر، سمّيت مطمئنة، وهذه أعلى درجات النفس، وكل ما وصفه أهل الله مما هو أسمى من ذلك منطو في هذه التسمية.





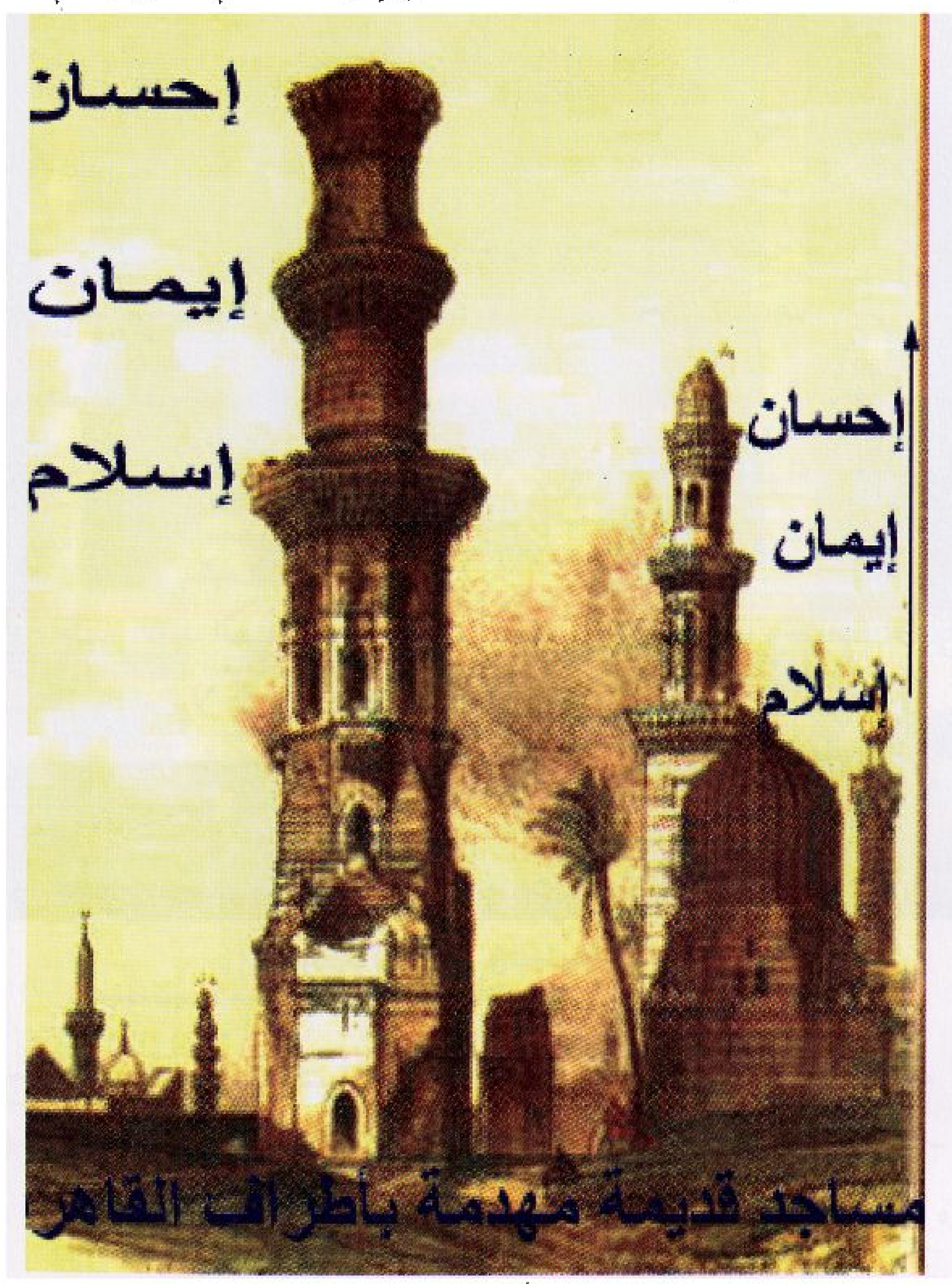
مراتب النفس الإنسانية

٣- مراتب الدين:

وللدين كذلك مراتب ثلاثة، كما أوضحه لنا حديث جبريل عليه السلام، وهي: الإسلام، والإيمان، والإحسان.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَة رضي الله عنه قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ بَارِزًا يَوْمًا لِلنَّاسِ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ: مَا الإِيمَانُ؟ قَالَ: «الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَبِلِقَائِهِ وَرُسُلِهِ، وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ». قَالَ: مَا الإِسْلاَمُ؟ قَالَ: «الإِسْلاَمُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَلاَ تُشْرِكَ بِهِ، وَتُقِيمَ الصَّلاَةَ، وَتُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ». قَالَ: مَا الإِحْسَانُ؟ قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ». قَالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ، وَسَأُخْبِرُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا إِذَا وَلَدَتِ الأَمَةُ رَبَّهَا، وَإِذَا تَطَاوَلَ رُعَاةُ الإِبِلِ الْبُهْمُ فِي الْبُنْيَانِ،

فِي خَمْسٍ لاَ يَعْلَمُهُنَّ إِلاَّ اللهُ». ثُمَّ تَلاَ النَّبِيُّ ﷺ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ الآيَةَ. ثُمَّ أَدْبَرَ فَقَالَ: «رُدُّوهُ». فَلَمْ يَرَوْا شَيْئًا. فَقَالَ: «هَذَا جِبْرِيلُ جَاءَ يُعَلِّمُ النَّاسَ دِينَهُمْ»[1].



مساجد قديمة بالقاهرة على أطراف الصحراء (رسم ديفيد روبرتس)

(١) صحيح البخاري: كتاب الإيمان، باب اتّباع الجنائز من الإيمان ٤٨؛ كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ صحيح مسلم، (١٠-١١).

الإسلام إذاً هو الانقياد إلى شريعة الله أمرًا ونهيًا، فهو طاعة الجوارح.

أما الإيمان فهو التصديق اليقيني بكل ما هو من ضرورات العقيدة عند المسلم، وهو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر بما فيه من بعث وعقاب وثواب. فالإيمان إذاً هو طاعة القلب.

أما الإحسان فهو الإخلاص في ذلك كله، أي في كل من الإسلام والإيمان، ومراقبة الله المستمرة، حتى يتحقق المسلم أن ربه يرى ظاهره وباطنه في كل لحظة، فيستحي منه سبحانه وتعالى، فلا يسعه إلا الإحسان التام في كل عمل يقوم به.

٤- مراتب الطريق إلى الله:

إن الإسلام، وهو طاعة الجوارح، هو الالتزام بالأوامر والنواهي الشرعية، فهذه مرتبة الشريعة.

ثم إذا أظهر العبد الصدق والإخلاص في لزوم الشريعة، وحافظ على أوقاته فلم يضعها في حرام ولا في فضول، وجعل أنفاسه كلها ذكرًا لا غفلة، فهو عندئذ سالك للطريقة.

مسجد السلطان احمد باسطنبول

فإذا سار العبد على الطريق، وسلك الصراط المستقيم، الذي هو المعراج إلى رب العالمين، جاءته الفتوح والمنازلات، فذاق حقيقة الإيمان، وأراه ربه بعض ما هو غيب على غيره من العوام، فهذه مرتبة الحقيقة.

وقد قيل إن علم اليقين: ظاهر الشريعة، وعين اليقين: الإخلاص فيها، وحق اليقين: المشاهدة فيها؛ وهذه هي الشريعة، والطريقة، والحقيقة، كما ذكرناها، فننتقل الآن إلى ذكر مقامات اليقين الثلاثة.



٥- مراتب اليقين:

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾[1].

علم اليقين هو العلم المستفاد من الخبر الأكيد، والكفار هنا لا يصدقون بخبر الآخرة ولذلك سوف لا يأتيهم هذا العلم إلا حين يرون الجحيم، فتفيد الرؤية عين اليقين، ثم يُلقون فيها، فيحسون حرارتها، ويشمون رائحتها، ويسمعون حسيسها، ثم تأكل جلودهم ولحومهم، فتتحول إلى نيران، فيكون هذا لهم هو حق اليقين. يقول سبحانه وتعالى في سورة الواقعة: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ۝ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ۝ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ۝ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾[2].

أي أن حق اليقين هو أن يَصلَى، أي يُحاط ويحترق تمامًا، بنار الجحيم.

(١) سورة التكاثر.

(٢) سورة الواقعة، الآيات: ٩٢-٩٥.

حق اليقين

عين اليقين

علم اليقين

علم وعين وحق اليقين



فيعلم كل عاقل علمًا يقينيًا أن الموت حق، فإذا عاين الملائكة فهو عين اليقين، فإذا أذاق الموت فهو حق اليقين.

فمراتب العلم إذاً ثلاث:

المرتبة الأولى: علم اليقين، وهو انكشاف المعلومِ للقلبِ بحيث يُشاهِدهُ ولا يشك فيه، كانكشافِ المرئِي للبصر.

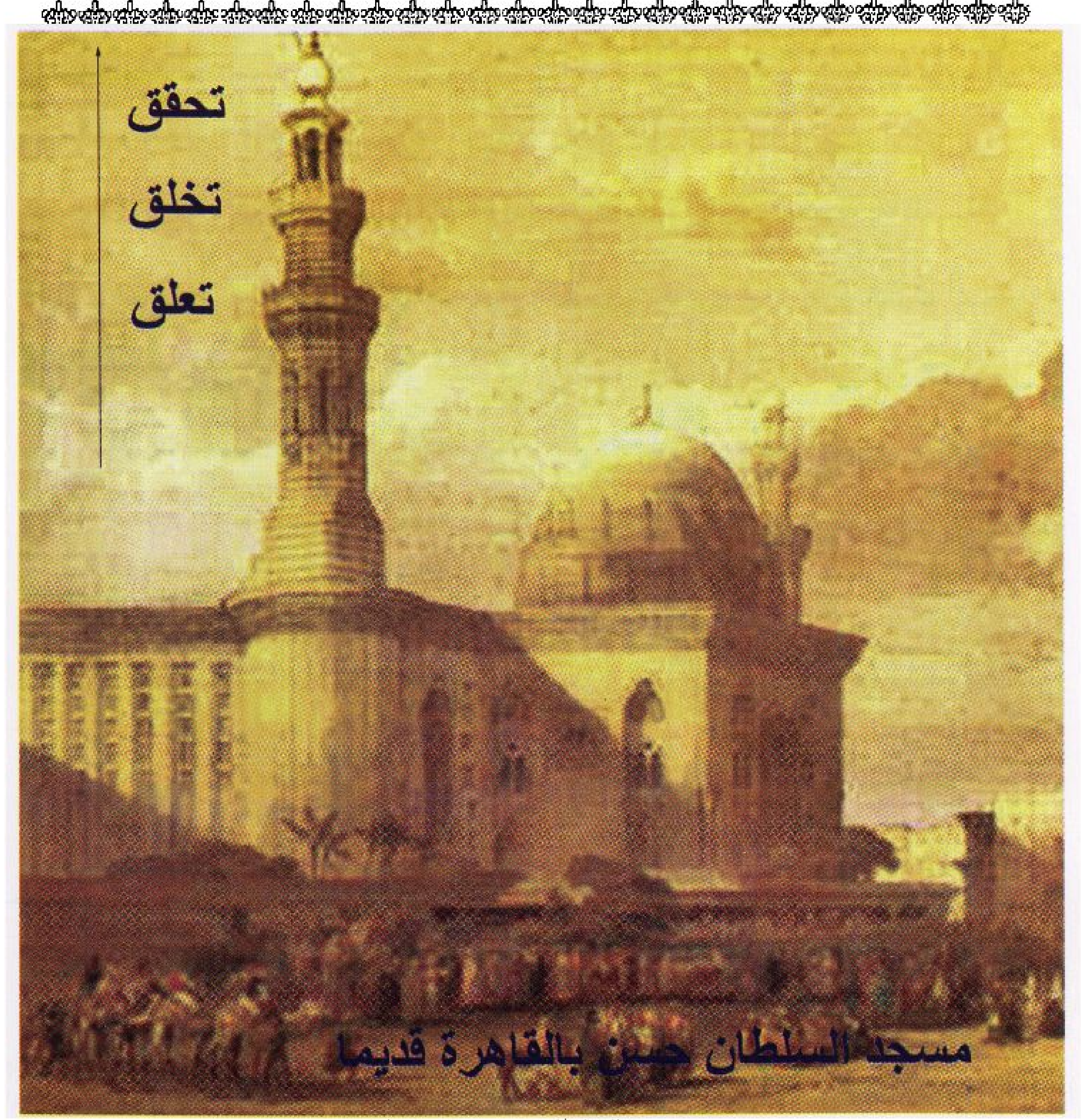
ثم يليها المرتبة الثانية وهي: عين اليقين، ونسبتها إلى العين كنسبةِ الأولى للقلب.

ثم تليها المرتبة الثالثة، وهي: حق اليقين، وهي مباشرة المعلوم وإدراكه الإدراك التام. فالأولى كعلمك أن في هذا الوادي ماء، والثانية كرؤيته، والثالثة كالشُرب منه.

٦- مراتب الطريقة:

إن سلوك الطريقة يبدأ بالتعلق، ثم التخلق، ثم التحقق. وهو أيضًا يبدأ بالتخلي، يتبعه التحلي، فتكون ثمرتهما التجلي.

فإن الإنسان إذا تمكّن حب الله من قلبه، وأيقن أنه ليس في الحياة أغلى ولا أثمن من أن يتقرب إليه حتى يحبه، حينئذ يتحول سلوكه من المعصية إلى الطاعة، ومن الغفلة إلى الذِّكْر، ويجد في نفسه الهمة التي لا يجدها غيره، والنية والعزم التي لا يجدهما من لا محبة له، لتغيير ما به من الصفات الذميمة، واستبدالها بالصفات الْمَرْضيّة الحميدة.



مسجد السلطان حسن (قديما)

يقول الإمام الغزالي رحمه الله عن التقرب إلى المولى ﷻ عن طريق الاتصاف أو التخلُّق بصفاته: «فالذي يُذكر هو قُرْب العبد من ربه ﷻ في الصفات التي أمر فيها بالاقتداء، والتخلُّق بأخلاق الربوبية، حتى قيل: تخلقوا بأخلاق الله! وذلك في اكتساب محامد الصفات التي هي من صفات الإلهية، العلم، والبر، والإحسان، واللطف، وإفاضة الخير والرحمة على الْخَلْق، والنصيحة لهم، وإرشادهم إلى الحق،

ومنعهم من الباطل، إلى غير ذلك من مكارم الشريعة. فكل ذلك يُقرِّب إلى الله سبحانه وتعالى، لا بمعنى طلب القرب بالمكان بل بالصفات»[1].

والتَخلّق ما هو إلا التخلّي عن الصفات الدنيّة، والتحلّي بالصفات السنية.

وأهم وأول صفة يجب التخلي عنها حب غير الله ورسوله حبًا يفوق أو يعادل الحب الأول الأصلي، وهو حب الله وكل ما ينتسب إليه، وقد قال تعالى:

﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[2].

وقال النبي ﷺ: «لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»[3]. بل لَمَّا قال له عُمَر: يَا رَسُولَ اللَّهِ لأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلاَّ مِنْ نَفْسِي. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لاَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ».

فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: فَإِنَّهُ الآنَ وَاللَّهِ لأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «الآنَ يَا عُمَرُ»[4]. فجعل حبه ﷺ قبل حب الإنسان لنفسه. وهذا الحب هو الذي يحرك المؤمن للتخلّي عن كل ما هو في الشرع ذميم، والتحلّي بالأخلاق المحمدية، التي هي أكمل وأجمل الأخلاق.

أما التحقق فهو أن يتأهل الإنسان عن طريق التخلّي والتحلّي للعروج في مراقي المكاشفات والمشاهدات والعلوم اللدنية، وهذا ما يطلق عليه: التجلّي.

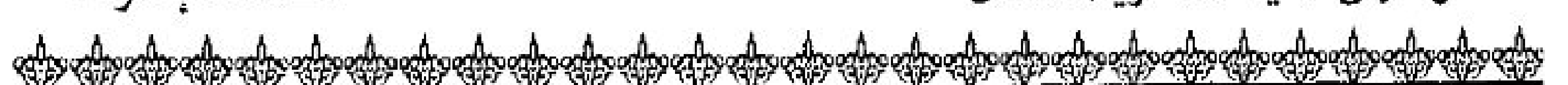
---

(١) إحياء علوم الدين، للإمام الغزالي، الجزء الثالث: ص٤٠٠.

(٢) سورة التوبة، آية: ٢٤.

(٣) صحيح البخاري: (١٤)؛ صحيح مسلم: (٦٣).

(٤) صحيح البخاري: (٦١٤٢).



تجلي

تحلي

تخلي

مسجد ببولاق قديما

مسجد بالقاهرة القديمة بالقرب من بوابة المتولي

قال الإمام فخر الدين الرازي في تفسيره: لا شك أنه تعالى يتجلى لعقول الخلق، إلا أن لذلك التجلي ثلاث مراتب: فإنه في أول الأمر يتجلى بأفعاله وآياته، وفي وسط الأمر يتجلى بصفاته، وفي آخر الأمر يتجلى بذاته، قيل إنه تعالى يتجلى لعامة عباده بأفعاله وآياته، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَـَٔايَـٰتٍ﴾[2]، ثم يتجلى لأوليائه بصفاته، قال تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا﴾[3] ويتجلى لأكابر الأنبياء ورؤساء الملائكة بذاته[4].

٧- مراتب العباد:

مراتب عباد الله ثلاثة: أما المرتبة الدنيا فيطلق عليها: عبادة؛ وأما المرتبة التي فوقها فيطلق عليها: عبودية؛ وأما المرتبة العليا فيطلق عليها: عبودة.

فالعبادة هي التزام أوامر الشارع ونواهيه، ثم المواظبة على ذلك حتى يصبح ذلك للإنسان نمطًا وأسلوبًا في الحياة، فيصبح من العبّاد.

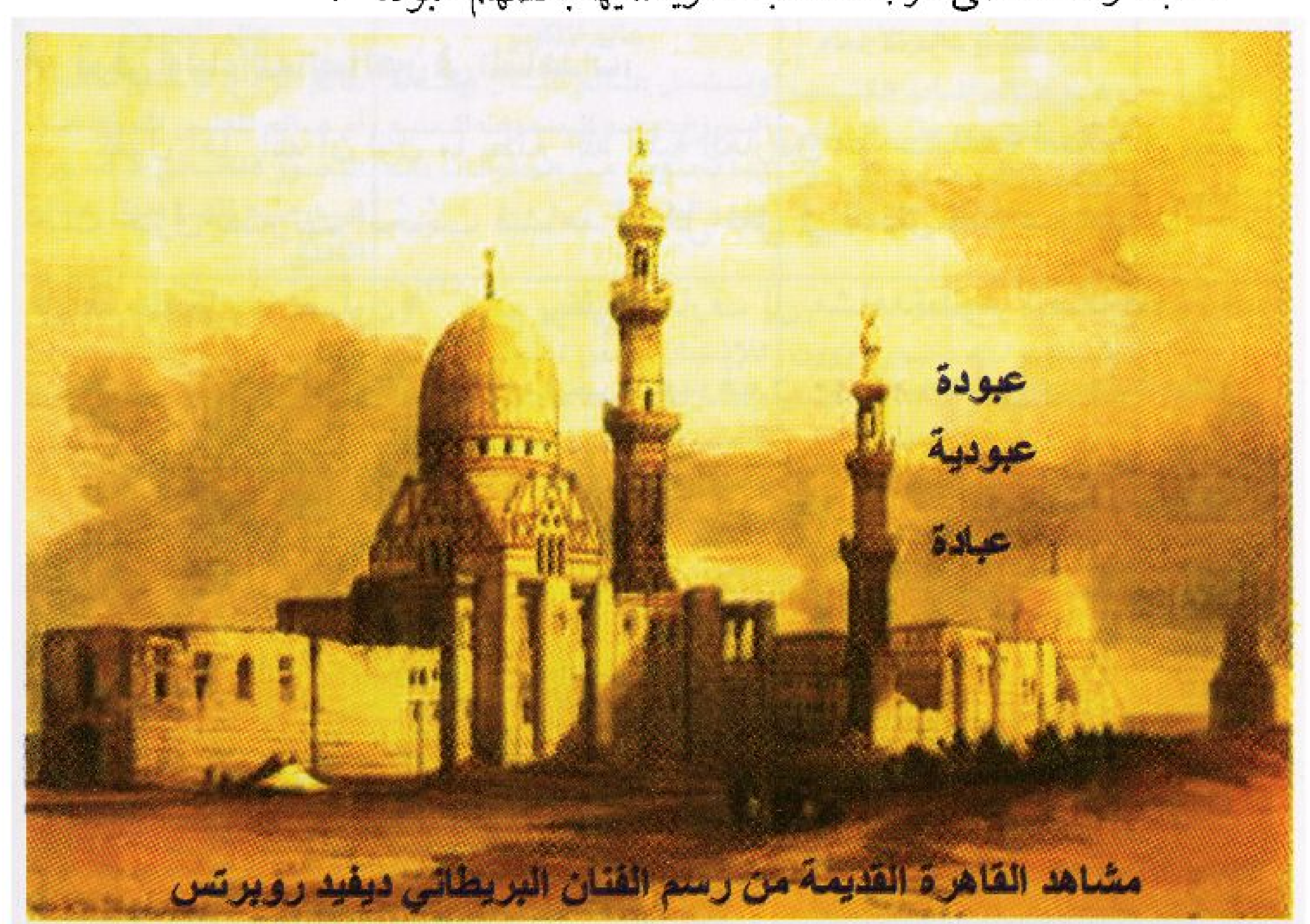
أما العبودية فهي أن لا يُقْدِم ولا يُحْجِم إلا ابتغاء وجه الله، ولا يرى نعمة ولا فضلاً إلا من الله. وأولئك، كما قال الألوسي في تفسيره، هم المراعون أوامره ونواهيه سبحانه في جوارحهم وأسرارهم وأرواحهم، أو الذين حفظوا حدود الله المعلومة فأقاموها على أنفسهم وعلى غيرهم، وقيل: هم القائمون في مقام العبودية بعد كشف صفات الربوبية لهم.

أما العبودة، فهي كمال العبودية، أو كما قال الألوسي: الخاضعون المتذللون

---

(١) سورة الشورى، آية: ٣٢.
(٢) سورة آل عمران، آية: ١٩٠.
(٣) سورة آل عمران، آية: ١٩١.
(٤) تفسير الرازي، الجزء الأول: ص٢٦٣.

لعظمته وكبريائه تعالى، تعظيمًا وإجلالاً له جل شأنه، لا رغبة في ثواب، ولا رهبة من عقاب، وهذه أقصى درجات العبادة، ويسميها بعضهم عبودة[1].



عبادة ثم عبودية ثم عبودة

قال الشيخ أبوعلي الدقاق رحمه الله: «العبودية أتم من العبادة، فأولاً: عبادة، ثم عبودية، ثم عبودة، فالعبادة للعوام من المؤمنين، والعبودية للخواص، والعبودة لخاص الخاص».

وقال: «العبادة لمن له علم اليقين، والعبودية لمن له عين اليقين، والعبودة لمن له حق اليقين».

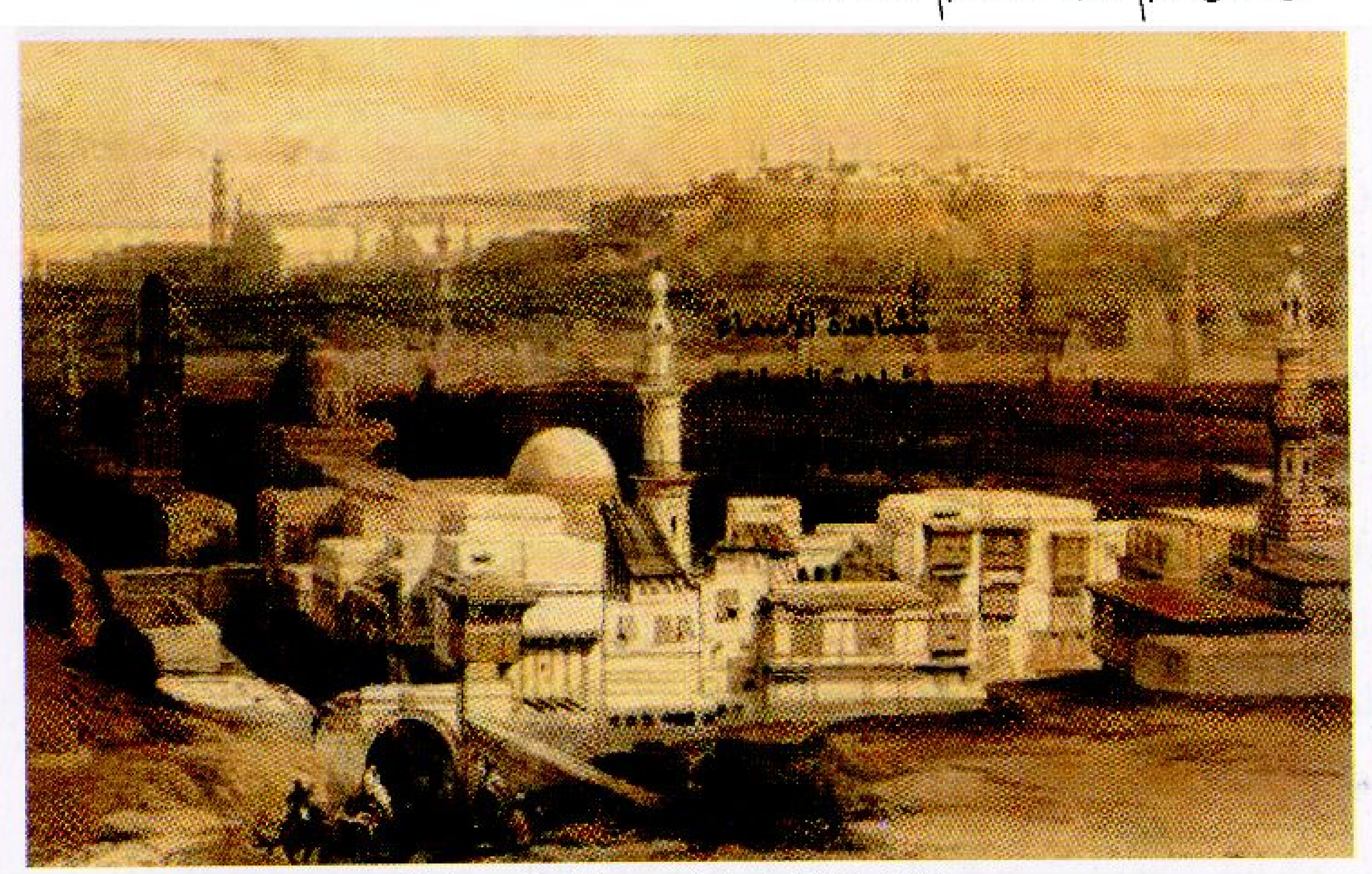
وقال: «العبادة لأصحاب المجاهدات، والعبودية لأرباب المكابدات، والعبودة

(١) تفسير روح البيان، للشيخ الألوسي، الجزء السابع: ص٤١٤.

صفة أهل المشاهدات. فمن لم يدَّخر عنه نفسه فهو صاحب عبادة، ومن لم يَضِنّ عليه بقلبه فهو صاحب عبودية، ومن لم يبخل عليه بروحه فهو صاحب عبودة»(١).

٨- ترقي أولياء الله الصالحين في المشاهدات:

يقول أهل الله أن أول ما يُطلع الله عليه العارفين هو مشاهدة أفعاله في خلقه، بحيث تخترق بصيرتهم الْحُجُب فتشاهد أن كل فعل في الْخَلْق إنما هو بقدرة الحق: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾(٢)؛ ثم يرتقي العارف إلى مشاهدة أنوار الصفات؛ وأخيرًا يرتقي إلى مشاهدة أنوار الأسماء. فيمر العارف في معراجه على مرحلة مشاهدة الأفعال، ثم الصفات، ثم الأسماء.



القاهرة القديمة (رسم ديفيد روبرتس)

(١) الرسالة القشيرية، الجزء الأول: ص٩٠.

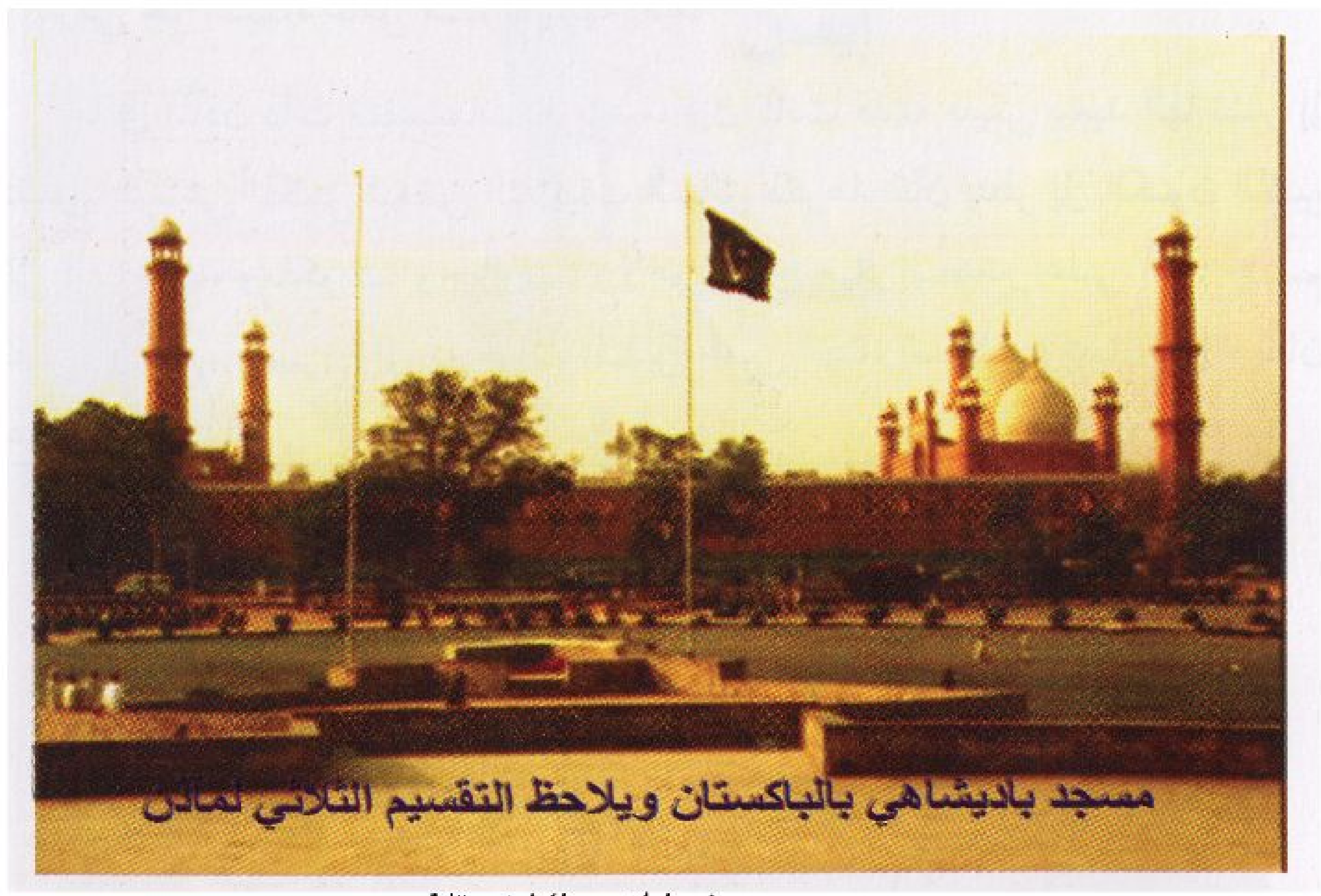
(٢) سورة الصافات، آية: ٩٦.

الثلاثيات:

	المرتبة السفلى	المرتبة الوسطى	المرتبة العليا
العالم الكبير (الكون)	**عالم الملك أو عالم الأجسام** وهو عالم المادة الكثيف الذي يحتوي على الصور الكثيفة الخاضعة للزمان والمكان والكثافة، أي الوزن.	**عالم الملكوت** ويشمل عالم المثال وعالم البرزخ، وهو السموات السبع بما تحتويه من مخلوقات ذات صور لطيفة.	**عالم الجبروت** عالم الروح، أو عالم الأنوار، أو عالم المعنى المنزه عن الصور فالمعاني لا صورة لها، مع أنها من عالم الخلق.
العالم الصغير (الإنسان)	**الجسم** طيني وله صورة ووزن وكثافة، وبالتالي فهو خاضع للزمان والمكان.	**النفس** للإنسان نفس لطيفة، تفكر وتدرك، ولها عاطفة، ولها ذاكرة تختزن فيها الصور، وتكون الصور بعد اختزانها صوراً لطيفة تسترجع في الخيال وترى في المنام.	**الروح** روح نوراني منزه عن الصورة وكذلك عن الزمان والمكان.
النفس	**أمارة بالسوء** منقادة تماماً لشهواتها ولشيطانها، لا تبالي إذا تحققت تلك الشهوات إن كانت من الحلال أم الحرام.	**لوامة** تصدق بوجود يوم آخر، وتؤمن برب قدير يبعثها بعد موتها ويحاسبها على ما فعلت، بدأت تنزجر عن بعض ما تفعله من محرمات فأصبحت نفساً لوامة، ولكنها لا زالت تقع في المعاصي.	**مطمئنة** هذه النفس جاهدت نزعاتها إلى الشر والحرام، واستقامت على الشريعة، ووجدت راحتها في الطاعة والخير وصحبة أهل الخير، وتنزعج من المعصية والشر وأهل الشر.
الدين	**الإسلام** الإسلامُ أن تعبدَ اللّهَ ولا تُشرك به شيئاً، وتُقيم الصلاة، وتُؤدّي الزّكاة المفروضة، وتصوم رمضان. (الانقياد إلى شريعة الله أمراً ونهياً، فهو طاعة الجوارح).	**الإيمان** أن تؤمنَ باللهِ وملائكته وكتبه وبلقائه ورسله وتؤمن بالبعث. (التصديق اليقيني بكل ما هو من ضرورات العقيدة عند المسلم، وهو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر بما فيه من بعث وعقاب وثواب)، فالإيمان إذن هو طاعة القلب.	**الإحسان** أن تعبدَ اللهَ كأنك تراهُ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، الإخلاص في الإسلام والإيمان، ومراقبة الله المستمرة، حتى يتحقق المسلم أن ربه يرى ظاهره وباطنه في كل لحظة، فيستحي منه سبحانه وتعالى، فلا يسعه إلا الإحسان التام في كل عمل يقوم به.

	المرتبة السفلى	المرتبة الوسطى	المرتبة العليا
مراتب الطريق إلى الله	**الشريعة** هي الالتزام بالأوامر والنواهي الشرعية.	**الطريقة** هي الصدق والإخلاص في لزوم الشريعة، والمحافظة على الأوقات وعدم إضاعتها في حرام ولا في فضول، وجعل الأنفاس كلها ذكر لا غفلة.	**الحقيقة** إذا سار العبد على الطريق، وسلك الصراط المستقيم، الذي هو المعراج إلى رب العالمين، جاءته الفتوح والمنازلات، فذاق حقيقة الإيمان، وأراه ربه بعض ما هو غيب لغيره من العوام، فهذه مرتبة الحقيقة.
الطريقة	**تعلق** إذا تمكن حب الله من قلب العبد، وأيقن أنه ليس في الحياة أغلى ولا أثمن من أن يتقرب إليه حتى يحبه، حينئذ يتحول سلوكه من المعصية إلى الطاعة، ومن الغفلة إلى الذكر، ويجد في نفسه الهمة التي لا يجدها غيره، والنية والعزم التي لا يجدهما من لا محبة له، لتغيير ما به من الصفات الذميمة، واستبدالها بالصفات المرضية الحميدة.	**تخلق** وهو التخلي (عن الصفات الذميمة) والتحلي (بالصفات الحميدة). يتقرب العبد من ربه ﷻ بالتخلق وهو التحلي بكمالات الأخلاق حتى قيل: تخلقوا بأخلاق الله! وذلك في اكتساب الصفات الحميدة كالعلم، والصبر، والإحسان، واللطف، وإفاضة الخير والرحمة على الخلق، والنصيحة لهم، وإرشادهم إلى الحق، ومنعهم من الباطل. إلى غير ذلك من المكارم. فكل ذلك يقرب إلى الله سبحانه وتعالى، لا بمعنى قرب المكان بل قرب معنوي.	**تحقق** وهو التجلي (أي العروج في مراقي المكاشفات والمشاهدات والعلوم اللدنية). فهو تعالى يتجلى للخلق، ولذلك التجلي ثلاث مراتب: فإنه في أول الأمر يتجلى بأفعاله وآياته، وفي وسط الأمر يتجلى بصفاته، وفي آخر الأمر يتجلى بذاته.
اليقين	**علم اليقين** العلم المستفاد من الخبر الأكيد. (تعلم أن الماء موجود من مصدر معلومات موثق).	**عين اليقين** وهي كانكشاف المرئي للبصر ونسبتها إلى العين كنسبة الأولى للقلب. (ترى الماء بعينك)	**حق اليقين** وهي مباشرة المعلوم وإدراكه الإدراك التام: (تشرب من الماء)
مراتب العباد	**عبادة** هي التزام أوامر الشارع ونواهيه، ثم المواظبة على ذلك حتى يصبح ذلك للإنسان نمطا وأسلوبا في الحياة، فيصبح من العبّاد.	**عبودية** لا يقدم ولا يحجم إلا ابتغاء وجه الله، ولا يرى نعمة ولا فضلا إلا من الله، وأولئك هم المراعون أوامره ونواهيه سبحانه في جوارحهم وأسرارهم وأرواحهم.	**عبودة** هي كمال العبودية، فهم: الخاضعون المتذللون لعظمته وكبريائه تعالى، تعظيما وإجلالا له جل شأنه، لا رغبة في ثواب، ولا رهبة من عقاب.

	المرتبة السفلى	المرتبة الوسطى	المرتبة العليا
ترقي أولياء الله الصالحين في المشاهدات (التجلي)	**مشاهدة الأفعال** يتجلى المولى لعباده بأفعاله وآياته، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾[1]، وقال: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾[2].	**مشاهدة الأسماء والصفات** يتجلى لأوليائه بصفاته.	**مشاهدة الذات** ويتجلى للأنبياء ولأكابر الأولياء ورؤساء الملائكة بذاته.



مسجد بادشاهي بالباكستان

(١) سورة الشورى، آية: ٣٢.
(٢) سورة آل عمران، آية: ١٩١.

التقسيمات المختلفة للمآذن ومعانيها:

إن كل ما ذكرنا من ثلاثيات يمكن رؤيتها في التقسيم الثلاثي للمنارة. فإن العامل المشترك بينها أنها مراحل ودرجات على معراج المؤمن نحو ربه، ولذلك فإنها تتتالى رأسيًا، إذ أن كلا منها يكون أعلى وأرقى مما قبلها، ترقيًا على الصراط المستقيم نحو رب العالمين سبحانه وتعالى، ولأنها كذلك فيمكن أيضًا رؤيتها في المآذن ذات التقسيمات غير الثلاثية.

ويمكن أن تكون المئذنة ذات تقسيمات متعددة، رباعية، أو سباعية، أو كثيرة بحيث لا يتكلّف الناظر إليها تحديد العدد، إلا أن المعنى العام الذي هو مراحل متعددة في الترقي نحو السماء عامل مشترك بينها جميعًا.

أما في المآذن ذات التقسيمات الرباعية، فإن كانت قديمة فليس ببعيد أنها تشير إلى التقسيم الرباعي المكمل لبعض الثلاثيات السابق ذكرها، كأن ينظر إلى الكون الكبير على أنه: ملك، وملكوت، وجبروت، ولاهوت؛ وللعالم الصغير على أنه: جسم، ونفس، وروح، وسر؛ وإلى درجات الدين على أنها: إسلام، وإيمان، وإحسان، وعرفان؛ وهكذا.

عرفان

إحسان

إيمان

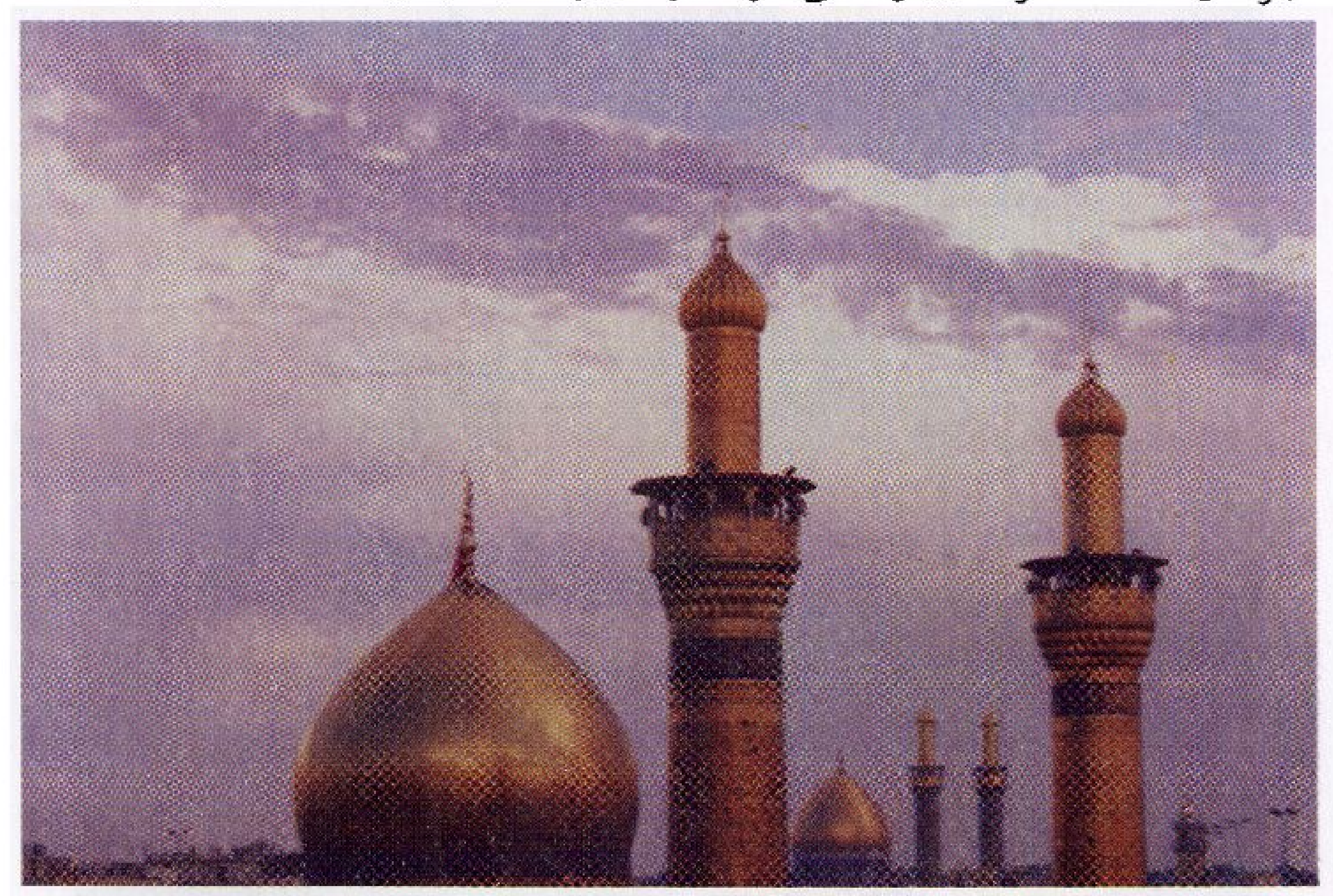
إسلام

المسجد الجامع بأسوط قديما

المسجد الجامع بأسيوط (قديماً)



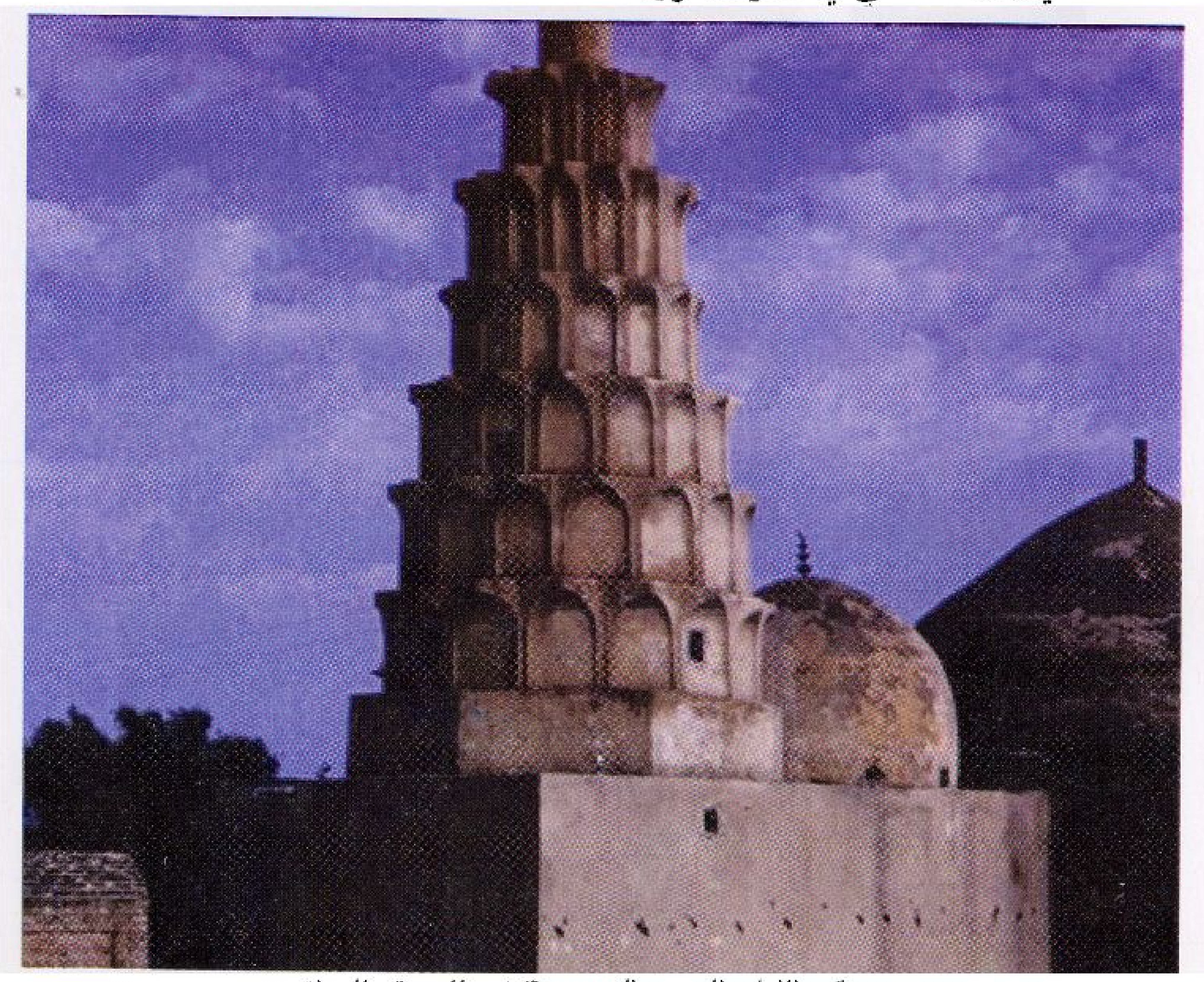
وأما المآذن ذات الشرفة الواحدة فلها هيئة يمكن تأويلها على أنها تُعَبِّر عن بحرين أو عالمين أو حالين، أحدهما أعلى من الآخر، وبينهما الشرفة، وهي برزخ يفصل ويصل بينهما في نفس الوقت؛ كأن نقول مثلاً أن الحال الأول هو حال الغفلة والبعد عن الله، وله درجات كثيرة، والبرزخ هو العبادة وذكر الله، التي بدونها لا يمكن الوصول إلى الحال الثاني، الذي هو حال الحضور مع الله، والقرب، وهو مقام الإحسان، وله كذلك درجات كثيرة. وفي النهاية فالتقسيم ثلاثي أيضًا، ويتكون من جزء أول تحت الشرفة، وجزء ثاني هو الشرفة ولواحقها، وجزء ثالث يعلو الشرفة.



مسجد الإمام الحسين ﷺ بكربلاء بالعراق

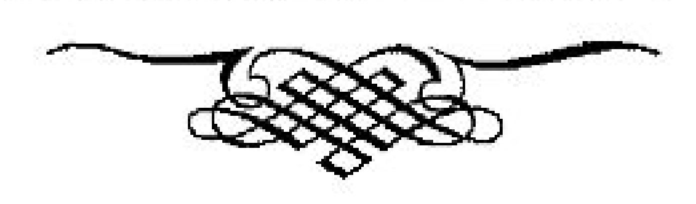
إن التعبير بالإشارة أمر واسع يحتمل تنوع ومرونة في الأسلوب، ولكنها لا تكون أبدًا عشوائية، إذ لابد من تطابق طبيعي غير متكلّف بين الصورة والمعنى لا يسع الناظر إلا أن يدركه، بشرط أن يكون المعنى مألوفًا له وليس بعيدًا عن فهمه، وإلا لم يمكنه إدراك المعنى المراد مهما شُرح له. بالإضافة إلى ذلك فإن الشكل الواحد يمكنه

التعبير عن المعاني المتعددة، والمعنى الواحد يمكن التعبير عنه بأساليب متعددة، ولذلك فإن هناك أشكالاً وهيئات أخرى للمآذن، وهذه تحتاج إلى وقفات أخرى وتفكر لاستبانة معانيها، وللمآذن الثلاثية التقسيم معاني أخرى زائدة على ما ذكرنا، ولم يكن الغرض من هذه الرسالة إلا التنبيه على أن أعمال أسلافنا لم تكن عشوائية، ولا نفعية، ولا سطحية، ولا خالية من المعاني الدقيقة والعميقة، ثم ليُعْمِل كل قارئ عقله في إدراك المعاني في سائر الأمور.



مرقد الإمام الحسن البصري رضي الله عنه بالبصرة بالعراق

منارات مدينة فاس بالمغرب

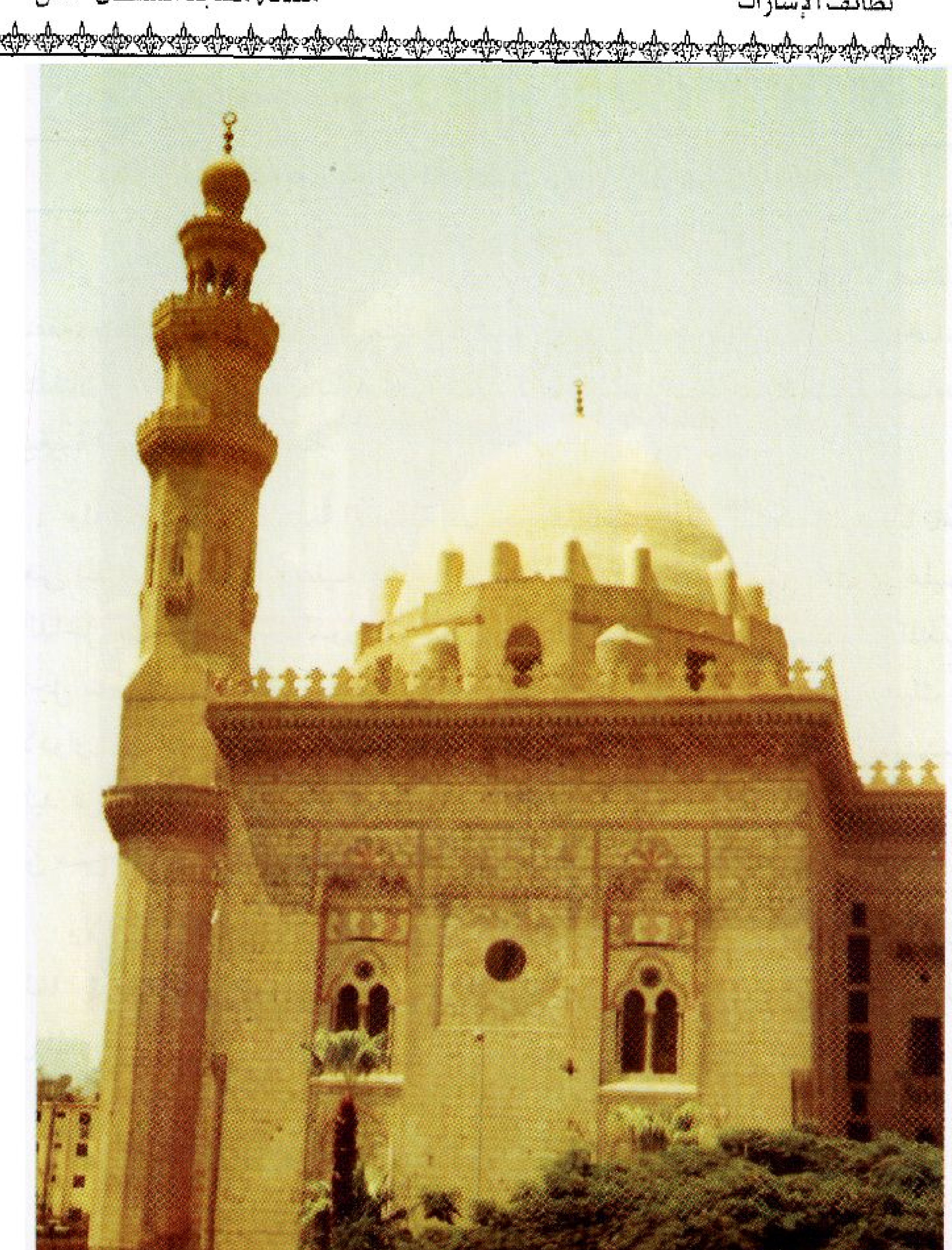


مئذنة مسجد السلطان حسن بالقاهرة

بُنِيَ مسجد السلطان حسن في القرن الثامن الهجري ولم يكتمل بناثه لجسامة النفقة، ولكنه مع ذلك لا يزال يعتبر تحفة معمارية لا مثيل لها. وقد تهدَّمت إحدى المئذنتان وأعاد العثمانيون بناءها، ولكنهم لم يستطيعوا مضاهاة الأصل، فجاءت صغيرة الحجم، ضعيفة الهيئة.

والملفت للنظر في المئذنة الأصلية أنها تعبر عن استيعاب من بناها استيعابًا تامًا لمعنى المعراج الذي تدل عليه هيئة المئذنة والسلم الداخلي الذي تحتوي عليه؛ فالداخل من باب المئذنة بالدور الأرضي يجد الإضاءة ضعيفة جدًا، ثم ترتفع المئذنة داخل بناء المسجد فيتحايل المهندس لزيادة الإضاءة تدريجيًا من بعض الشبابيك في الأدوار التي تخترقها، كما يُشاهد بوضوح في مجموعة الصور التي التقطها المهندس وليد عرفة أثناء دراسة له للمسجد. ولا تزال الإضاءة تزداد تدريجيًا حتى ترتفع المئذنة عن مبنى المسجد، فتصبح معرضة للضوء من كل جهة، وتتم الإضاءة الكاملة.

ولا يسع الصاعد على الدرج إلا أن يلاحظ ارتفاعه من الظلمات إلى النور وأنه كلما ارتفع كلما ازداد النور وتراجعت الظلمات، وليس ثم إشارة أوضح من ذلك إلى المعراج.



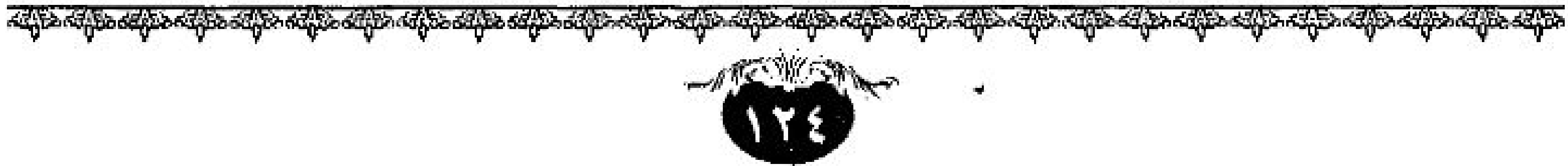
مسجد السلطان حسن

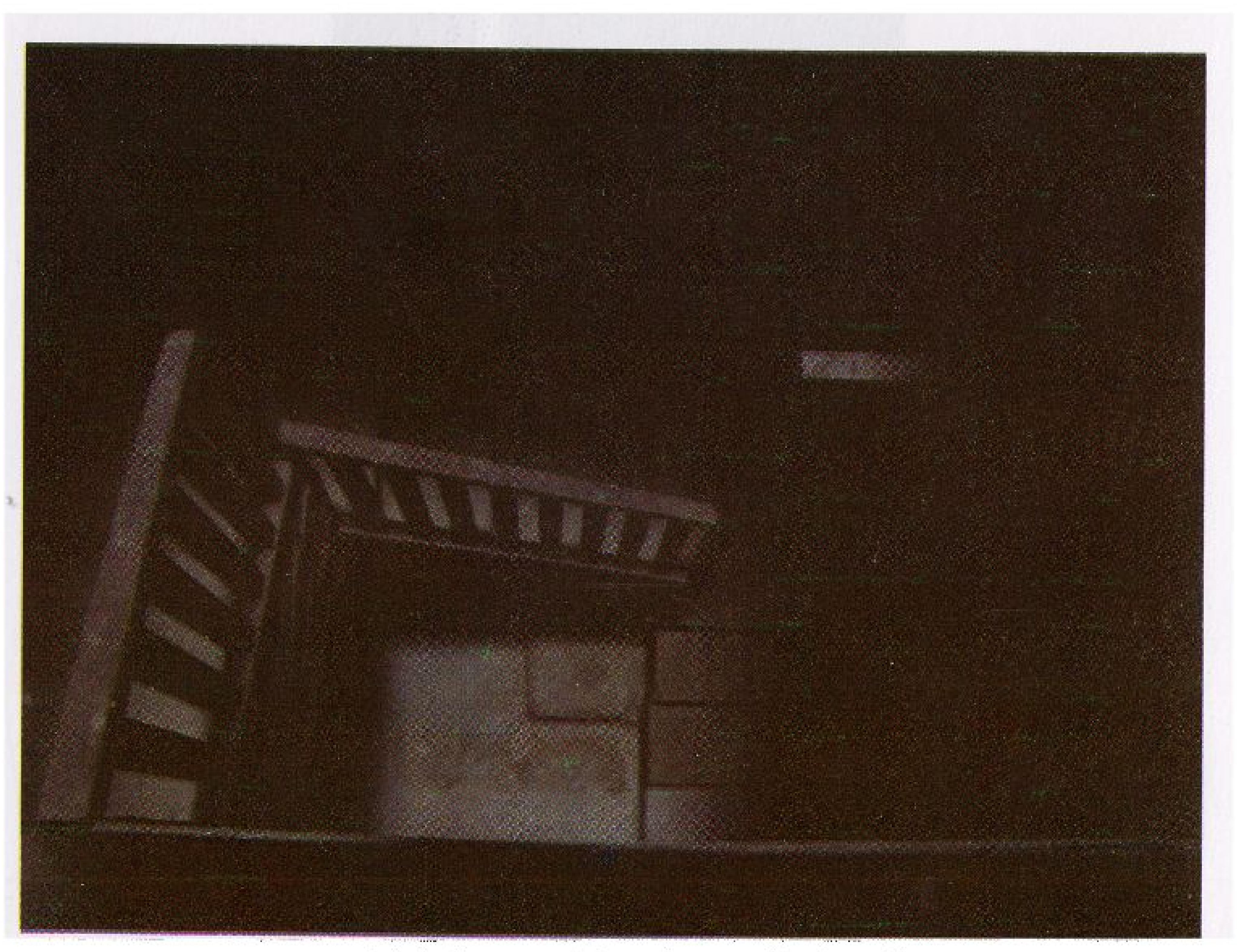


بداية سلم مئذنة مسجد السلطان حسن

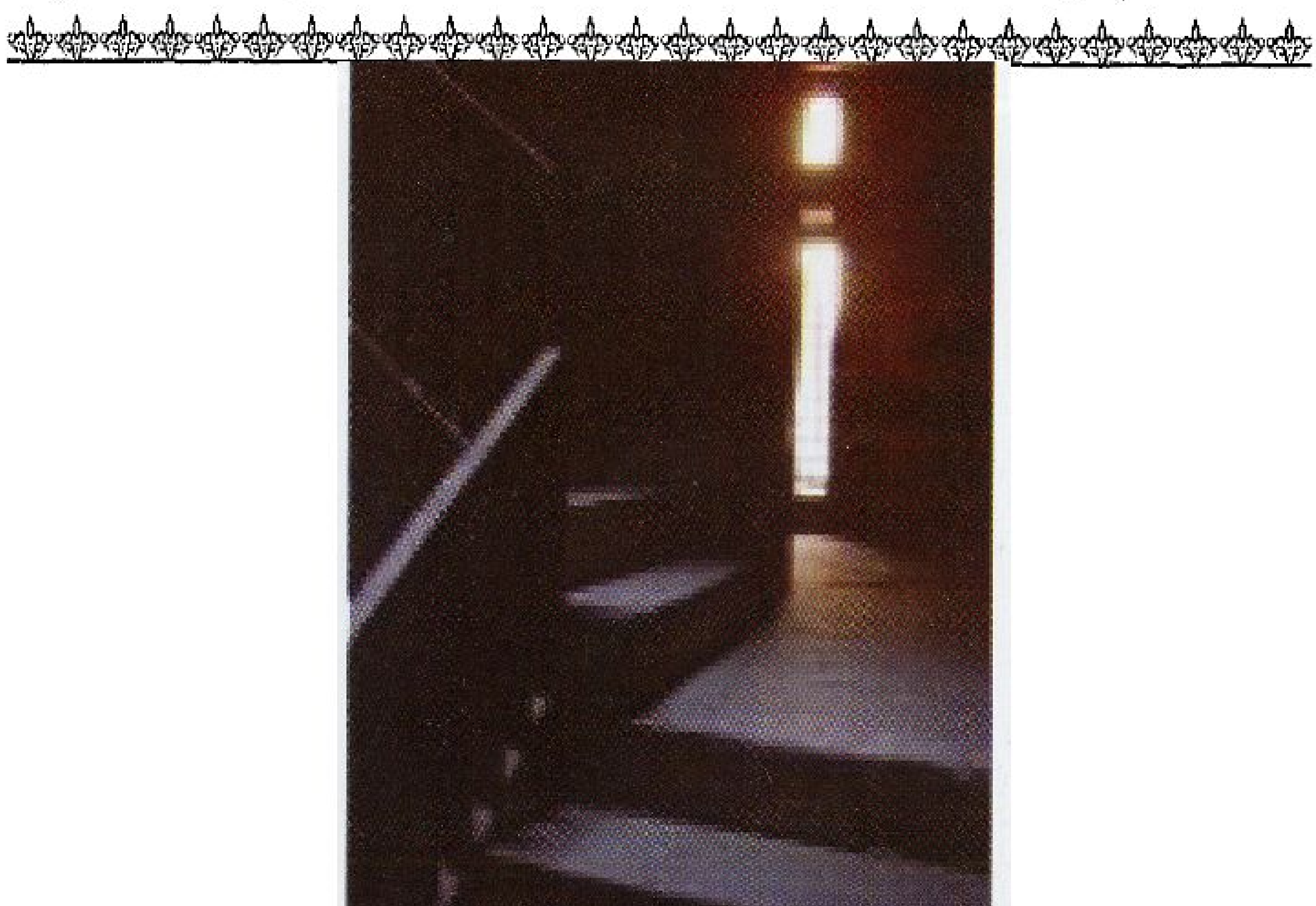


منارة مسجد السلطان حسن

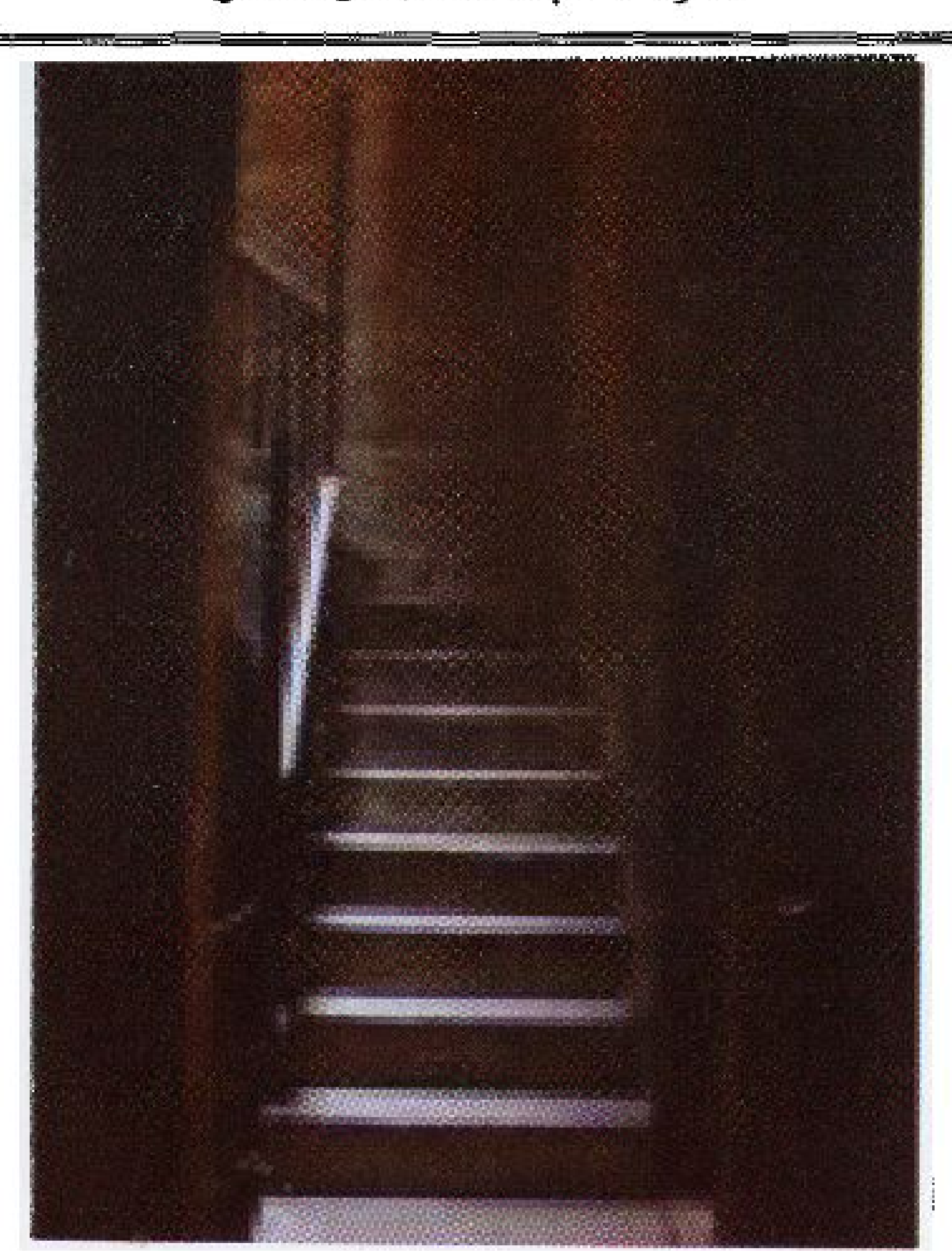




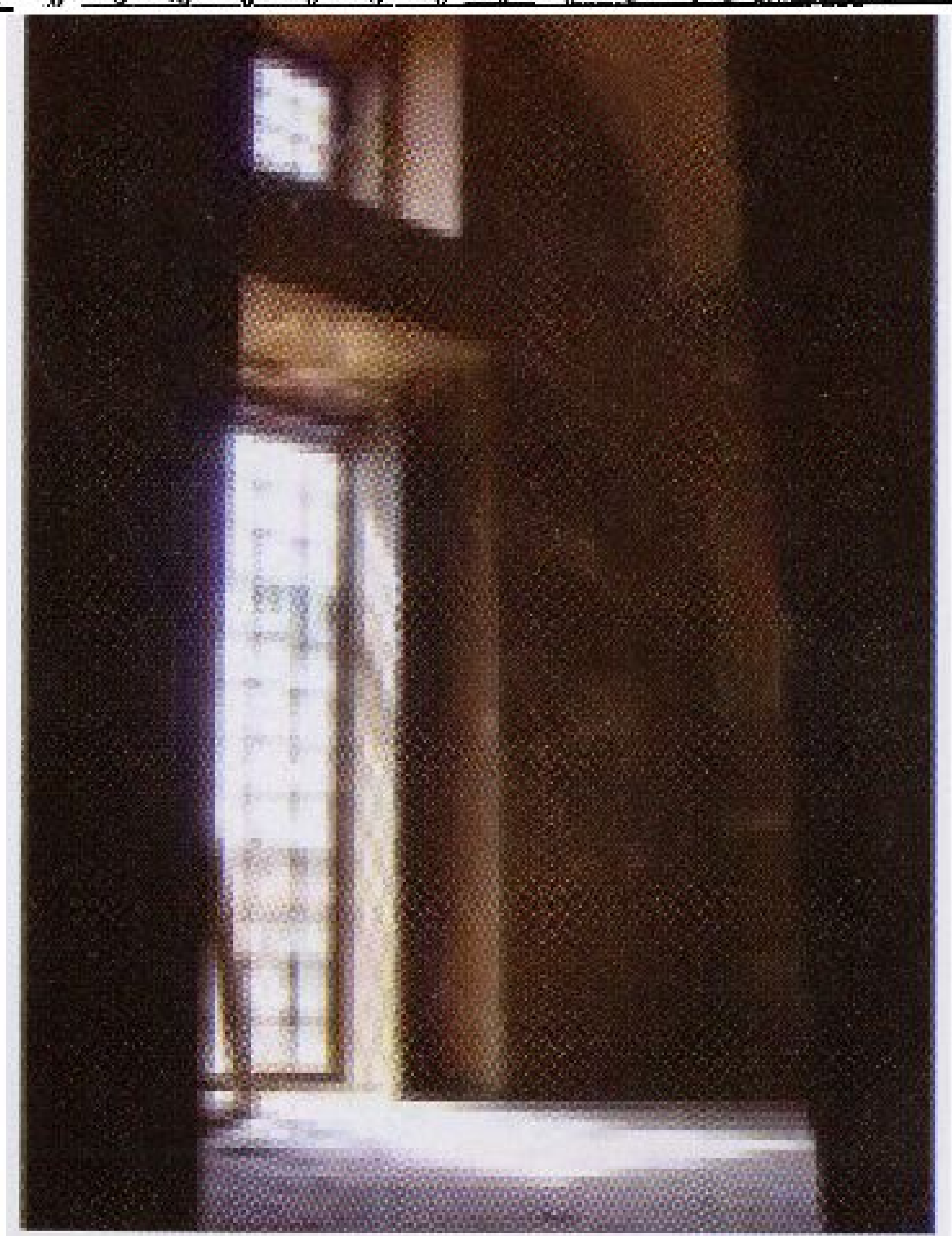
الجزء السفلي من سلم مئذنة مسجد السلطان حسن



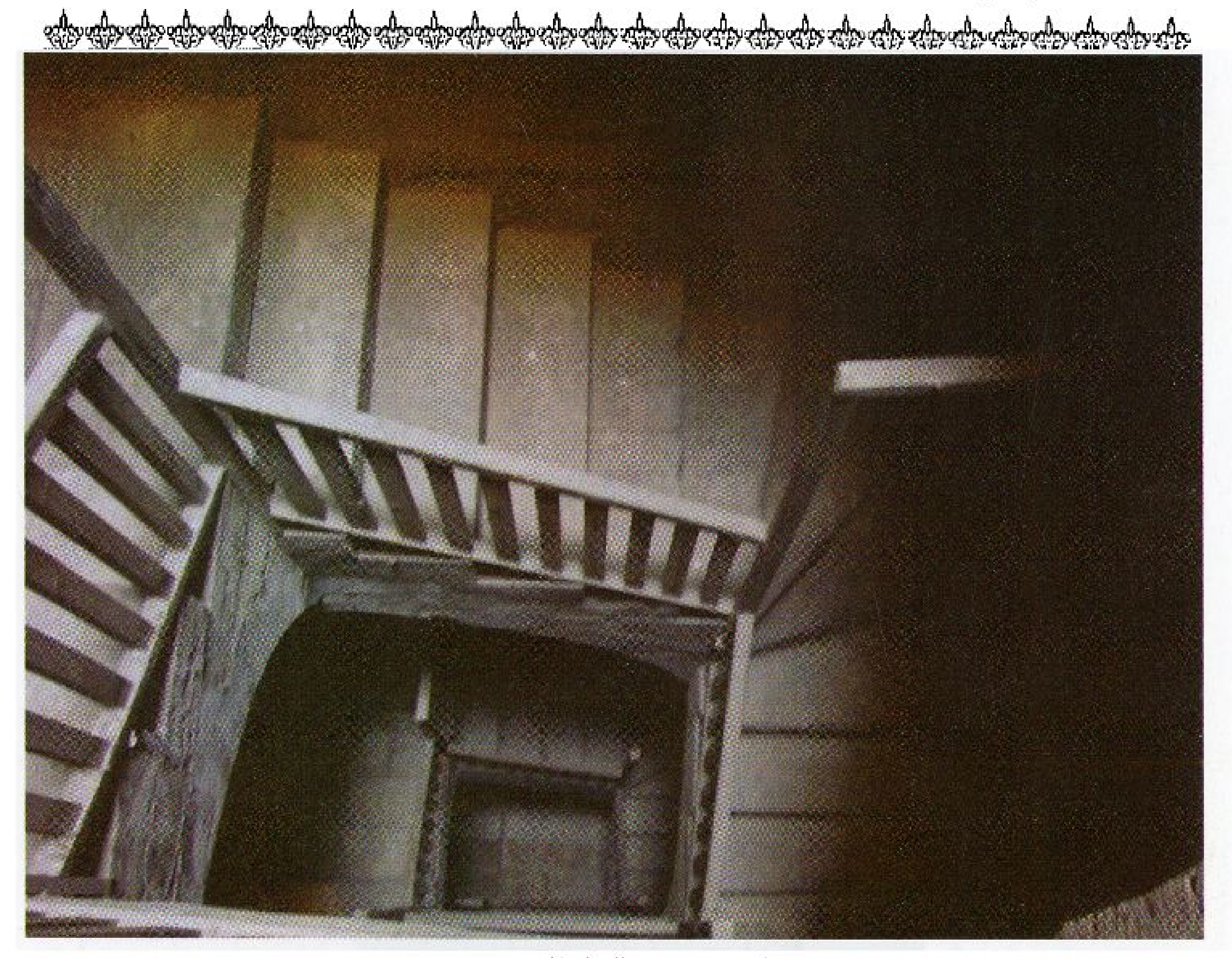
منارة مسجد السلطان حسن



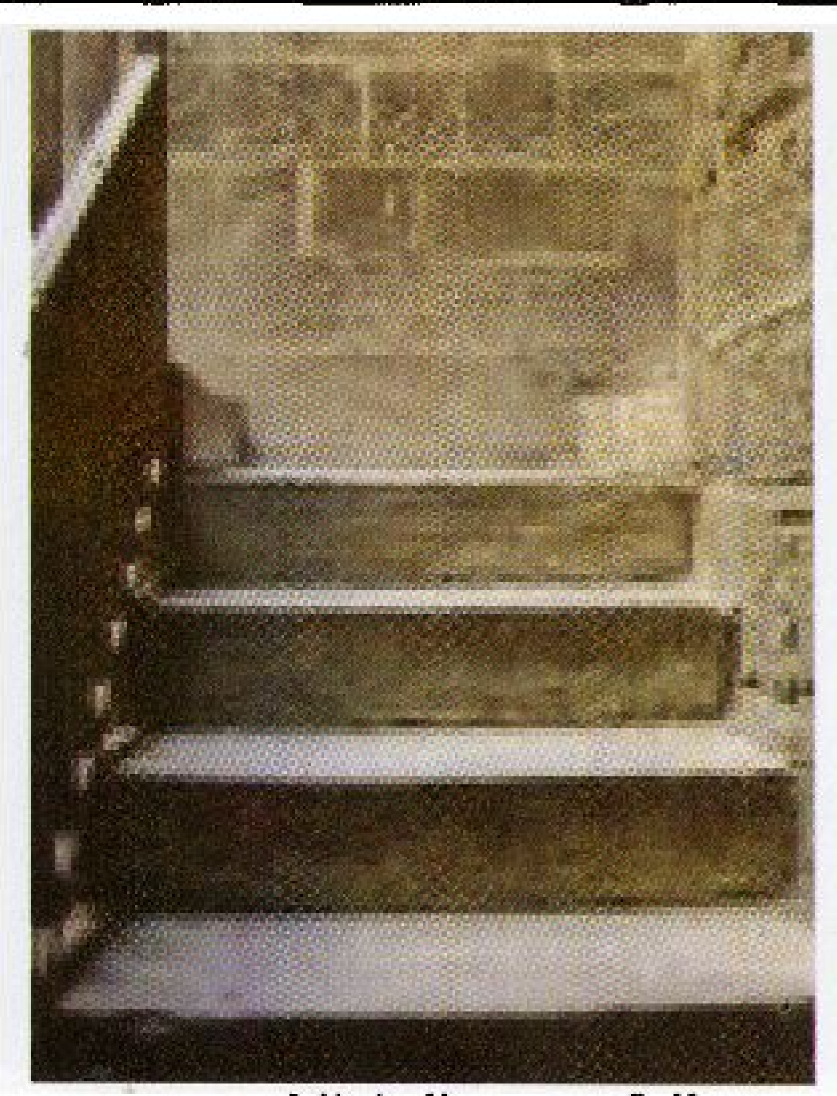
منارة مسجد السلطان حسن



منارة مسجد السلطان حسن

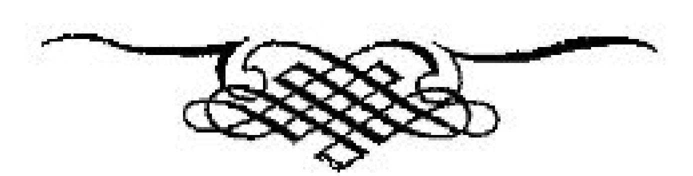


منارة مسجد السلطان حسن



منارة مسجد السلطان حسن





الأعمدة الثمانية

نرى في كثير من المآذن، أن المستوى الذي يحمل الشرفة العليا أو يعلوها ويحمل قمة المئذنة مكون من ثمانية أعمدة، بينها فراغات، ويتبادر إلى الذهن فورًا برؤية هذه الأعمدة حملة العرش الثمانية.

يقول المولى ﷻ: ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ۝ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾[1].

وشبّه النبي ﷺ الملائكة حملة العرش بالوعول، وتحدث عن عظم خلقتهم وخلقة العرش في حديث طويل، فقال: «فَوْقَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ بَحْرٌ بَيْنَ أَعْلَاهُ وَأَسْفَلِهِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلَى السَّمَاءِ، وَفَوْقَ ذَلِكَ ثَمَانِيَةُ أَوْعَالٍ بَيْنَ أَظْلَافِهِنَّ وَرُكَبِهِنَّ مَا بَيْنَ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ، ثُمَّ فَوْقَ ظُهُورِهِنَّ الْعَرْشُ بَيْنَ أَسْفَلِهِ وَأَعْلَاهُ مَا بَيْنَ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ وَاللهُ فَوْقَ ذَلِكَ»[2].

وأحيانا نرى تصميمًا مماثلاً، أي من أعمدة ثمانية بينها فراغات، في المنطقة الوسطى من المئذنة، ولم يتبادر إلى ذهني له معنى[3].

---

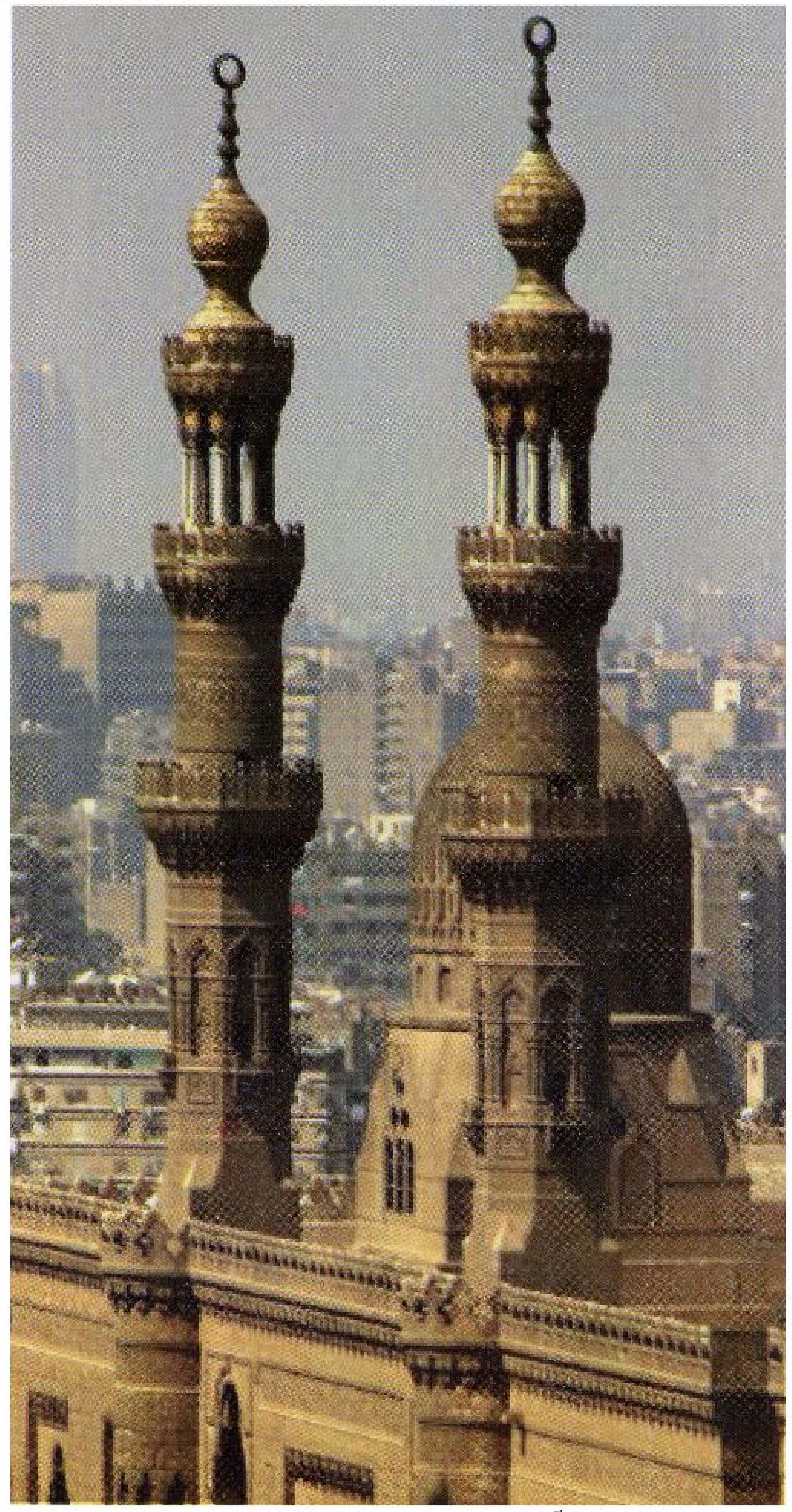
(١) سورة الحاقّة، آية: ١٦، ١٧.

(٢) سنن الترمذي: (٣٢٤٢)؛ سنن ابن ماجه: (١٨٩)؛ سنن أبي داود: (٤١٠٠).

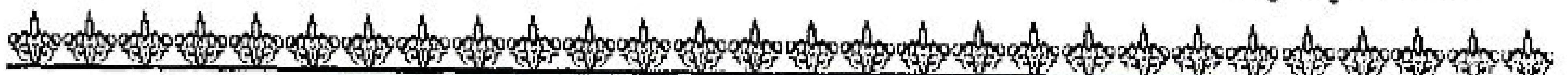
(٣) الرقم: ثمانية، مرتبط في ذهن المسلم بأبواب الجنة الثمانية التي أخبرنا عنها النبي ﷺ، (كما في صحيح البخاري: ٣٠١٧)، بينما جهنم لها سبعة أبواب، ويمكن ربط الفراغات الثمانية بين الأعمدة بأبواب الجنة على اعتبار أن الجنة نهاية ونتيجة معراج المؤمن ويجب عليه دخولها ليرتفع بعد ذلك إلى شرف ملاقاة ربه ورؤيته.

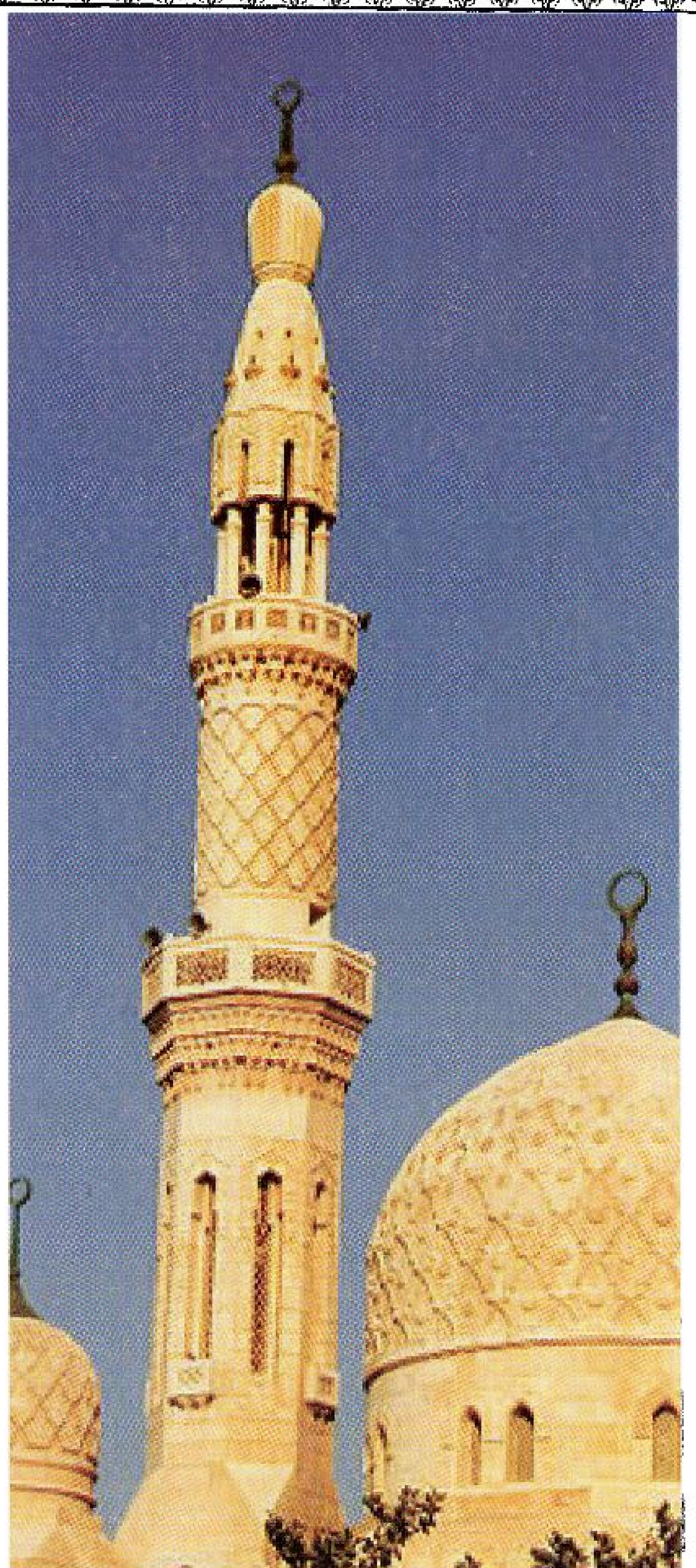
تاج محل بالهند





مآذن مسجد الرفاعي بالقاهرة





مئذنة مسجد في دبي بالإمارات

الشواهد النحاسية التي تعلو المآذن

إن الشواهد النحاسية التي تُرى فوق المآذن ما هي إلا تكرار وتأكيد لمعنى المعراج ولكن مع تكملة المعنى حتى يشتمل على الوصول إلى حضرة الإطلاق، وذلك يُرى في هيئة الكرات الثلاث التي تعلو كل منها الأخرى، فترمز إلى عوالم الملك والملكوت والجبروت في الكون الكبير، وما يقابلها من جسم ونفس وروح في العالم الصغير الذي هو الإنسان، وترمز كذلك بالتبعية إلى الثلاثيات الأخرى كما سبق، وقبل كل ذلك ترمز بالأصالة إلى الأفعال والصفات والأسماء الإلهية. وكما لاحظنا في تصميم بالمآذن فإن هناك أشكال مختلفة للشواهد، وكلها تشير إلى نفس المعنى.

أما الهلال المفتوح إلى أعلى، أي إلى السماء، فهو إشارة إلى الحضرة الإلهية، حضرة الإطلاق، نهاية وهدف كل معراج، وانفتاحه إشارة إلى أن هذه الحضرة مطلقة لا تقييد لها ولا تصوير.

عرفان

إحسان

إيمان

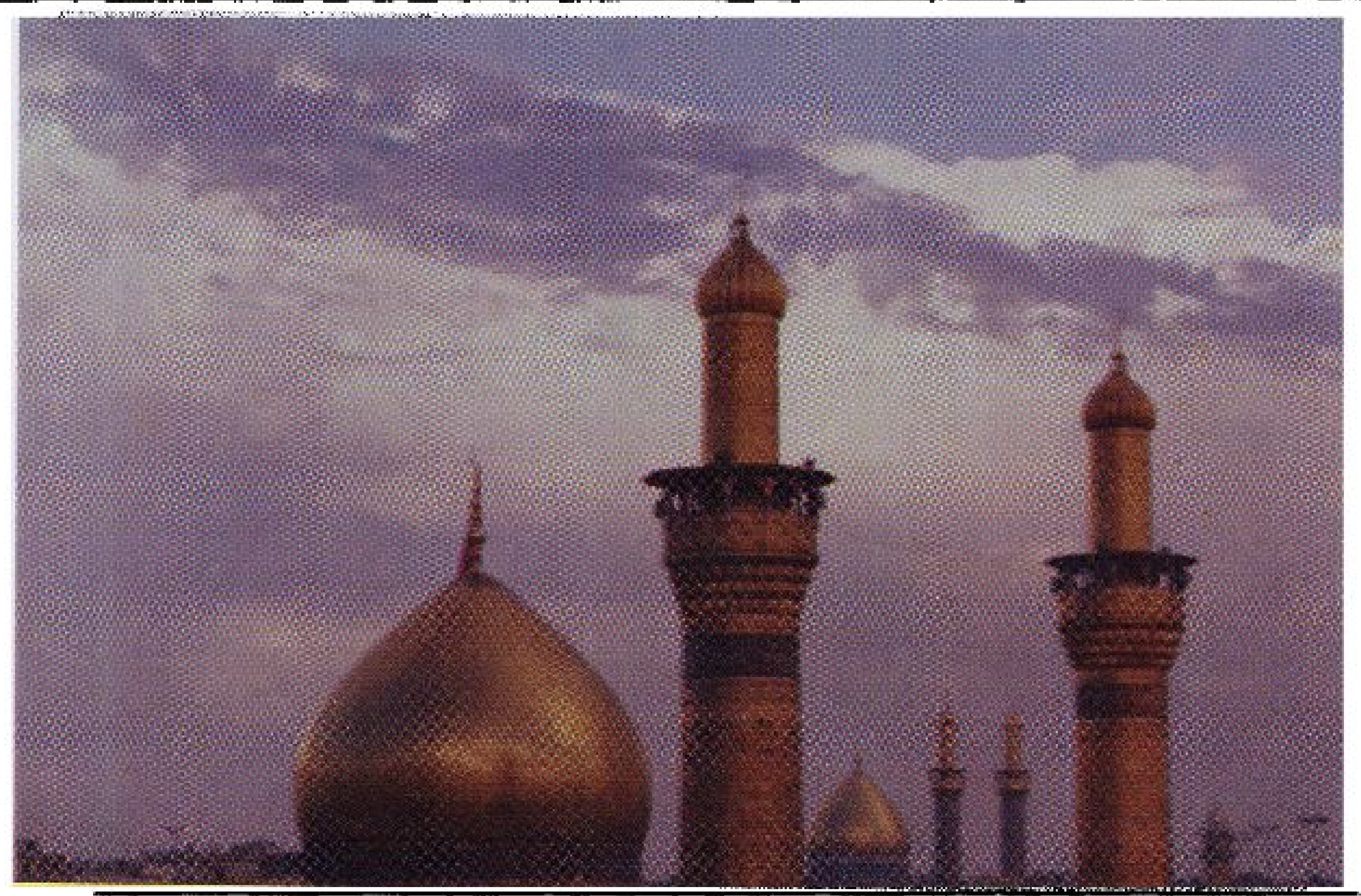
إسلام

المسجد الجامع بأسوط قديما

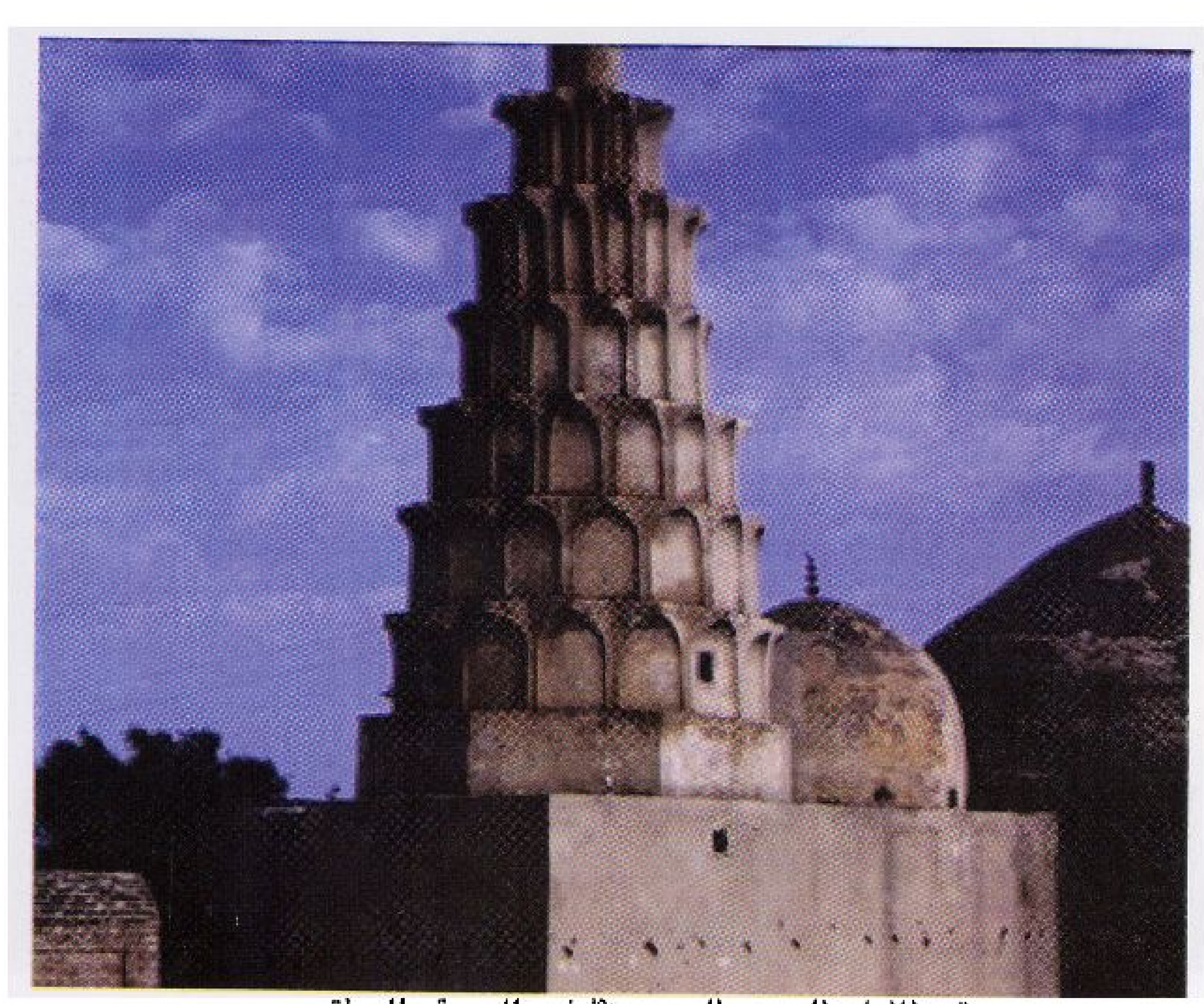
المسجد الجامع بأسيوط (قديما)





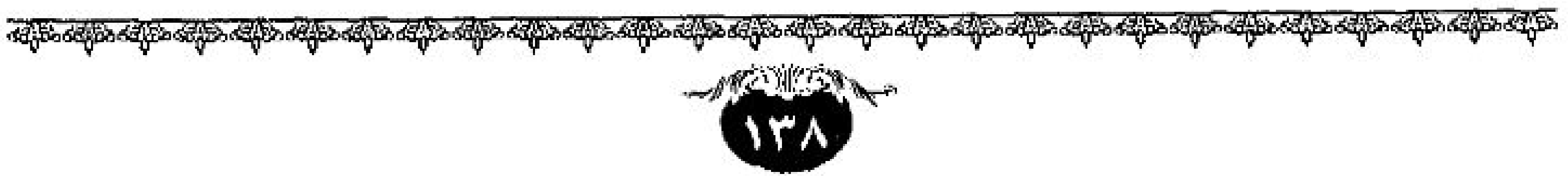


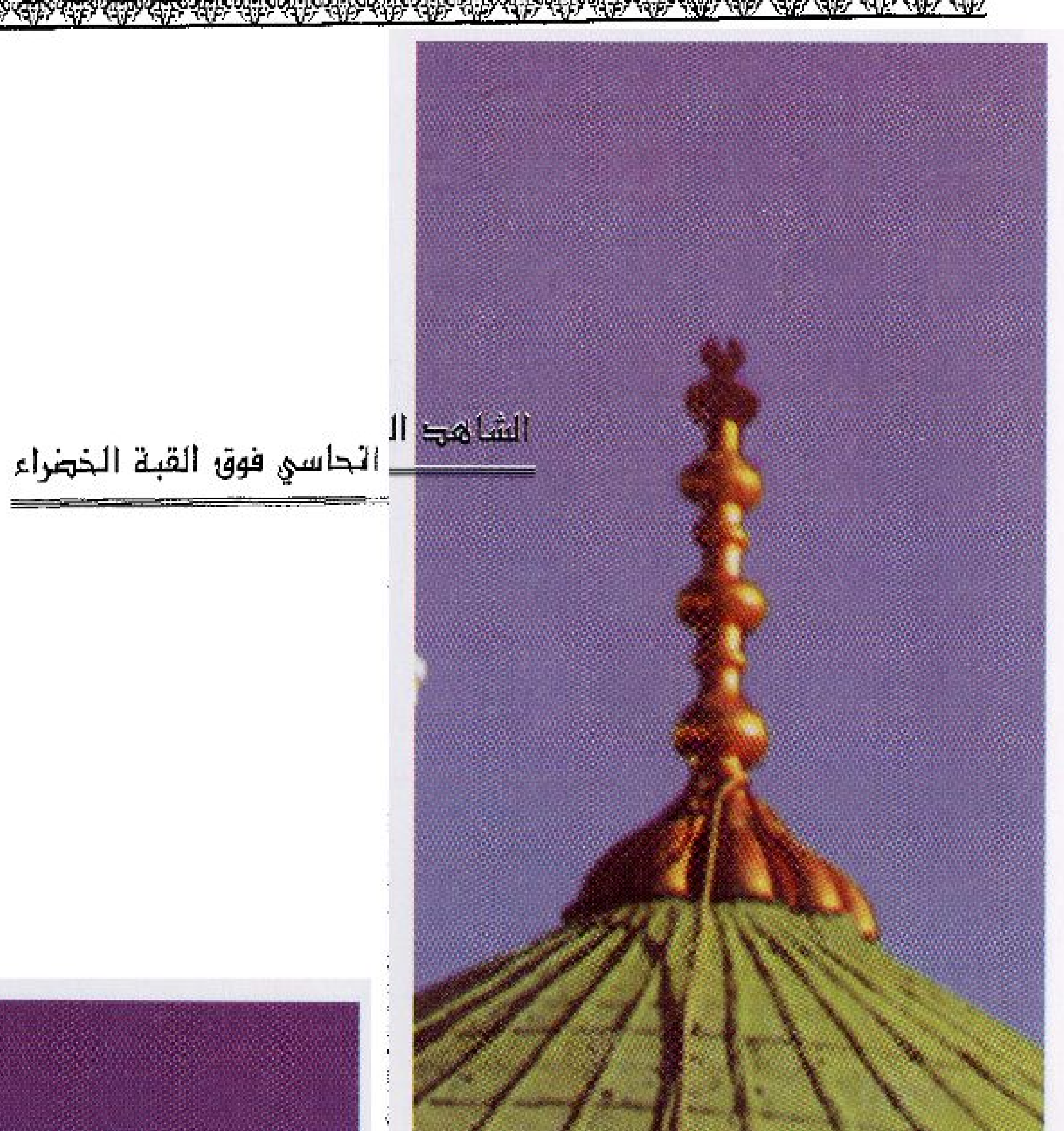
مسجد الإمام الحسين رضي الله عنه بكربلاء بالعراق



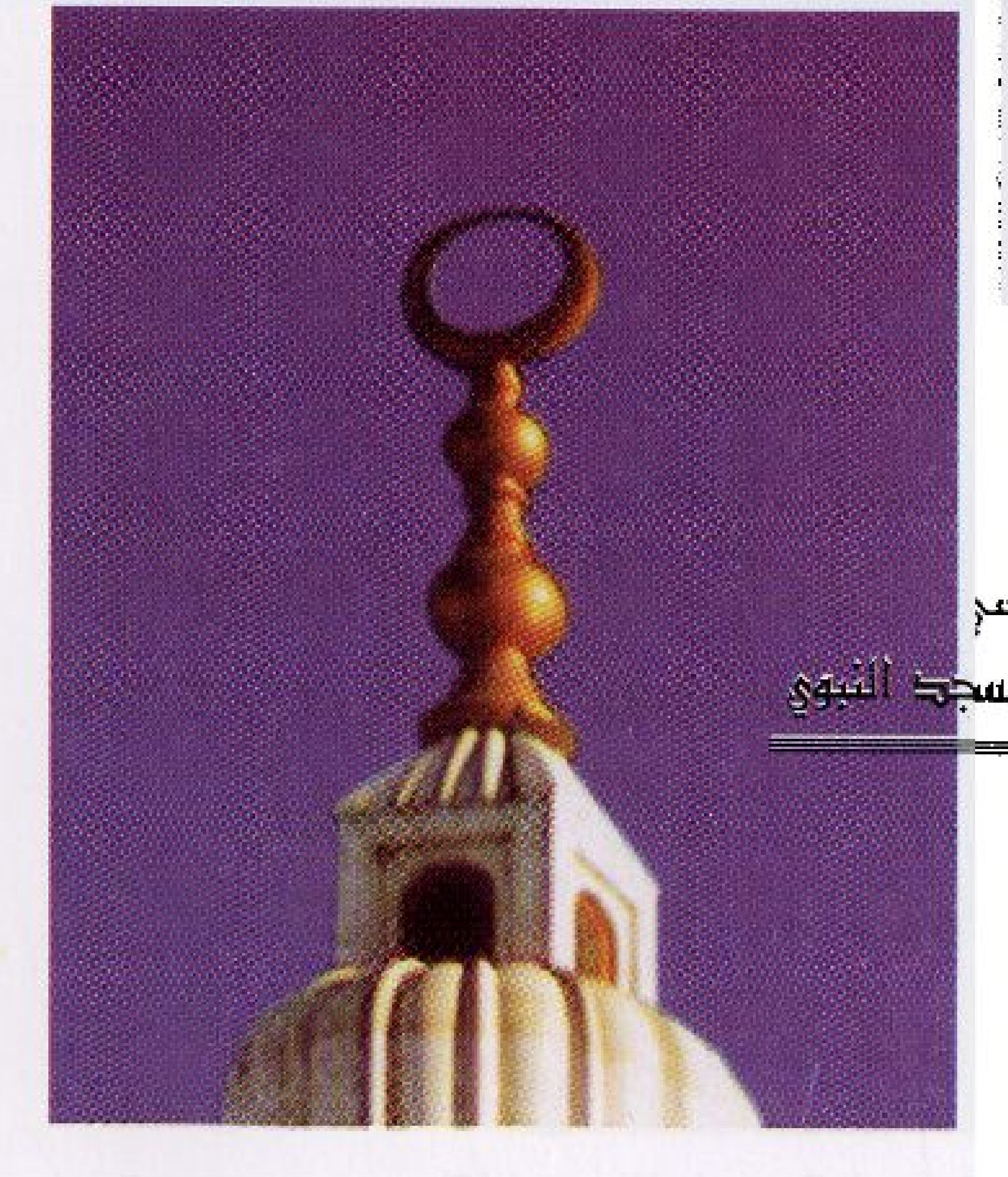
مرقد الإمام الحسن البصري رضي الله عنه بالبصرة بالعراق

منارات مدينة فاس بالمغرب

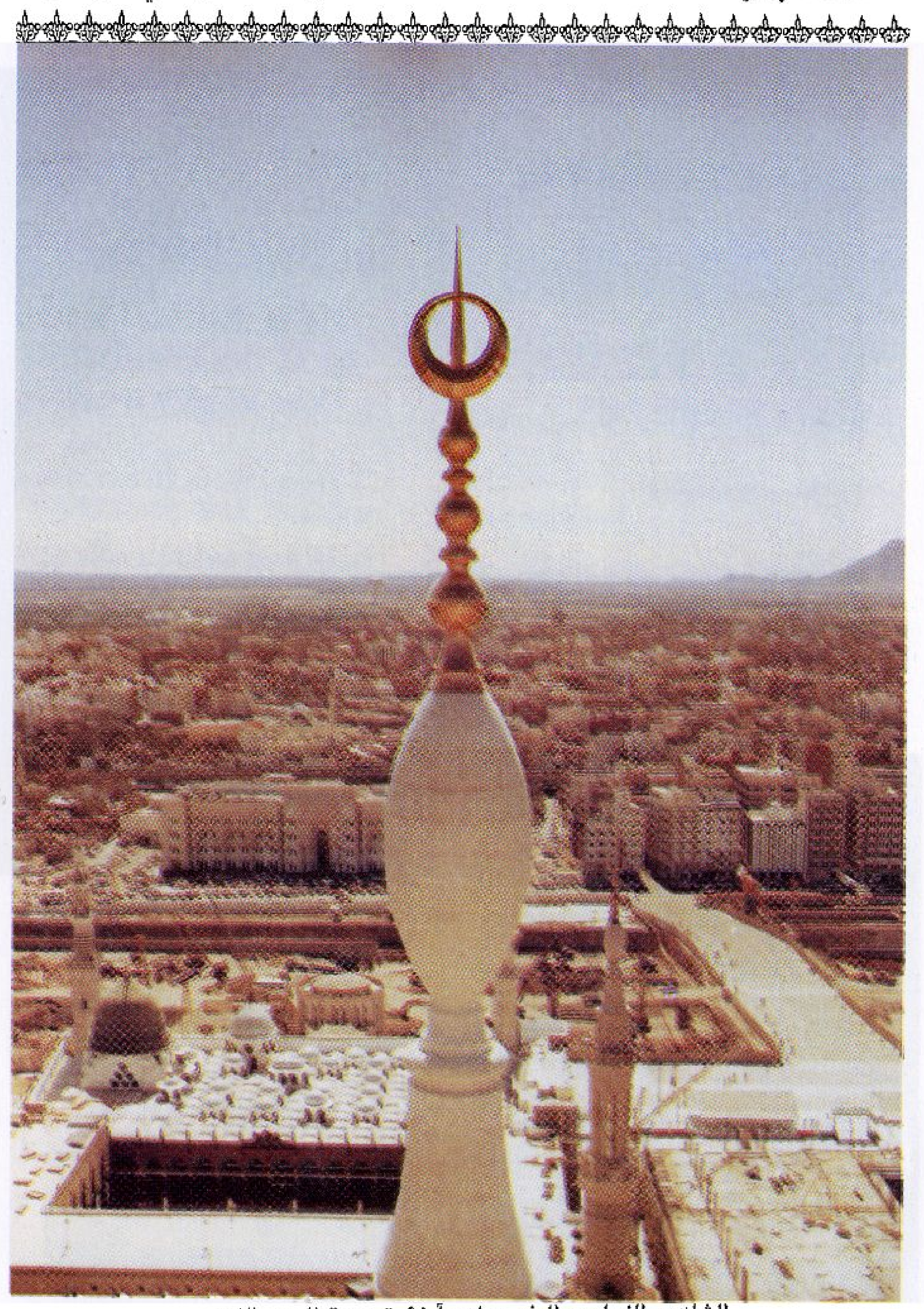




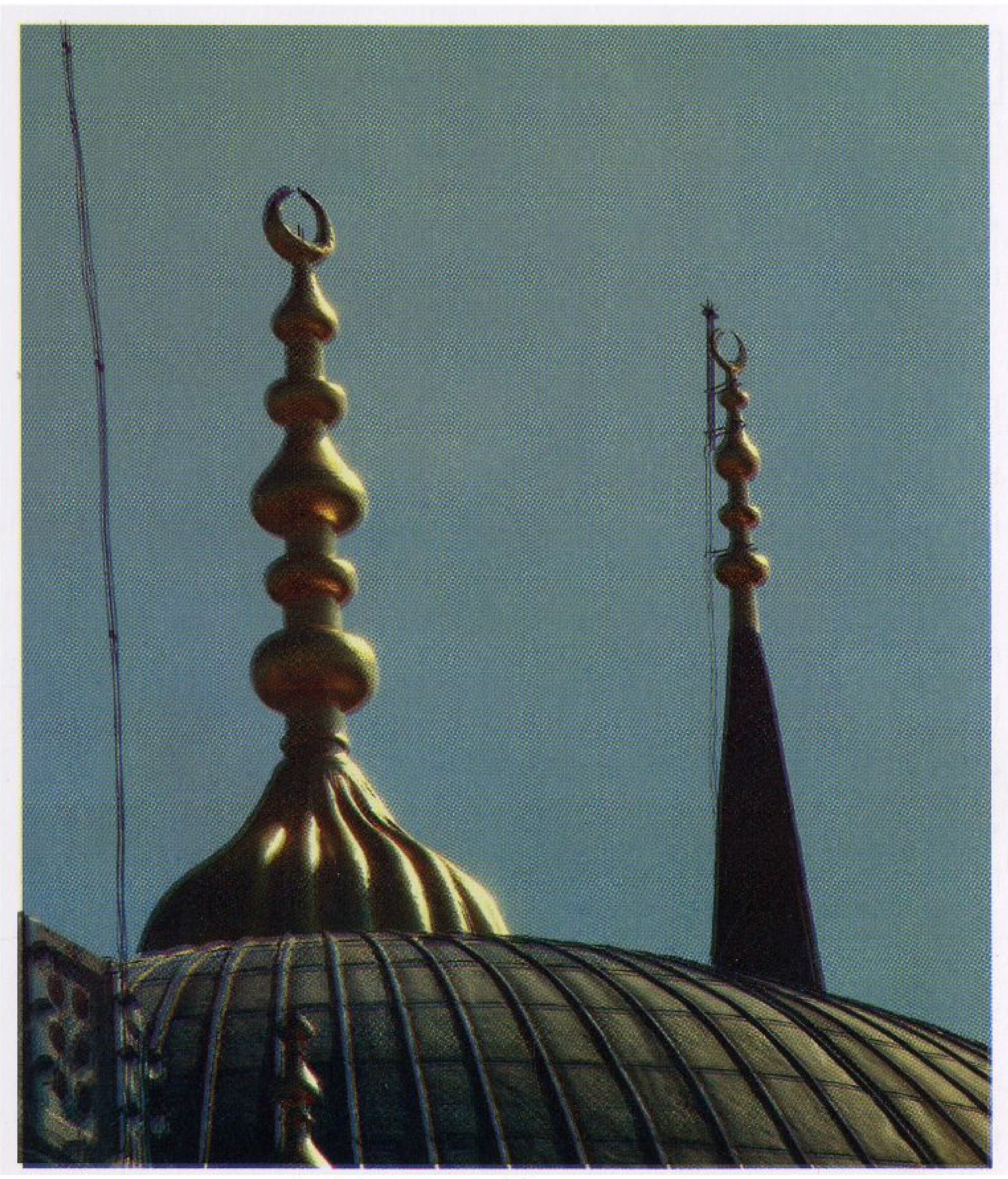
الشاهد النحاسي فوق القبة الخضراء



الشاهد النحاسي
فوق المئذنة الرئيسية للمسجد النبوي

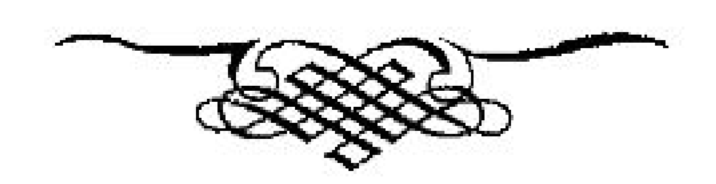


الشاهد النحاسي الذي يعلو مآذن توسعة الحرم النبوي



الشواهد التي تعلو قبة ومنارات مسجد السلطان أحمد

قباب ومآذن القاهرة القديمة



الخاتمة

هذا شيء مما فهمناه من المعاني التي تشير إليها المآذن، ولا شك عندنا أن ثم معان أخرى لم ندركها. وللمساجد في هيئاتها الخارجية والداخلية معاني تستحق الدراسة، وإن شاء الله تكرس لها رسالة أخرى.

وهناك سؤال يتردد كثيرًا عند الكلام عن معاني الفن الإسلامي عمومًا والمعمار الإسلامي خصوصًا، ألا وهو: ما الدليل على أن المعاني المشار إليها كانت مقصودة بعينها عند تصميم البناء، أثمّ شيء مكتوب يؤيد ذلك، ولماذا لا نُرجع تصميم البناء إلى القيم النفعية والجمالية ونعتبرها كافية؟

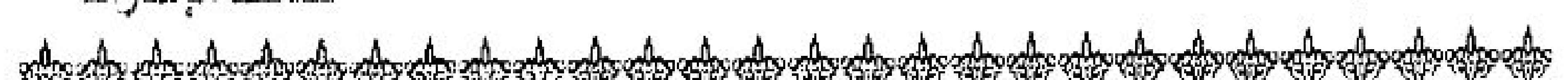
وليس هناك إجابة مباشرة وسهلة عن هذا السؤال، إلا أن وفرة وتضافر الأدلة العقلية تؤدي إلى يقين أنه لم يقم المسلمون بعمل ولم يصنعوا شيئا إلا وكان له معاني أعمق من قيمتيه النفعية والجمالية، فيكون السؤال الآن هو: هل ما استنبطناه من معاني هو ما أراده الصانع؟ وهذا لا يمكن الجزم به، ولكن كلما كان المعنى غير متكلّف وأقرب إلى البداهة كان الاحتمال أكبر بأنه المراد، ولا شك لدينا أن المعاني أكثر وأغنى مما أشرنا إليه، فنسأل المولى ﷻ أن ييسر ويلهم من يقوم بإبرازها.

إن البذرة التي غرسها سيد الخلق ﷺ في أرض هذه الأمة خرجت منها شجرة نمت وأثمرت بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى، وكانت ثمرتها الحضارة الإسلامية بعلومها الدينية والدنيوية، بآدابها وأخلاقها، بعلاقاتها الاجتماعية وأعرافها، بأدبائها وشعرائها، بمدنها ومبانيها، بمصاحفها وخطوطها وزينتها، بتفاعلاتها مع الحضارات والملل الأخرى، بتبنيها للإبل كوسيلة مواصلات أساسية وتجاهلها للعجلة والعربات. كان كل ذلك التفصيل الذي تفرع عن إجمال الرسالة المحمدية، وأبدعه أناس صُبغوا ظاهرًا وباطنًا بالصبغة المحمدية، فكانت أعمالهم تدل على ذلك وتشير إليه، وكانت

أعمال أعدائهم في الداخل والخارج ولا تـزال تهـدف أولاً وقبـل أي شـيء آخـر إلى تخريب هذه الصبغة وتحريفها، فبذلك تخرج الحضارة الإسلامية عـن مـسارها، ويبعـد أبنائها عن الإنصباغ بروحها، فيسهل استدراجهم بعيدًا عنهـا والقـضاء بـذلك علـى الإسلام.

وقد تكلَّمنا على النموذج المعرفي الإسلامي الذي لابد أن يبرزه كـل عمـل فـني، فهو محتوى وجدان الصانع الذي يعبر عنه في صنعته.

إن الفن الأول عند المسلمين، وهو الخط، مبني على أسس رياضية وقوانين كونية أشار إليها ابن مُقْلة بإيجاز منذ أكثر من ألف سنة، ولم يكتب أحد عنها منذ ذلك الحين فيما علمنا بإسهاب أكثر، علمًا بأن أنواع الخط العربي لها قوانين وأسس كثيرة صارمة وغاية في التعقيد، كما أن مهنة الخطاط لها آداب وأخلاق وأعراف عديدة، ومـع ذلـك لم يدوِّن أي من ذلك أحد، إذ لم يكن من دأب أساتذة وعباقرة تلك الفنون الإفصاح عن أسرارهم، فهي ما يسمّى «سر المهنة»، وتنتقل بالتلقي من جيـل إلى جيـل، ولـيس من الضروري أن يعلم كل خطاط وكل بنّاء هذه الأسرار بأكملـها، فلـيس كـل أحـد قادر على مثل هذا الاستيعاب، ولكن يكفيه أن يتعلم القواعد التي يجب أن يلتزم بهـا والحدود التي له حرية الحركة في داخلها حتى يخـرج عملـه موافـق لمـا عليـه أسـلافه. وحرية الحركة داخل الحدود المرسومة هي التي تسمح بأن يتغير طراز العمل وتفاصيله باختلاف الزمان والمكان، دون أن يفقد تلـك الـصفة الـتي تجعـل النـاظر يـدرك لأول وهلة أنه عمل إسلامي، وأنه يحمـل المعـاني الثابتـة الخالـدة للرسـالة الخاتمـة. وتظـل الثوابت التي تتوارثها أجيال الخطاطين والمعماريين وسائر الصناع تحكم الأعمال الفنية حتى يأتي زمان يفقد فيها الصانع احترامه لدينه ولتراثه، ويريد التحرر مما يظنه قيـودًا عشوائية أَلْزَمَهُ بها مَنْ قَبْله تجمدًا وجهلاً، ويـشتهي أن يقلـد الغـرب في تحـررهم مـن جميع القيود، فيخرج أعمالاً لا ارتباط لها بالنموذج المعرفي الإسـلامي، مقطوعـة عـن روح الإسلام والقرآن، ليس لها معاني علوية، بـل علـى العكـس تـشير إلى الـسطحية والفوضى التي في ذهن ووجدان صاحبها، وعلى اتباعه للهوى حتى صار أمره فرطاً.



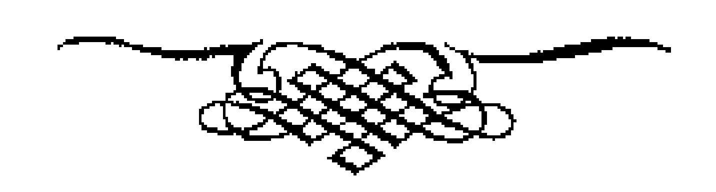
مئذنة المسجد الجامع القديم بمدينة كزيان بالصين[١]

(١) بنى الصينيون مساجدهم على الطراز المعماري السائد عندهم والملائم للبيئة والحضارة الصينية، والصورة لمئذنة المسجد الجامع لمدينة كزيان بالصين، ومن العجيب أنها مقسمة تقسيمًا ثلاثيًا.

لم يكن شيئًا مما فعلته الأجيال الأولى من المسلمين وتبعهم فيه من جاء بعدهم عشوائيًا، غير مخطط له بعناية من قبل علماء وحكماء الأمة، ليس نابعًا عن روح الإسلام ومعبرًا عنها، غير هادف للتذكير بالله ودينه والمحافظة على حيوية واستمرارية هذا الدين. ونيتنا أن نعود لبحث هذا الموضوع بتفصيل أكبر في رسالة أخرى إن شاء الله تعالى، فنسأله سبحانه أن يهيئ لنا الأسباب، وييسر لنا الأمور، ويوفقنا إلى ما فيه رضاه.

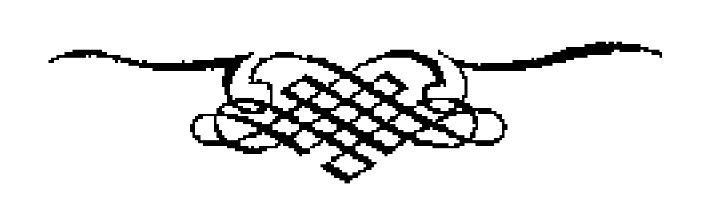
وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم،

والحمد لله رب العالمين.



فهرس الصور

رقم الصفحة	عنوان الصورة
٦٠	* مئذنة مغربية الطراز بمسجد باريس بفرنسا
٦١	* مئذنة غرناطة بعد تعديلها لتصبح برج الكنيسة
٦٢	* مئذنة غرناطة
٦٣	* مئذنة المسجد الجامع بقرطبة
٦٤	* المسجد الجامع بزبيد اليمن
٦٥	* مسجد الشيخ أبي بكر بن سالم
٦٦	* مئذنة رباط الحبيب علي الحبشي بسيؤن باليمن الجنوبي
٦٧	* صورة فوتوغرافية من منتصف القرن التاسع عشر لمآذن وقباب
٦٧	* صحن الأزهر حوالي ١٨٥٠م
٦٨	* القاهرة قديمًا بمآذنها وقبابها (رسم ديفيد روبرتس)
٦٨	* مساجد ومآذن القاهرة القديمة (رسم ديفيد روبرتس)
٦٩	* منائر القاهرة في القرن الثالث عشر الهجري
٧٠	* المدرسة الناصرية
٧٠	* مسجد ومدرسة السلطان قلاوون (قديمًا)
٧١	* مسجد السيدة زينب رضي الله عنها بالقاهرة
٧٢	* مآذن مسجد السلطان برقوق بالقاهرة
٧٣	* منارة مسجد سرغاتميش الملاصق لمسجد ابن طولون بالقاهرة
٧٤	* مسجد السلطان فرج
٧٥	* منارات المساجد ذات الطراز المملوكي بالقاهرة
٧٦	* مسجد المتوكل بسامراء العراق
٧٧	* منارة مسجد أبودلف بالعراق
٧٨	* مسجد ابن طولون بالقاهرة (قديمًا)
٧٩	* منارات مسجد ابن طولون بالقاهرة
٧٩	* مسجد الشجرة أو الميقات أو ذو الحليفة (حديثًا)
٨٠	* منارة مسجد الميقات
٨١	* مسجد الخليل- رسم: إدوارد لير
٨٢	* مسجد عمر بالقدس (قديمًا)- رسم: إدوارد لير
٨٢	* مدينة نابلس (قديمًا)
٨٣	* مسجد الناصر بنابلس بفلسطين
٨٤	* مئذنة مسجد برام الله بفلسطين

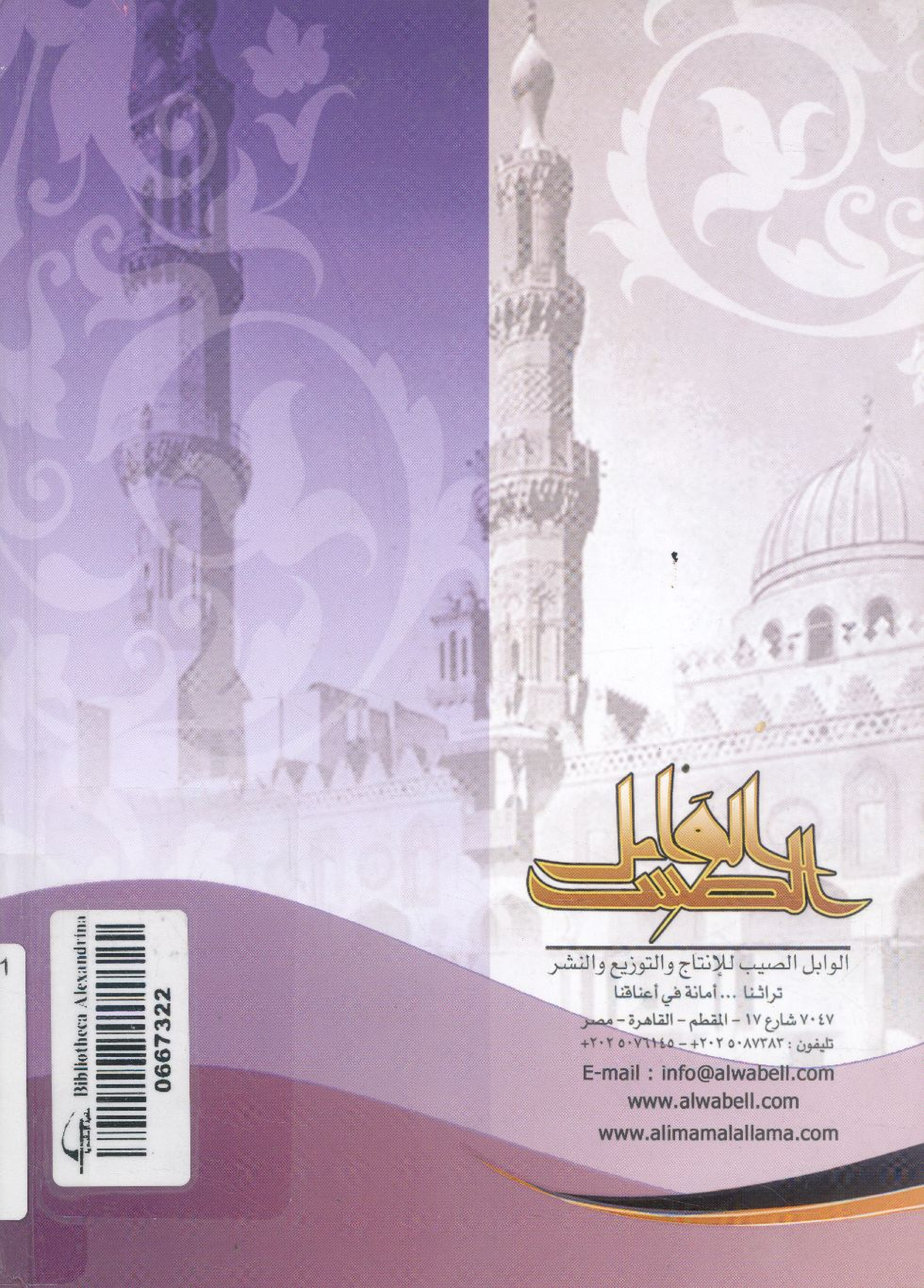


المحتويات

الموضـــــوع	رقم الصفحة

الموضـــــوع	رقم الصفحة




الوابل الصيب
الوابل الصيب للإنتاج والتوزيع والنشر
تراثنا ... أمانة في أعناقنا
٧٠٤٧ شارع ١٧ - المقطم - القاهرة - مصر
تليفون : ٠٢٠٢٥٠٨٧٣٨٢+ - ٠٢٠٢٥٠٧٦١٤٥+
E-mail : info@alwabell.com
www.alwabell.com
www.alimamalallama.com
Bibliotheca Alexandrina
06667322